مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn

رواية

إرَم

إبراهيم زعرور

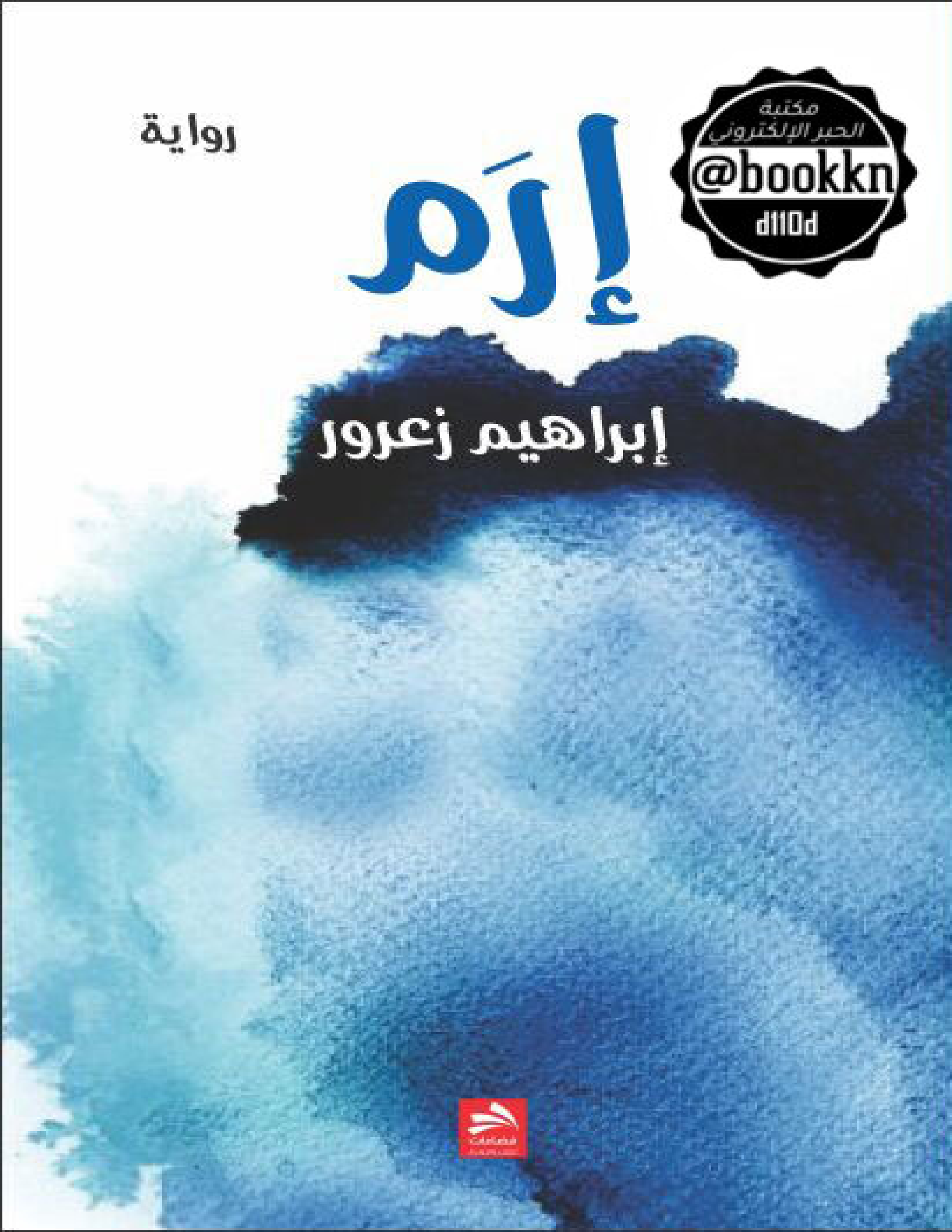

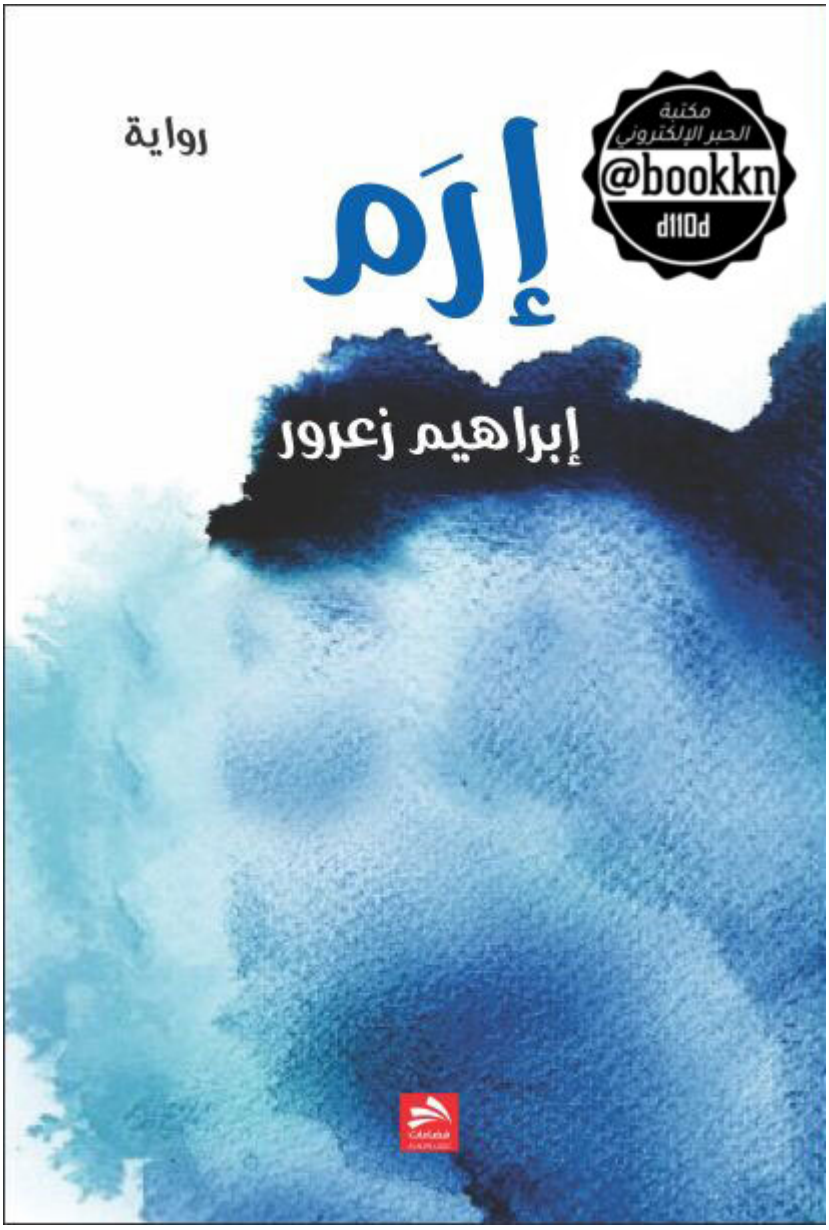
مكتبة
الحبر الإلكتروني
@bookkn
d110d
رواية
إرَم
إبراهيم زعرور

إِرَمْ

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

روايـة

إبراهيم زعرور

-ISBN: 978-9957-30

الطبعة الأولى: 2012

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

إرم-إبراهيم زعرور-الأردن

دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي

عمان-شارع الملك حسين-مقابل سينما زهران

تلفاكس: 4650885 (6-962+) هاتف جوال: 777-911431(962+)

ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن

E.mail:Dar-fadaat@yahoo.com

Website:http://www.darfadaa.com

التوزيع في تونس

فضاءات للنشر والتوزيع – فرع تونس

شارع الهادي نويرة. النصر II-تونس 2037

تلفاكس: 21 65 82 70 (216+)-الجوال 39 42 29 98 (216+)

E.mail: fadhahet@yahoo.com

Website:http://www.darfadaa.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: نضال جمهور

الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

-1-

«كان يجب أن أكون ميتاً. أنا واثق من ذلك ثقتك بوجود خمسة أصابع في كفّك اليسرى. نجوت بالصدفة المحضة، وعشت».

نقلت هذه الفقرة كما وردت حرفياً على لسان كاتبها، وجدتها في صدر الصفحة الأولى من مذكّراته لمشروع كتابه "الخميرة"، وكان لديّ بعد ذلك متسعٌ من الوقت يسمح للتأمّل في جُملها الثلاث، وكلماتها العشرين، مفكّراً بأنّها قد أصابت من جهة الفنّ، وأخطأت من جهة الواقع؛ لأنّ كاتبها، صديقي، قد مات.

غير أنَّ الموضوعية وتوخي الدقّة، تفرضان عليَّ أن أورد هذه الحالة بشكلها الأكثر صدقاً:

فأقول بأنّه قد اختفى، واعتبر في عداد الأموات. اختفى فجأة.

وذهبت كلّ محاولات العثور عليه أدراج الرياح. وكلّ الذين تبرّعوا مشكورين وأجهدوا أنفسهم معي في محاولة اقتفاء آثاره وفكّ لغز اختفائه، أعلنوا يأسهم وإفلاسهم تماماً.

ضاعت كلّ المحاولات عبثاً، فأدرجناه في قوائم الأموات.

جاءني قبل شهرين من حادثة اختفائه، وكانت تلك آخر زياراته، آخر مرّة أراه أمامي حيّاً من لحم ودم. رأيته كثيراً بعد ذلك في المنام، وفي رحلة البحث عنه في "عيذاب"، وفي أهوار البصرة، وفي أوهام اليقظة في محاولات العثور على طرف الخيط الذي يضعني على نقطة بداية حقيقية صلبة، وفي رحلات المرار اللاحقة لتجميع نُتف الأحداث وأنصاف الوقائع، من أجل تشكيل صورة تقريبية لهذه القضيّة.

وفي كلّ مرّة كنت أجد قصّة مختلفة، وشخصية بملامح مختلفة تماماً.

أنا، مثل غيري، سمعت الكثير عمّا يسمّونه السراب. ولكنّه ظلّ عندي كصورة خيالية دائماً: هيولي غير محدّد المعالم، إلى أن جاء اليوم الذي عانيت فيه مرارة تجربة الاختبار الحقيقي.

كان ذلك أثناء رحلة التقصّي لحقيقة ما حدث، وما تركه لي صاحبي من أسئلة نصفها يشبه الإجابات.

تعاودني في هذا المجال مقولة مارك توين من أنَّ «الوهم يشبه الشيء الحقيقي تقريباً».

ومن باب القياس في التشريع، يمكنني أن أقول مطمئنّاً، بأنّ صديقي: متوفّى تقريباً.

في زيارته. الأخيرة تلك، بدا مهدّماً مثل جدارٍ قديم غلبه الزمن. كتفاه متهدّلان، وشعر لحيته كالشوك، أحمر، يذكّرك بجذاذات الحصيد.

كان زائغ النظرات، تطلّ من عينيه صورة رجلٍ يتهرّأ من الداخل، يحدّق بالأشياء دون أن يراها.

تهاوى منهكاً على المقعد (نفس المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه كلّما جاء زائراً)، رجع برأسه مُغمض العينين إلى الوراء، ومدّ ساقيه إلى أقصى طولهما، وطلب وهو على حاله تلك، فنجاناً من

القهوة. كان من عادتي في كلّ زياراته، أن أسارع في تقديمها دائماً، حدث هذا دائماً طوال سنوات معرفتنا. ولكنّني في هذه المرّة، وجدته لا يطيق الانتظار: «أريد فنجاناً من القهوة» قال باستعجال، وبلهفة من يريد أن يقول: «أسعفني».

كلمات عادية، قريبة، ولكنّها محمّلة بدلالات بعيدة. «أريد فنجاناً من القهوة»، قالها بطريقة جعلتني أراه كمهزوم عاد من سفر طويل.

ما تزال صورته المقترنة بأمنيته الصغيرة تلك، تلحُّ على ذاكرتي. صورة البحّار العنيد الذي كسره البحر، وعاد مهزوماً. كان من السخف أن أجرح مهابة تلك اللحظة بالسؤال عن أيّ شيء، خصوصاً تلك المتعلّقة بالحال والصحّة، وما إلى ذلك، لما تنطوي عليه مثل هذه الأسئلة من الغثاثة واللامعنى.

كان دائماً شديد الاحتقار لهذا النوع من الأسئلة. يقول: تقتلني المكرورات المعتادة التي فقدت معناها لكثرة استخدامها، إنّها باختصار "لغوصة".

وكنت، في لحظات الصفاء، أسأله على سبيل المناكفة: «كيف حالك» فيردّ ضاحكاً:

«لا أجد ما هو أكثر سوءًا من حالتي سوى حالتك». وأحياناً يقولها بلهجة حانقة وجادّة تذكّره بأنّه كاد ينسى أمرًا مهماً، فيروح يفتّش في جيوبه بطريقة حمقاء عمّا يعتقد بأنّه كان على وشك أن ينساه، ولكنّه، لحسن الحظّ، تذكّره في اللحظة الأخيرة.

«ذكّرني سؤالك الغبيّ، وكنت على وشك النسيان... آه.. ها هي.. وجدتها أخيراً».

يقول ذلك وهو يستخرج من جيبه الداخلي ورقة مطوية بعناية يدفعها نحوي مطبقة بين إصبعيه السبابة والوسطى.

ساعتها كنت أفكّر؛ لا بالورقة التي أجزم بأنّني أعرف محتواها ومضمونها بشكل عام، بل بتلك الطريقة الشاذّة في المناولة باستخدام السبابة والوسطى!

ويدفعني الصمت بعيداً فأتذكّر ما حكاه لي مرّة عن ذلك الدور الخطير الذي لعبه وجود الإبهام في سرعة التطوّر وارتقاء الإنسان. فقد قام هذا التقابل بين الإبهام وبقيّة الأصابع مقام السحر عند الإنسان، وجعل من الكفّ أداة مُثلى لتلقّي الفكرة من الرأس وتحويلها إلى مردود عملي ساهم بدوره في ارتقاء الأداة إلى مستوى الفكرة.

كان هذا هو فحوى نظريّته في شكلّ الكفّ عند الرئيسيات. وها هو يهمل دور الإبهام ويناولني الورقة مطوية بين السبابة والوسطى بطريقة فيها الكثير من الاستخفاف مثل من يتكارم بمناولة النادل ديناراً فوق الحساب.

«لماذا تستخفّ بي؟» أسأله.

فلا يردّ.

أحدّق في وجهه فلا أرى إلا وداعةً مدهشةً..

-يبدو أنّ محاولاتك في كتابة الرواية قد شوّهت رؤيتك للواقع. يقول مثل من قطع فكرة وانتقل إلى أخرى.

فيذهب بي التفكير في لحظة الصمت التالية إلى أنّه قد يكون محقّاً.

فأنا في الواقع بدأت بالفعل في الأيام الأخيرة، أرى في الحركات البسيطة التي لا نفكّر بها لشدّة بداهتها، أشياء على درجة من الخطورة يصعب تصديقها. خذ مثلاً:

أنت تخرج إلى عملك في الصباح، فتتذكّر فجأة عند الباب بأنّك قد نسيت مفتاح المكتب. تعود وتتناوله ببساطة. يحدث هذا كثيراً مع أنّك لم تنسَ، ولو لمرّة واحدة فقط، مفتاح البيت عند مغادرتك المكتب مساءً. ولا يُساورك أيّ شكّ في طبيعة هذه المسألة.

ولأنّك رجل ناجح في عملك، ترفض التفسير الذي يقول بأنّك تكره المكتب وتكره عملك، وتفضل عليهما حياة الدعة والكسل في البيت. حقيقة مرّة تكشف عمّا في أعماقك دون أن تلتفت إليها.

لشيء من مثل هذا، رأيت في حركته نوعاً من الاستخفاف المبطّن، فسألته: «لماذا تستخفّ بي»؟

لم يردّ ولم يعلّق بشيء.

وكان في صمته شيءٌ من نوع «دعك من هذا الهراء» التي كانت كثيراً ما تجري على لسانه.

يومها لم يفعل شيئاً سوى إن ابتسم بإرهاق وهزّ رأسه.

كأنّنا على شبه اتفاق.

نعم. هذا كلّ ما حدث.

تناولت الورقة من بين إصبعيه، ودون أن أنظر إلى ما فيها، أضفتها إلى الملفّ.

ملفّ بغلاف مقوّى بسماكة كتابين كبيرين تجمّعت فيه مئات الأوراق والقصاصات والمُزق والصفحات تعوّد أن يزورني بها كلّما زارني قائلاً:

-خذ هذه أيضاً ربّما تنفعك.

فآخذها وأضيفها إلى الملفّ. صفحات فوق صفحاتٍ، وقصاصات ونتف أوراق تراكمت بالمئات بعضها مكتوب بعناية، وكثير منها بطريقة سيئة كُتبت على عجل كيفما اتفق، وعلى ما تيسّر له. حتّى على أغلفة علب السجائر والمناديل وكاغد الأكياس الإسمنتية.

ركام من هشيم الملاحظات والنوادر والمواقف والحكايات والحوادث والآراء، ممّا كان يراه جديراً بالتسجيل، تجمّع خلال سنوات صداقتنا الطويلة

كان يعوّل على ذلك الركام كثيراً ويعتبره نواة لعمل روائيّ كبير.

من جهتي لم أكن آخذ المسألة على محمل الجدّ، ولكنّني واصلت عمليّة التجميع نزولاً على رغبته كنوع من الترضية وترطيب جفاف الأيّام.

ذات يوم، وفي لحظة إلهام، أطلق على هذا الركام اسماً موحياً بالفعل، سمّاه "الخميرة".

يومها، وفي نفس الجلسة، قال بلهجته الغامضة التي عُرف بها أثناء تأملاته «بانتظارنا أيّامٌ لا يعلم مداها إلا الله.. أيّامٌ أشدُّ سواداً من قاع القدر».

«لماذا تقول بانتظارنا؟ إنّنا نعيشها واقعاً مرعباً بالفعل».

كان هذا، إذا لم تخنّي الذاكرة، فحوى ما تحدّثنا به. وأتذكر جيداً تلك الابتسامة الغامضة التي كانت ترتسم على وجهه في مثل هذه المناسبة عادة. رأيتها تولد على وجهه، في تلك اللحظة، كعلامة على ما يعانيه من اكتئاب.

في زيارته الأخيرة تلك، بدا مهموماً أكثر من المعتاد وهو يسألني:

-ماذا حدث بشأن الخميرة؟ ألم تبدأ بفحصها بعد؟

فأجبت بنوع من التورية:

-ما يزال عجينها عويصاً.

-لا تجعل جهودي تذهب سدى. لا أريد لموتي أن يكون بلا ثمن. قال بما يشبه الرجاء

كنت ساعتها أتأمّل في هذا الجسد الناحل؛ طويل مثل عود القصب. وتوقفت مطوّلاً عند الوجه المنحوت كلغز. نقرأ في بعض الوجوه سماحة أو لؤماً، طيبةً أو سفالةً. ونقرأ النوايا الخبيثة أو البريئة، نقرأ الكرم والتهور والجشع والشحّ. نقرأ العناد والاستسلام، ونقرأ الألمعية والغباء والتهريج حتّى من وراء أقنعة التهذيب. نقرأ كلّ شيء لأنّ الوجه مفتاح الشخصية.

ولكنّني لم أستطع أن أقرأ في وجهه غير اللغز.. لغز دفين يجعلك تتوه في الاتجاه الذي تذهب فيه المعاني، منحوت كوجه تمثال صدئ. مسبوك من الحديد الزهر.

ترى فيه مهابة في العارضين. وأنفة في استقامة الأنف، ولؤماً في العينين الضيّقتين الغائرتين، ومجوناً ولا مبالاة في الشفتين المزمومتين، وصراحة إلى درجة الاستهتار في بروز الفكّ.

ترى كلّ شيء فتحار في التصنيف.

«لا أريد لموتي أن يذهب سدى» قال «إنّهم يطلبون رأسي».

-وما الذي يدور في رأسك ليجعله مطلوباً؟ أسأله متصنعاً البراءة.

-هو ما تجده في الخميرة. تنحنح ثمّ أضاف: بشكل أكثر دقّة، دعنا نقول أنّ ما في رأسي، هو ما سوف يدور في رأسك عندما تبدأ بكتابة رواية ما ستجده من تفاصيل هذه الخميرة..

اقرأها ورقةً ورقة. وضع كلاً منها في سياقها التاريخي مثلما عرفته أنت لا كما سجّلته اللغة الساقطة التي ساسها المدمنون. تسامَ فوق ما في عقول الغوغاء. الخارطة المعرفية في عقول هؤلاء عافية مهترئة وممعّجة. اللاحق فيها مقطوع الصلة بالسابق. انتبه لما أقول. الغِ من رأسك نظرية المعرفة المألوفة عن الزمن المقسّم كوحدات متتالية وتعامل معه كأحداث تبدأ بالأسباب وتنتهي بالنتائج. هذا هو الزمن. تعامل معه هكذا. تبدّل الأيّام والشهور بذوات تتغيّا أهدافاً محدّدة تبدأ بالسبب الذي تتلوه نتيجة تنتهي بدورها كسبب تعقبه نتيجة وهكذا. أسباب تستدعي نتائجها ما تزال تتراكم وتتراكم إلى أن وصلت إلى ما أنت عليه الآن. انتبه جيداً لما أقول، فقد لا تراني بعد اليوم أبداً، وهذه هي آخر النتائج في قراءة زمني الخاص. الزمن التقليدي لا معنى له. طويل ومرير كانتظار ما لا يأتي أبداً. ما الذي يجنيه القتلى في مجزرة صبرا وشاتيلا إذا ما عرفوا أنّها حدثت عام 82 مثلاً.. هل تسمح لي بدخول الحمّام؟

-تفضّل. أشرت إلى المكان سارحاً لا أعرف إلى أين أتوجّه بمشاعري.

في تلك اللحظة دخلت زوجتي على عجل. جاءت من المطبخ تمسح يديها بمئزرها يقدح من عينيها الشرر.

-لا أريد هذا الرجل في بيتي! قالتها بهمس صاخب. أقولها لك للمرّة الألف، لا أريد أن أرى هذا الرجل في بيتي.

كانت تتكلّم بهمس بينما إصبعها السبابة يصرخ مهدّداً أمام وجهي.

وقطع عليها أزيز مفاصل باب الحمّام ثورة غضبها، فانسحبت بسرعة مثل من يخشى أن يضبط متلبساً، وعادت من حيث أتت قبل أن يعود إلى مقعده مواصلاً ما انقطع من حديث.

-ماذا كنّا نقول؟ سأل وهو يفرك إحدى راحتيه بالأخرى.

-كنا نقول أنّ زوجتي لا تريد أن تراك في بيتها.

-صراحتك الحارّة واحدة من أسباب التصاقي بك. هذه هي الصداقة الحقّة. على كلّ حال هي معذورة في شعورها الفطري بأنّني أفسد عليها زوجها. ومعذورة في قناعتها بأنّك تقف مع الطرف الخاسر. هذه يا صديقي هي طبيعة الفنان الحقيقي. لا بدّ له من دفع الثمن. تلك هي المعادلة: الأخلاق في كفّة والمنفعة في الكفّة الأخرى. المتّجر المساوم يتقبّل الثمن بلا مبالاة في حين يكون العقل المبدع عند درجة الغليان.حياة الدعة والسلامة التي ينشدها الناس العاديون، كالزوجة على سبيل المثال، لا تتحمّل هكذا خسائر. في الجانب الآخر لا تتأتّى أصالة الفنّ إلا من هذا الانحياز تحديداً. يا صديقي نحن في زمن الأنبياء الكذَبَة، زمن الخسران والتضليل والاغتصاب الجماعي، زمن الوجوه الفاضلة التي يصنعها المكياج، زمن فقد الحياء والتسليم الأعمى للصور المنتقاة بمعرفة الخبراء من علماء النفس، زمن الشاشة في صدر البيت تلاحقنا أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، تغتصب فينا أكرم ما وهبنا الله من قدرة على التحرّي والمحاكمة.

يا صديقي، في عالم يعرف فيه مدير التسويق كلّ شيء، لا يتبقّى للفنّان شيء يعرفه. إنّنا في عصر الفضائيات التي تُلغي العقل نهائياً. فكّر معي للحظة:

هل تمتّع الرسل وأنبياء الديانات بمثل ما لدى تجّار الفضائيات من وسائل؟

كانوا بشراً يطاردهم الوقت وتعوزهم الوسيلة وتعترضهم العقبات.. أمّا هذه الكلاب المسعورة فتواصل نباحها أربعاً وعشرين ساعة دون توقف... يجب أن يتنبّه الناس..

أخذني كلامه بعيداً، فرحت أتصوّر حياة السيد المسيح يضرب حافياً في مسالك طبريا وجبال الجليل، وحياة سيدنا موسى تائهاً في سيناء، وحياة سيدنا محمد يتأمّل وحدته في شعاب مكّة فتخايل لي بأنّنا أحوج ما نكون إلى نبيّ يناسب هذا الزمان المجنون ينقذنا من هذه الكلاب المسعورة التي اقتلعتنا من جذورنا.

أخذ صوته يتلاشى تدريجياً حتّى صار كالصدى البعيد وراح في جلسته المنحنية يتناءى ويتناءى حتّى بات كالعرجون القديم، أراه ولا أعيه، يتكلّم ويتكلّم دون أن أسمعه، كنت هائماً وراء هؤلاء الأنبياء في زمن البراءة، زمن البدايات الحنونة واليقين الرقيق متأملاً في حياة هذا الفلسطيني التائه، يحاول إنقاذ الروح من براثن الوحش، يسجّل الأحداث والمشاهدات على قصاصات تحملها الرياح فيلهث وراءَها طعيناً ملعوناً، يهذي بالنبوءات مثل شاعر مهموم، يتهجّى أولى قصائده.

-إلى أين وصلت؟ ضبطني متلبساً بالشرود، فانتبهت.

-ما زلت أمامك أحمل لك فنجاناً ثانياً من القهوة.

تناول الفنجان وأشار إليّ بالجلوس، وكنت مخدّر الحواس عندما عاد إلى تنظيراته.

كانت له نظرية عجيبة في الأدب تتماهى فيها الرواية بالتاريخ، كان يقول:

«إذا أردت التاريخ الحقيقي فالتمسه في الرواية: فهي البشير بقرب تحقّق الأسطورة. وهي النذير باستحالة نزاهة المأجورين من مدوّني التاريخ. لا حدود لممكنات السقوط عند هؤلاء. فأنا أثق بكتاب الأغاني أكثر ممّا أثق بالبداية والنهاية».

لم تُضف مقولته أيَّ جديد. ولكنّ المدهش هو ما لم يقله صراحة، وتكشّف لي بطول التأمّل، فالرواية لا تُحصى مسالكها، وتتوافر على ما لا يُحصى من طرق الفهم، بقدر عدد المستفهمين، بينما ليس للنصّ التاريخي غير وجه واحد للمعرفة، بالاتجاه الذي يذهب إليه النص.

واكتشفت أنّ الموازنة بين يقينية الوثيقة وشكوكية الحكاية ترجّح كفّة الثانية. فهذه الشكوكيّة المغوية بسلوك أيسر السبل تقودنا إلى انتقاء أصدق الخيارات ممّا يجعل الحكاية أكثر ديمومة وبقاءً حتّى من الإنسان نفسه، يموت وتستمرّ حكايته.

مات العرّاف الذي صاغ حكاية عصفور أبي الحنّاء وظلَّ مغزاها. تقول الحكاية: إنّ عصفور أبي الحناء الأحمر الصدر قد غافل الساحر اللئيم الذي يملك وحده سرَّ النار أثناء نومه، وسرق السرّ (جذوة) وأخفاه في صدره ليقدّمه هديّة للقبيلة التي كان يعيش في كنفها، والتي كانت ترتعد برداً وتأكل طعامها نيئاً.

نجح الطائر في مسعاه، ولكن حرارة الجذوة أثّرت على ريش الصدر الذي ظلَّ يتوهّج باللون الأحمر منذ ذلك الحين.

يوم قصصت عليه حكاية أبي الحناء هذه (هي أسطورة لا أذكر من أين استقيتها) راح يتأمّلني، يقيسني طولاً وعرضاً بإعجاب من يتحسّس أيقونة أفريقية من النوع النادر، وأخيراً قال:

-أنت روائي حقيقي، أصيل.

قالها بنبرة إعجاب صريح تخامرني الظنون بأنّني لا أستحقها.

كانت ثقته بي تفوق كثيراً ثقتي بنفسي، وكان يقول: «لم أرَ في حياتي من يسيء تقدير موهبته أكثر منك».

صحيح أنّني كنت قد أنجزت بضع حكايات وأقاصيص لاقت استحساناً إلا أنّني لا أستحقّ لقب "الحكاء الأصيل" الذي أطلقه عليّ في لحظة من لحظات التهوّر الرفاقي.

يومها فهمت كلامه هذا كنوع من التحريض الذي ما انفكّ يمارسه نحوي. يومها قال ما معناه بأنّه إذا ما أتيح له أن ينشرني وينفضني فسوف تتساقط الحكايات من أطرافي.

أصاب، بإلحاحه، نقطة الضعف الإنساني في داخلي، فسقطت في الشعور الطبيعي من الإحساس بالأنا.. ووافقت. وقد كلّفني هذا السقوط كثيراً فيما بعد، وألقى على كاهلي عبئاً لا أستطيع النهوض به.

فهو يريدني أن اعجن من نتف الملاحظات والخواطر التي اعتاد جمعها تحت اسم "الخميرة" عملاً روائيا "تراجيديا بنوراميا" لكلّ ما عاشه جيلنا من انكسارات. هل هناك من يجرؤ عل الادّعاء بقدرته على ذلك؟

صحيح أنّه قد حدّد المفاصل الرئيسية للأحداث خلال الستين سنة الماضية، وأنّه قد حدّد الكثير وأبرز الجوهري منه، وأنّه قد خاض الصراع بأسنانه وأظافره وأعصابه إلى أن انتهى إلى الانكسار، وأنّه، شأن كلّ واحد من هذا الجيل، ظلّ يعاني إحساساً بالقهر لا يُطاق، ولكن الفنّ الروائي شيء مختلف تماماً. يحتاج إلى شخصية محدّدة بمعالم ومواصفات إنسانية يمكن الإمساك بها ومحاورتها، شخصية تعيش حالتها الإنسانية الخاصّة المتفرّدة بأدائها واستجاباتها لظروف زمانية ومكانية محدّدة الأبعاد فيزيقياً.

أريد أن أقول باختصار إنّنا بإزاء حدث بعينه. لأنّ سرد الحكاية يظلّ هو الحقيقة الوحيدة والمحورية في أيّ عمل روائي. ومهما حاولنا زخرفة الكلام لتشكيل بنية فنيّة من نثار الملاحظات والتعليقات كما جاء في الخميرة، سيظلّ ما نقوله أكثر هشاشة وأقلّ صلابة من الحدث الواقعي، زخرف الكلام ينتقص من حقيقية الأشياء ويمخيلُ واقعيّتها ويمسخها.

وليعذرني المدرسيون لهذا التدخّل والاستطراد؛ لأني لست في وارد التنظير للفنّ الروائي، ولكنّني بصدد البوح وسرد تفاصيل الإشكالية التي وجدت نفسي متورطاً فيها. أذكر أنّه قال لي ذات يوم بنبرة الأستاذ «الرواية هي أن ترسم الأشياء بما يوسع مدارك القارئ». وظلّ يعيد هذه المقولة على مسامعي كلّما التقينا حتّى فاض بي الكيل ذات مرّة فصحت به «ألا ترى أنّني سئمت هذه المقولة، لماذا يغيب عنك أنّ حياتنا على درجة من المأساوية والاهتراء تتأبّى التعبير عنها بأيّة صيغة فنيّة مهما كان نوعها؟! الغثاثة، والخسران يا صديقي هو الحقيقة الصلبة الوحيدة الماثلة أمامنا.

يومها مسح إحدى راحتيه بالأخرى كمن ينفض عن كفّيه غباراً متوهّماً، وقال وهو يحدّق فيما إذا كان قد تبقّى شيء من الغبار غير الموجود:

«هذا أكثر مدعاة للمحاولة وضرورة قول ما يستحقّ أن يُقال».

كانت أحلامه – التنويرية منها بالذات – عريضة وأكثر من أن يتسع لها شخص واحد.

كان يقول: عندما أجمع ما يكفي من رأس المال سأتكفّل بأكاديميّة تضمّ في رحابها الفلاسفة والعباقرة والموهوبين من بني قومي. يجب أن يتنبّه الناس لما يحدث.

وفي حين كان يمكن لأيّ أحمق أن يقرأ الفاقة في وجهه، كان يُشيد المدائن ويخضّر الصحراء وينشر العدل. كان حالماً مثالياً لا يعنيه الواقع في شيء.

وكنت في ساعات المناكفة أقول له أنّ أكثر ما يناسبه من المهن هي مهنة الأفّاق. وكان يضحك. كان قد بلغ تلك المرحلة من الوعي التي نجد أنَّ كلّ ما حولنا صار مضجراً: شاشات الفضائيات، المنظرين السياسيين وهم يحاولون إخفاء ما يعرفه الجميع، المتحاورين وهم يبدّدون السهرة بالمفاضلة بين النعل والمسمار، طلبات الأولاد، رنين المنبّه في تمام السادسة صباحاً، تفقّد الزيت في السيّارة، الصحف الرخيصة وعناوينها المضحكة، دبيب الجنس في ندوة الحوار حول دور

المرأة، الفواتير مستحقّة الدفع، وآخر أخبار سوسو التي سوف تعتزل الفنّ وتتجه للعمل في الصحافة.. الخ الخ.

كان دائم التنذّر بمثل هذه العناوين المستمدّة من الواقع. يقولها ويندبها ويتغنّى بها مقترباً من حافّة الجنون. لم يكن ينقصه إلا أن يقف عند طرف الشارع ويقذف المارّة بالحجارة، مجنون رسمي.

وكنت أسأله:

-إلى أين سينتهي بك كلّ هذا التجاهل للواقع؟

-إلى أقصى درجات الاحتمال. يردّ بجديّة تامّة.

-التحمّل هي الكلمة الصحيحة... أقول مناكفاً.

يتجاهل رغبتي في المعابثة ويقول:

-تعجبني دقّتك في تحديد المصطلح، ثمّ مسح فمه براحتيه وأضاف:

-حتى عندما تكون على خطأ.

قالها باستهانة من يتسلّى بتزجية الوقت بمساومة، لا لزوم لها، عندما يسأل البقال عَرَضاً: «بكم تبيعون البطاطا هذه الأيّام»؟

قلت مواصلاً نفس النهج في المكايدة:

-حتّى الحمار يستطيع إدراك الفرق بين التحمّل والاحتمال. فرفع إصبعه الشاهد أمام أنفه كإشارة تحذير إلى الاستثناء، وقال:

-إلا الحمار الذي... ثمّ قطع الجملة فجأة وانعطف بالكلام في اتجاه آخر قائلاً:

-من أكثر آيات العبقرية وضوحاً عند الحمير، هو تعلّقها الأعمى بفكرة أنّها حمير.

لم يستوقفني الاستثناء المبهم عن الحمار الذي.. (أغلب الظنّ أنّني كنت المعنيّ بهذا الاستثناء). أقول: لم تستوقفني هذه المسألة، وبدلاً من ذلك رحت أفكّر في ظاهرة قطع الجملة من منتصفها التي بتُّ ألمسها بشكلٍ واسعٍ في حديث الناس.

وأومض في ذهني تفسير هذه الظاهرة فجأة. وانكشف لمخيالي أنّ السبب كامن في المخزون الهائل من التعاسات التي تزدحم بها عقول الناس. شيء أشبه ما يكون بازدحام المدن.

ورحت أتخيّل العقل مدينة كالقاهرة مثلاً تعجّ بملايين الهواجس والرغبات والنوازع والتوتّرات والشواغل والمخاوف والغوايات والأمزجة والخواطر والقهر والمكبوتات، وسمعت نفسي أقول: «ضيّقوا علينا العالم حتّى صار الواحد منّا قارّة بحالها».

وعلى الصعيد الشخصي عشت مرحلة من استخدام الحمام الزاجل، وأستطيع الآن أن أرى وجه محدّثي على شاشة الهاتف المحمول في النصف الآخر من الكرة الأرضية، «أنقذنا يا ربّ»!

- سلامة عقلك.. سمعته يقول ساخراً.

كنّا في الحقيقة مثل قطبين متعارضين التقيا بمحض الصدفة، مثل كوكبين كلّ منهما تابع للآخر، يدور حول نفسه وحول الآخر في نفس الوقت. حركة تبدو لي مستحيلة «أحبّك أكثر من أيّ ملعون آخر في هذا العالم». وعندما أفقت من تأملاتي وجدته يحدّق بي بفضول طفلٍ يحدّق بعلجومٍ أخضر.

- سلامة عقلك، قلت له فقال:

- أظنّك ستتشفى بمرور الوقت، فأنا أعرف الكثيرين ممّن شفوا من هذه الآفة التي أنت فيها.

-2-

أذكر الآن يوم التقينا لأوّل مرّة. أذكره تماماً. كان العالم يتأهّب للدخول في ليلة رأس السنة، وكنّا في الغروب.

وكانت ريح الشمال الجليدية تضرب الجزيرة كالسياط، تحمل المطر أفقياً وتجلد به الوجوه وحيطان البيوت.

مطر لم يتحدّث بمثله الأقدمون منذ عشرات السنين، وكان البحر قد طغى على حدّ الجزيرة الشمالي، فاجتاح الشاطئ، وفاض فملأ القيعان وغمر الطرقات ودخل البيوت، وكانت الريح تهزّ الأبواب، وتزمجر فوق السطوح، وتعوي في الحواري.

كنا نسكن في الجزء الجنوبي، حيث ترتفع البيوت عن مستوى الشارع فوق ما يشبه الربوة، فلم يصل إلينا غضب البحر، وإن ظلّ عزيف الريح على أسلاك الكهرباء يزمجر بلا انقطاع ويخرق بصفيره الآذان.

كانت صيحات التكبير والتهليل تختلط بعويل النساء وقعقعة الدلاء. كان الناس ينزحون المياه فيما حناجرهم تغرغر باستغاثات لم تكن مبرّرة على الإطلاق.

لم يكن الماء مغرقاً بدرجة تبرّر هذه الهستيريا وهذه الفوضى. ولمست في حركة الكثيرين ميلاً فطرياً إلى المبالغة، وأحسست أنّ الكثيرين كانوا يبحثون عن الإثارة مثل من ملَّ حياة الترف وصار بحاجة إلى كارثة يتحدّث عنها.

لم يكن الماء ليصل إلى أكثر من الكاحل في معظم الأماكن، وكان يمكن لبضع مضخّات مع رجال الإطفاء أن تفي بالغرض. ولكنّهم عندما وصلوا ببزاتهم اللامعة وأبواق سياراتهم، تبيّن أنّهم هبّوا للنجدة بمضخّات معطّلة. وفيما هم يهرولون غادين رائحين لغير ما هدف محدّد، بدأنا نسمع الشتائم تنصبّ على (الكبّاس) السائب، ومرة على (الخانق) الذي أغلقه كيس بلاستيك لا تدري من أين جاء، ومرّة على ما لا ندري من قائمة المفردات التقنية التي لا يعرفها سوى خبراء المضخّات.

كان الأمر مضحكاً إلى درجة موجعة.

وهدأت العاصفة فجأة مثلما بدأت، وباغتتنا قوس قزح ينتصب في الأفق الغربي، فقام احد أئمّة المساجد، بناء على طلب من ابن نعجة، برفع الأذان في غير موعده. فداخلني شعور بالغربة محبط ومستفزّ «نحن أمام حدث عاديّ. ورفع الأذان في غير موعده لا يكون إلا لأمر جلل» ما الذي حدث لهؤلاء؟! «يا مثبّت العقول ثبّت لي هذه النتفة المتبقية عندي».

كانت المياه قد بدأت تتراجع في القنوات المنخفضة عائدة إلى البحر من حيث أتت، ولم يبق إلا الأرض المبلولة، والأذرع العارية لنساء وجدنها فرصة للتشمير أثناء نزح المياه. وظلّت رؤوس الكثيرات مكشوفة تعلن للملأ عن عورة جرى التغاضي عن كشفها في حمّى الانفعال، وحان وقت سترها. واكتشف الرجال أنَّ في هذا التهاون مساساً بفحولتهم. فراحوا يوبخون القريبات اللواتي سارعن إلى تغطية الرؤوس فيما ظلّت الملابس الغارقة في البلل تلتصق بالأجساد مبرزة التجاويف

والانحناءات بطريقة تتبادل فيها المفاهيم مواقعها بحيث تتداخل غنوجة الحشمة مع رصانة الافتصاح.

ولمّا كنت من القليلين من الأغراب المتواجدين، فقد غضضت الطرف، وأدرت ظهري للمكان وغادرت.

لو أتيح لك أن تراني ساعتها، لقدّرتَ بأنّني حزين.

حسنٌ إذاً. لن أمنعك من ذلك. ويمكن للمرء أن يعتقد ما يشاء دون تدخّل من أحد. ولكن الأمر مختلف بالنسبة لي. فكلّ شيء من حولي يفوح برائحة الغربة. غربة مفروضة بفعل قدري أتمنّى لو أنّني أستطيع التخلّص منها، أشلحها مثلما تخلع عنك ملابسك المتّسخة، أنفضها عني وأعطيها لأوّل عابر سبيل.

ولكن هيهات. فإنّ من يمتلك قدراً ولو يسيراً من العقل سيعرف أن هذا مجرّد تخيّل مستحيل؛ لأنّ ما شاهدته للتو لم يكن أمراً عارضاً، كان تاريخاً، تحوّل في لحظة ترف بائس إلى سلوك. فرفع الأذان في غير موعده مسرحية مثيرة للشفقة.

ما لي، وأنا الغريب حتّى عن نفسي، ولأناس أفسدتهم حياة الرفاهية وشوّهت مشاعرهم. محرومون حتّى من دواعي الألم الصادق. هل تبلغ البلادة بالإنسان حدّ مسرحة عواطفه؟ مسرح مثير للسخرية باتساع قوس قزح.

كنت في لحظة صحو عبثي يغمّني الكرب. شيء لا يشبه الحزن في شيء. فليس للحزن ما يشبهه إلا الحزن نفسه. وأظنّني كنت ساعتها في مرحلة ما بعد الحزن.

وأنت يا صديقي، ترى أنّني وفاء لذكراك، أحاول ما وسعتني اللغة، أن أكون وفيّاً في توصيف حالتي عشيّة لقائنا الأوّل.

فأنت، وبعد غيابك الطويل، لا بدّ أنّك لم تعد تعرف أنّ الناس صاروا يموتون دون ذكريات. نعم. موت بلا خصوصية وعلى شاكلة الإنتاج الكمّي. موت متشابه ومكرّر لا يميّز الواحد عن غيره إلا الرمز الشفري المطبوع أسفل العبوّة.

لا تضحك في قبرك إذا أخبرتك أنّني فكّرت جادّاً ذات مرّة، أن ابحث عن شركة تأمين تقبل بالتأمين على ذكرياتي. أحاول، مستميتاً، طرد شبح النسيان.

أتذكر الآن، وبعد أن شرعت بكتابة الرواية التي أردتها أنت، كيف كان الصخب العابث يملأ المكان «بركاتك يا وليّ نعمتنا» كانوا يصايحون «لو لم تكن سيدتنا هي سيّدتنا، لطغى علينا البحر وأغرقنا» «إنّها المعجزة جاءت بها سيّدتنا»

إنّني أنقل إليك ما سمعته يتردّد على ألسنتهم من بعيد.

كنا في مساء ليلة رأس السنة قبل أن ألتقيك بقليل. هل تذكر؟ عندها، في ذلك المساء البارد كان الناس يؤكدون نقاء عبوديتهم. أنا؟ لا. لست مصاباً بجرثومة الشعور بالنقمة، ولا الشعور بالتفرد. كلّ ما أطلبه هو السماح لي بأن أكون أنا نفسي لا أكثر. أن يكون لي ذراعان طليقان، وساقان حرّتان، وعينان أرى بهما ما أريد أن أراه، وعقل يعرف كيف يسأل، وقلب لا يعرف لماذا يحبّ.

-3-

عدت إلى البيت سارحاً في تأملاتي فيما رأيته، وحانت مني التفاتة صوب الغرب، فرأيت أنَّ الكعب الأيسر لقوس قزح قد انمحى، اختفى نهائيا. بينما ظلّ نصف القوس الأيمن كاملاً يشع بألوانه الفاتنة وكنت قد وصلت الحارة وعلى وشك الانعطاف يساراً إلى البيت عندما شاهدت شاحنة محمّلة بالأثاث، قادمة من جهة الميناء، وتوقفت أمام البيت الفارغ المقابل لبيتنا، وخرج منها رجل وامرأة وثلاثة أطفال.

كنت أعرف أنَّ هذا البيت فارغ منذ شهور، وأنّه معروض للإيجار. فسكان الحارات كما هو معلوم، يعرفون كلّ شيء: يعرفون الداخل والخارج وقطع الأثاث، ويعرفون الصداقات والخلافات وآخر حكايات الفضائح. ماذا يأكل الجيران وماذا يشربون، واتصالاتهم تجري على أساس عاطفي وشخصي جدا.

أدركت أنّ هؤلاء الناس قادمون من البرّ الآخر، ولا بدّ أنّهم يعانون الدوار بعد رحلة قاسية في هذا البحر الصاخب. كان الأطفال يرتجفون برداً إلى جانب الشاحنة، فيما المرأة تهمهم مثل من يحاول إخراج الحروف من انفه. الأطفال، وكلّهم دون السادسة، يقفون صفّاً واحداً مثل دجاجات منتوفة الريش، يتقون الريح بالشاحنة، فيما كان الأب يعالج قفل الباب.

كان التيّار الكهربائي قد انقطع مع بداية العاصفة فظهر داخل البيت معتماً وكأنّما البرد يطلّ برأسه من الباب يتفرّس في وجوه القادمين بإشفاق ويقول لهم: «تفضّلوا». أصابني ما يشبه الإحساس بالتراخي ممّا كنت أعانيه، شاعراً بشيء قليل من الفضول الباهت، وبتعاطف أبوي كامل أنساني صدمة العار التي فارقتها توّاً وجعلتني حائراً لا أدري لمن يمكن أن أوجّه كراهيتي. طارت روحي صوب الأطفال غارقة في نوبة من الطهر الميتافيزيقي فقطعت الشارع وتوجّهت نحو الرجل.

كان ناحلاً وطويلاً مثل عود القصب وعلى وشك التقاط أول بادرة من حسن النيّة.

-مساء الخير. قلت.

-مساء الخير. أجاب.

-عذراً للفضول، ولكنّني أعتقد أنّكم السكّان الجدد.

-نعم استأجرنا هذا البيت، حملنا أثاثنا على هذه الشاحنة ووصلنا متأخرين كما ترى و...

قال ذلك وهو يشير إلى الداخل البارد المعتم. وجاء صوت الطفلة الوسطى أقرب شبهاً بشهقة من يوشك على البكاء:

-بابا الدنيا برد.

فشجّعني قولها على المضيّ في فكرتي، قلت:

-إذا سمحتم لي سنتدبّر الأمر بطريقة أخرى. فالكهرباء كما ترى مقطوعة. وهذه الليلة أسوأ توقيت لتفريغ الأثاث، هذا الباب (وأشرت بيدي نحو بيتنا) المقابل الذي تراه هو بيتنا. ويسعدنا أن

نستضيفكم هذه الليلة، والصباح رباح كما يقولون.

كان سائق الشاحنة ما يزال يجلس وراء المقود، يرتفق حافة النافذة المفتوحة ويسند رأسه بكفّه يفكر يائساً بهذا المأزق، ويستمع لما يدور وفي عينيه تساؤل صريح «وماذا عن حالتي أنا»؟

فتوجهت إليه وقلت بما يشبه الاعتذار:

- ليس في برنامج العبارة رحلات ليلية، فعليك الانتظار حتى صبيحة الغد عندما يرتفع المدّ في حدود الساعة العاشرة، حيث نكون قد أفرغنا شاحنتك تعود بعدها إلى أهلك بالسلامة مع أوّل رحلة.. أمّا.. أمّا عن مسألة مبيتك فأنا شديد الأسف لأننّا لا نملك مكاناً إضافياً يناسبك، ويمكنك أن تنام في الفندق هناك (وأشرت بيدي صوب الفندق) على بعد مئتي متر. إنّه الفندق الوحيد في الجزيرة، متواضع صحيح، وشبه خالٍ غالباً ولكنّه يفي بالغرض.

وحانت منّي التفاتة صوب الصغار وأمّهم، كانوا يرتجفون منهكين تماماً بعد رحلتهم في هذا البحر الهائج. لم يلبث السائق، رغم عدم اقتناعه تماماً، أن نزل وأغلق الباب وتوجّه متردّداً صوب الفندق. لم يبتعد لأكثر من خطوات حتّى عاد التيّار فجأة فأضاء الشارع وشعت اللافتة فوق واجهة الفندق، فتوقف، والتفت إلينا يهمّ بالعودة، فأشرت له قائلاً:

- لن تفيدنا عودة الكهرباء في شيء، فالعبارة لا تبحر ليلاً حتّى مع وجود الكهرباء. وكما قلت لك قبل العاشرة من صباح الغد ستجد شاحنتك فارغة وجاهزة للرحيل.. توكّل..

حاول أن يقول شيئاً، ولكنّه أحجم في آخر ثانية. كانت لهجتي حاسمة كما أحسّ بها على ما يبدو، فواصل طريقه نحو الفندق.

وهنا وضعت كفي الأيسر على كتف الرجل، من باب تدفئة الأجواء، ومددت ساعدي الأيمن نحو بيتنا مرحّباً «تفضّلوا» قلت بأسلوب الفلاحين القدماء.

هرول الصغار صوب الباب، ومشى الرجل إلى جانبي يهمس بالشكر، فيما راحت المرأة تجرّ أقدامها وراءنا يثقلها الصمت.

استقبل أطفالي أترابهم الضيوف بالتلقائية والوداعة على مألوف عادة الصغار في هذه السنّ.

كانت الإضاءة في الصالة فارهة، تفيض بسخاء، والجوّ دافئاً، وتوم يلهث محموماً وراء جيري ويرتجل الحلول الحمقاء لمكائد صاحبه.

جلس الرجل وزوجته متجاورين على المقعد الكبير ورأيته يبسط لها كفّه فتتحسّسها بأصابعها مثل من يتحسّس بقايا جرح شبه ملتئم. حركة شفرية جعلتني أقف حائراً مثل من يطلب تفسير الفيضانات من علجوم.

ولكي أتجنّب الارتباك استأذنت بحجّة مساعدة زوجتي في المطبخ لإعداد العشاء، وخرجت من الصالة مسرعاً.

-زوج وزوجته وثلاثة أطفال.. مثلنا تماماً.. همست لزوجتي.

-من أين جئت بهم؟ سألت مستاءة.

-استأجروا البيت المقابل ولا يمكنهم في هذا الجو...

-لم تعجبني هذه المرأة..

-وطي حسّك (أخفضي صوتك) أشرت بالشاهد قائماً أمام أنفي.

-تبدو لي أنها متكبرة..

ثمّ فقست بيضتين أخريين في المقلاة وأضافت:

-لم تردّ على تحيتي إلا بإيماءة من رأسها.. تبدو متكبرة زيادة عن اللزوم.

-ربّما تعاني من دوار البحر. لا تكوني سيئة الظنّ.

-تتكلم من رؤوس مناخيرها. أنا لست سيئة

-وطي حسّك.. يبدو لي وجه الرجل مألوفاً كأنّني رأيته في مكان ما..

-هل هم سوريون؟

-ما أدراني أنا؟-لم أسألهم.

-أنا أقول إنّهم سوريون.

-قولي ما شئت.. انتبهي للجبنة لا تحترق.

-اللي في القدر بطّلعه المغرفة.

-بنتان وولد.. مثلنا تماماً وبنفس الأعمار تقريباً.

-هذا أحسن.

كان نشيش الزيت في المقلاة يطغى على وشوشاتنا، وكنا في الحقيقة نغتاب جيراننا الذين لم يلتقطوا أنفاسهم بعد.

حملت صحنَي البيض والجبنة المقلية المحمّرة وذهبت بهما إلى المائدة في الصالة. «أهلاً وسهلاً» قلت متوجهاً نحوهما بابتسامة عريضة، ثمّ عدت أنقل بقية الصحون: بندورة مقلية وحلاوة طحينية، زيت زيتون وزعتر، زيتون أسود، وكبّة من بقايا الغداء. وأخيراً الباذنجان المهروس والحمص والخيار المخلّل.. ثمّ دخلت زوجتي تحمل إبريق الماء ورزمة من الخبز، وسرعان ما بدأت بإعادة توزيع الصحون بحسب الأولويات. فوضعت ما اعتبرته (إستراتيجيا) رئيسياً للغموس في المنتصف تحيط به الإضافات من مقبلات وفاتحات الشهية، وأخيراً وزعت الخبز في دائرة تتسع للجميع و...

-تفضّلوا على ما قسم الله.

توزّعنا حول المائدة، وفيما الأطفال يحدثون الشيء المعقول من الفوضى، تناولت المرأة يد زوجها ورسمت في راحته إشارة غريبة مثلما فعلت في المرّة الأولى.

فضحك الزوج، بتلقائية من ألف المكان لأوّل مرّة، وقال ممازحاً:

-تقول إنّكم فلسطينيون.

وأمام دهشتنا، ونظراتنا التي تفيض حيرة وتساؤلات، أضاف موضحاً:

-إنّها خرساء.

ومع ابتسامتي البلهاء، نظرت نحو زوجتي فوجدتها تقطع الخبز وتضعه أمام الصغار، جادّة، كأنّها لم تسمع شيئاً. ومع اللقيمات الأولى، رأيت أنّ من واجبي كسر جليد الصمت اللاحق، لإشاعة الدفء ومدّ حبل الكلام، فسألت:

-ولكن كيف عرفَتْ أنّنا فلسطينيون؟

شمل الضيف المائدة بحركة دائرية من يده وقال:

-ما تراه في هذه الصحون هو موروث يفسّر الكثير ممّا لا يحتاج إلى قول... نحن أيضاً فلسطينيون، وعاداتنا في الطعام هي فعل ثقافي يكشف عن معالمنا الخاصّة. فللطعام وطريقة تقديمه مدلول حضاري أشبه ما يكون برموز العلم، أشبه ببصمة الإصبع، ومن ناحية ما يمكنك أن تقول إنّ هذا العشاء هو نوع من التلاوة يعدّد المفردات ويسرد حكاية المقدّس في حياتنا، ليست هذه شوفينية، ولكنّها حقائق تمارسها كلّ شعوب الأرض. انظر إلى الوجبات السريعة كيف تمسخ الخصوصية.

توقّف عن الكلام ثمّ تناول شريحة من الخبز وفصع جزءًا من البيض المقلي التقم معها قطعة من الجبن المحمّر وواصل دون أن يتوقّف عن المضغ.

-نوع الطعام وطريقة إعداده، فيه ما يشبه الأسطورة، شيء ممتلئ بالعاطفة والخيال...

أذهلتني دقّته في التعبير عمّا في صدره، وقدرته على انتقاء المفردات الدالّة على غنى معجميّ يفيض على ما حوله كالنهر. فأحسست برابط سحريّ يشدّني إليه ويوصل ما يدور في رأس كلّ منّا إلى الآخر بعذوبة أشبه بالغناء.

كانت أصابعه تدور حول بعضها أثناء الحديث كأنّه يلتقط المفردات من بين أصابعه، ومثل من أصيب بالعدوى وجدت أصابعي تقلّده لا شعورياً، تدور حول بعضها وتثرثر.

والأنكى من ذلك أنّني بدأت أرى في توزيع الصحون الذي ارتجلته زوجتي، نوعاً من القصدية المتسللة إلينا عبر العصور. فتشوّفت الممارسات الطقسية أيام تقديم القرابين عند الكنعانيين في الأزمنة الغابرة.

بعد العشاء، أخذ الصغار يتفحّصون مهارات بعضهم بعضاً. وكما هي عادة الأطفال، بدأ أصحاب البيت منهم يستعرضون ألعابهم أمام الضيوف المنكمشين حذراً. وبين (شفط المخاط) و(دعني أرى) و(هذه مش نافعة،) سرعان ما عقدت الصداقات بين المتماثلين في الأعمار، وجرى التفاهم ضمناً على طبيعة الاصطفافات والتحالفات: الصغار ضدّ مكائد الكبار، وطيش الأولاد ضدّ استفزازات البنات ودهائهن. ثمّ بدأت الشكايات البريئة المحبّبة من رذالات الأكبر سناً (كانوا جميعاً دون السادسة وقد تخلّص اصغرهم من الحفاظات حديثا) تصل تباعاً وفي بثّ ميداني حيّ ومباشر.

فاصطحبت ضيفي إلى المكتبة فيما لحقت المرأة بزوجتي إلى المطبخ تعرض المساعدة في غسل الصحون.

-يسمّونني رحّال.

قال وهو يستعرض عناوين الكتب فوق الرفوف دون أن يلتفت نحوي: مروج الذهب، تاريخ الطبري، البداية والنهاية، كتاب الأغاني، بنية العقل العربي، كلام في السياسة، تحت سماء الجليد، الفردوس، الإلياذة، جيمس جويس، الكرمل، إخوة وحيدون (إهداء المؤلف نفسه)، تفسير ابن كثير... الخ...

وكأنّما أحسّ بعينيَّ تخترقان ظهره أمام الرفوف. قطع جولته الاستعراضية لبعض العناوين، وبأسلوب من أشبع فضوله مؤقتاً قال بنبرة تقريرية:

-أراك انتقائياً في اختياراتك.

-غالباً ما ألتهم كلّ ما يقع تحت يدي دون تدقيق.

-ولكن الطبري والمسعودي والجابري وهيكل ليس ممّا يقع جزافاً دون تمحيص.

-ذلك لأنّني ممن يعشقون "عار التاريخ".

وضحكنا معاً.

-مات دون أن يلتفت إليه أحد.

علّق قائلاً وهو يقطع ضحكته من منتصفها:

-أنا لا أضحك لغرابة العبارة كما قد يذهب بك الظنّ. قلت. فرفع حاجبيه ولم يقل شيئاً. ولكن السؤال ظلَّ معلّقاً يتأرجح بين عينيه.

-.....؟

-أنا أضحك لهذه الصدفة العجيبة في أسمائنا.

-كيف؟

-اسمك رحّال كما تقول. وهو اسم نادر في اعتقادي. والمفارقة أنّ اسمي أكثر ندرة... اسمي جروح.

-جروح!! سأل ضاغطاً على صيغة التعجّب.

-نعم جروح. هكذا سمّاني أبي.

-يبدو اسمي عادياً مألوفاً جداً أمام اسمك!

-لهذا السبب أضحك. فما أن يسمع أحدهم اسمي حتّى يتقوّس حاجباه..

-ولماذا اختار أن يورّثك هذه النشوة الغنائية؟

-عاد مجرّحاً من مشاجرة عادية بين العمّال العرب واليهود أيّام كان يعمل في (الريفانيري) في حيفا. كان يسكن في قرية العمّال (حوّاسة)، ها هي تطلّ على حيفا من جهة جسر (رشميا). المهم، كان ضمن المصابين في واحدة من تلك النزاعات الكثيرة التي عنونت لفترة ما بعد ثورة 36.

سمّاني جروح؛ لأنّه عاد مجرّحاً. ولربّما كان سيهبني اسماً مختلفاً تماماً لو قيّض لتلك الثورة أن...

فقاطعني بسرعة وبحدّة:

-كم أكره كلمة (لو) هذه. أتمنّى أن تُلغى من لغتنا.. كانت أصابعه تعمل منفصلة عنه في تلك اللحظة، منشغلة بنفسها تتفحّص استدارة القلم، تبرمه ذات اليمين، ثمّ ذات الشمال فيما نظراته معلّقة في الفراغ مثل من يحفر في الفضاء بحثاً عن شيء ما، لا يدري ما هو.

قامت بيننا لحظة من الصمت قطعها فجأة:

-أطاح التاريخ بالجغرافيا بالضربة القاضية. انقضَّ عليها وحوّلها إلى أنقاض. هذا نحن مع أسمائنا باختصار، وسواء سموك ثائر أو عائد أو حتّى منكوب فالحصيلة واحدة. فتك التاريخ بالجغرافيا.

أعقب ذلك فترة صمت محكم أخرى قطعها فجأة:

-أنا شخصيا تعبت من اسمي، هل تصدّق؟ تعبت من هذا التجوال القسري فيما يوحي به الاسم. آباء فتنتهم متعة تعداد مآثر قتلاهم فأعطونا أسماء تعمّق الإحساس بالقهر. ولو قدر لي أن أختار اسمي من جديد لجعلته سين أو صاد. شيئاً يوحي بالغياب بدلاً من هذا الحفر المتواصل في الذاكرة عن دلالات اسم لا يقدّم شيئاً ولا يؤخّر.

-هل تريد أن تقول أنّ اسمك أيضاً مشتقّ من تلك النكبة؟

لم يلتفت لسؤالي وكأنَّ ما قلته لا يعنيه في شيء. تجاهل السؤال عامداً، كما يبدو، واستمرَّ في الحديث باتجاه آخر. قال:

-في المرحلة السحرية من تاريخ البشرية، أعني مرحلة ما قبل الديانات، كان الناس يتطيّرون إذا عُرفت أسماؤهم. كانوا يعتقدون أنَّ معرفة الاسم تتيح للسحرة وللأعداء فرصة إيقاع الأذى بحامله. وقد عثر في إحدى البرديّات على نصّ يترنّم به صاحبه في السوق يقول «يا سعدي إذ لا يعرف أحدٌ اسمي».

-حتّى في أيّامنا هذه ما زالوا يكتبون على الصورة ويعمدون إلى تخريقها بالإبر.

فأضاف ضاحكاً:

-أو يضربونها بالنعال ويبصقون عليها في الساحات. وبدا كأنّ الأفكار تتواثب في رأسه كالأرانب عندما أضاف:

-صورتها تملأ فم الميناء.

-محروسة بأحدث ما وصلت إليه حضارتنا في نهاية القرن العشرين: تمائم مضمونة المفعول، وتعاويذ «تطلع على الأفئدة» تراقب الناسَ أربعاً وعشرين ساعة في اليوم وتلاحقهم حتّى في غرف النوم.

-أتدري أين تكمن علّتنا؟ في قدرة عقلنا على استيعاب كافّة المتناقضات ووضعها في سياق واحد دون الإحساس بأيّ تناقض.

-هذا ما يقول به صاحبنا الجابري. قلت مشيراً إلى أحد الرفوف. لم يعلّق بشيء وواصل:

-خذ مثلاً توق الناس إلى الحريّة. يتغنّون بها صبحاً ومساءً. وهذا شيء إيجابي، ولكنّهم في نفس الوقت حريصون على كلّ ما يلزم من رموز العبودية، يقدّسونها ولا يستطيعون العيش بدونها.

أتح لهم فرصة الاختيار بين العباءة والكتاب وانظر في النتائج.

-دعنا من السياسة وصداع الرأس بالفلسفة، عندي بعض الوسكي، فما رأيك بهذه الأطروحة؟

-مناعتي ضعيفة أمام هكذا عرض. ومن واجبي أن أنوّه بهذه المبادرة وأحيّي فيك مثل هذه التوجهات. غير أنني أريد الذهاب إلى الحمّام أولاً إذا سمحت.

-دونك الباب، إنّه على يسارك.

وفيما كنت أتفقّد تجهيزات السهرة رحت أفكّر أنّني أمام رجل مليء. رجل يصعب العثور على أمثاله.

كان معظم من أعرفهم من الفارغين البلداء. أروي لهم الحكاية اليوم ليعيدوا روايتها على مسامعي مجدّداً في الغد. أتذكرها مرة أخرى بعد اسبوع ليعيد روايتها بعد أسبوعين وهلمّ جرا. حياة لا حياة فيها، مملّة وأشبه ما تكون بالموت.

(تنسى في أيّ يوم من أيّام الأسبوع أنت. فتسأل المواطن «في أيّ يوم نحن يا ترى»؟ فيجيبك: هذا يوم الثلاثاء إن شاء الله». تسأله وقد لاحظت تكرار تغيّبه أيّام الخميس «لماذا تختار الخميس لتزور قبر أمّك»؟ فيجيب «لأنّها ميتة» حسناً. تسأل آخر «كيف أصل إلى الميناء»؟ فيقول متعاوناً وصافي النيّة «هذا الشارع امش دغري دغري دغري حتى تصل إلى الميناء، وهناك اسأل وهم يدلّونك». تُصاب بعدوى الغباء فتقول «أتعني أنَّ هذا الشارع ينتهي بالميناء بالضبط»؟ فيحكّ جبينه ليعمل عقله جيداً ثمّ يقول «نعم. عند نهاية الشارع. الشارع ينتهي هناك، وهناك مئة من يدلّك».

عندها ما عليك إلا أن ترفرف وتطير).

بمثل هذه الفانتازيا اليومية كنت أفكّر عندما عاد رحّال وهو يتحسّس جيوبه لغير ما هدف.

تفحّص الزجاجة وقال ضاحكاً:

-يبدو أنّنا في بداية ليلة يلزمها ما هو أكثر من هذا القليل.

-كثيراً ما سمعت جدّتي تقول «من تعوّد ألا يرضى بالقليل، لا يُتوقّع له أن يفوز بالكثير».

-لو علمت جدّتك أنّنا رضينا بأقلّ ممّا هو قليل ولم نحصل على شيء لتغيّر موقفها تماماً.

-أتعني أنّها ربّما تخرج من قبرها؟

-هل تقول فيها؟ ألم تسمع بمن دفنوا في قبر جماعي حفروه على عجل ثمّ طمروهم بالتراب وعندما جاء المطر جرف التراب فخرجوا من قبورهم؟

-رحمها الله. كانت تعيش في مرحلة ما قبل الديانات مثلما تقول أنت. كانت في دعواتها لنا تقول«يا ربّ الأرباب من قصدك ما خاب» تماماً كالإغريق الذين كانوا يؤمنون بتعدّد الآلهة.

-هذا أدعى للشك في مقولات الأسلاف التي ما تزال تحكم قبضتها على عقولنا بيد من حديد.

-ما تزال أشياؤها الصغيرة الحميمة تسكنني. شيء من الحنين الشعائري.. كانت تعجن دقيق القمح بالزبدة وتشكّله على هيئة لصوص الماشية، الذين كثيرا ما سطوا علينا، ثمّ تقطعهم وتطعمنا أعضاءَهم الممزقة «كلوهم لا ترهبوا النهابين» كانت تحرضنا. كانت تمزّق أجساد لصوص

الماشية وتطعمنا لحمهم اعتقاداً منها بأنّ النهابين الحقيقيين سيكونون بنفس هشاشة تماثيل البسيسة التي تصنعها، سيذوبون أمام بسالتنا.

كنا نسمي معجون الدقيق بالزبدة هذا (بسيسة) طعمه لذيذ وخصوصاً إذا ما أتيح لك أن تضيف إليه شيئاً من السكر.. هل سبق لك أن سمعت بعذه الكلمة؟

-وهل تظنّني قادمًا من باريس؟ طبعاً أعرفها. كنا نعملها بزيت الزيتون مع الكثير من السكّر الأحمر.. كلمة بسيسة بالمناسبة عربية فصيحة. ثم قرع كأسه نخب العربية الفصيحة.

-تصوّر! كانت جدّتي من جيل غولدا مائير لا تكبرها بأكثر من عقدين... تخيّل، كان هذا حالنا عندما دوهمنا عام 48.

-أتخيل تماماً... واجهناهم بتصوّرات عاجزة عن إدراك المسافة بين عصا الراعي وبندقية القنّاص... طوّروها الآن إلى بندقية الليزر. احتمال الخطأ في إصابة الهدف صفر بالمئة.

-جدّتي في مقابل غولدا مائير... تصوّر. مجتمع هشّ ومنهك بذهنية بدوية يواجه المشروع الصهيوني الواقع في بؤرة التحوّلات الجذرية عندما كان الغرب يخوض الثورات العلمتكنولوجية التي أسّست لتسيّده على العالم. كنا ما نزال نياماً نتضاغث أحلام بدايات القرن الثامن عشر، عندما أفقنا من غفوتنا فجأة، لنجد أنفسنا مطوّقين بحقائق النصف الثاني من القرن العشرين. لا أجد ما هو أدقّ مما قاله أحدهم في وصف حالتنا «هزمونا أولاً، ثمّ أعلنوا الحرب علينا». أنا أتحدّث بالذكريات من منظور طفولي رأى أحداث تلك الحقبة... كان جدّي يوقت للمغيب بإغلاق باب قيسارية.

-قيسارية جنوب قريتنا الطنطورة على بعد أميال على شاطئ البحر. أعرف أنّها كانت ميناء قديماً ولكنّني لا أعرف أنَّ لسورها بوّابة!

-كان لها سور يحميها من جهة البرّ تتوسّطه بوّابة حديدية عظيمة تفتح إلى الشرق جهة قريتنا. كان ذلك أيّام الصليبيين. وكان المتحاربون يتبادلون احتلالها كلّ بضع سنوات. في ذلك الزمان اعتاد سكان المدينة على إغلاق بوابتهم مساءً... مع اقتراب المغيب يقرعون الأجراس إيذاناً برواح الفلاحين والرعاة والمسافرين إلى المدينة الآمنة خلف السور. ومع دخول آخر المروّحين، كان الحرّاس يدفعون البوّابة الثقيلة ويغلقونها لينام الناس مطمئنين.

جدودي، وجدودهم كانوا يعيشون في خربة تتعلّق على حافّة جرفٍ هارٍ عند نهاية سلسلة الجبال الغربية.. خربة تتدلّى كالمشنوق من حافّة أعلى الجبال وتواجه البحر على بعد أميال شرقيّ قيسارية. وفي هدأة الغروب، في ذلك الزمان، كانوا يسمعون صوت الارتطام العظيم عند إغلاق تلك البوابّة. فصاروا يوقتون لمساءاتهم بها.

كان هذا في أواخر أيّام الصليبيين. وفي الأربعينيات من القرن العشرين، كان جدّي ما يزال يوقت للغروب بإغلاق بوابة قيسارية. أقسم لك بتربة جدّي أنّ هذا ما كان يحدث!

-لا تبدّد إيمانك فيما لا طائل من ورائه. أنا أصدقك.. ولكنك لم تقل لي اسم خربتكم المشنوقة في أعلى الجرف هذه.

-اسمها (المعلّقة).

أعاد الكأس قبل أن يصل إلى شفتيه، ووضعه بمنتهى العناية والحرص أمامه. ثمّ حدّق بي بشيء من العدائية وسأل:

-أقول لك ما اسمها؟

-هذا هو اسمها.. "المعلّقة". انظر (رحت أرسم الخارطة الوهمية بأصابعي) هانحن هنا في أعلى سلسلة الجبال، وهذا هو السهل الساحلي، وهنا بالضبط، انظر جيداً، هذه هي قيسارية. وهذه قريتكم الطنطورة.. أما هذه التي هناك إلى الشمال قليلاً فهي حيفا.. انظر المسافة على الخطّ الأفقي.. كيف لا يسمعونها من المعلّقة؟

-عدنا لأيقونية الأسماء.. أسلم أبي جسده لرصاص اليهود وأطلقني في الصحراء رحّالاً. ورسم أبوك جروحه فوق جلدك. وها هي خربتكم المعقلّة تطلّ علينا كالمشنوق تتعلّق بالجرف...ماذا تسمّي هذا النوع من المصادفات.

-أسمّيه الصدفة التي نفسّر بها كلّ شيء بلا شيء.

تأمّلني بعينيه المحمرّتين، وقال مشيراً إلى رفوف المكتبة:

-يبدو لي أنّ مجهودات هؤلاء لم تذهب سدى.

-أشكرك، ولكنّني في الحقيقة أملك ذاكرة ممتلئة.

عندما استدار وهو يشير على الرفوف وقعت عيناه على صورة معلّقة لياسر عرفات، فأشار إليها بنوع من الاستهجان.

-ما الذي يفعله هذا هنا؟

-يعجبني شعار الحطّة والعقال فوق رأسه.

تناول كاسه ورفعه إلى شفتيه قائلاً:

-بصحة العقل المتكلّس تحت العقال.

-وبصحّة الكلس الذي كنّا نرشق به بيوتنا في المعلّقة فتبدو من بعيد مثل رفّ من الحمام يحلّق في الفضاء..

-عليك اللعنة يا صاحبي.

-وعلى القائل، والسامعين أجمعين. ثمّ أجهشنا بالضحك.

-4-

بعد ليلة التعارف تلك بدأت رحلة الصداقة التي امتدّت لسنوات لم يعرف الأطفال خلالها بيتاً محدّداً يخصّهم.. فكلّ ما في بيتنا يكون في متناول أبنائه، وكلّ ما في بيتهم لأبنائي حقٌّ فيه. لنا ما هناك ولهم ما هنا.

حتّى الملابس التي لم تكن الصراعات تنتهي حولها، كانت مشاعاً بين الجميع، فلا تدري مَن يلبس قميص مَن. حتّى اضطرّت الأمهات لخياطة الأسماء على بعضها حقناً للدماء.

الصداقة شيء يشبه الحبّ إذا لم تكن هي الحبّ نفسه. لا تعرف له سبباً ولا تنتظر منه نتيجة. مشروع بلا حدود مفتوح على... (لا أعرف على ماذا).

استغرقه عمله في التنقيب عن الآثار، وانصرفت أنا بدوري إلى التقاط رزقي من مناقير الطيور.

كانت هذه مهنتي في الحقيقة.

فأنا أعمل في مجال تحجيل الطيور. مهنة ليس أغرب منها إلا اسمي.

حصلت على هذا العمل بناءً على تزكية المجلس العالمي للمحافظة على الطيور، وتكفلت الدولة المضيفة، لأسباب دعائية، بدفع أتعابي، راتبي.

مهمتي مراقبة الأفق، وتشمّم الجهات، وتوقّع المواعيد، تماماً مثلما كان الإنسان القديم قبل معرفة الزراعة عندما كان صيّاداً.

ولكنّني كنت قد هجرت مهنة الصيد منذ سنين طويلة، منذ أيّام الطفولة الأولى في "خربة المعلّقة".

في تلك الأيّام لم يكن لأحد أن يراني إلا لاهثاً وراء الطيور. كانت الفخاخ تتأرجح إلى جانبي معلّقة بحزامي طوال النهار، لا تفارقني إلا في ساعات النوم.

كانت عائلتنا الممتدة، هي الوحيدة التي تسكن تلك الخربة المعلّقة في أعالي السفوح الغربية. مطوّقة بالغابات الحرجية من جميع جهاتها. لا تعرفنا الخرائط، ولا يكاد يفطن لوجودنا أحدٌ من الإنس. ضائعين مثل يونس في بطن الحوت.

لم نكن نعرف دولة ولا نظاماً. ولا نعتقد بوجود عالم غير ما يقع تحت أبصارنا. إلى الغرب يمتدّ أمامنا السهل الساحليّ الفلسطيني الكبير، من حيفا إلى عسقلان. أمّا غزّة فلم نكن نراها. وكنّا نعرفها في الأغاني فقط "من بلاد غزّة يا وزّة". من أقصى ما تصل إليه أبصارنا شمالاً إلى أقصى ما نراه جنوباً تتراءى لنا البلاد على مدى البصر مثل أكوام من الحصى. لم نكن نفكّر في الناس الذين يعيشون فيها، ولكنّنا نحلم بهم. ونحلم دائماً بالبحر وراءَهم. أحياناً نرى نقاطاً داكنة بحجم طائر الشوك، أو أكبر قليلاً من حبّة الزيتون، فيقول أحدنا للآخر: «انظر... إنّه مركب».

لم نكن نرى أيَّ غريب إلا ما ندر من العابرين أو الزوار. يحدث أحياناً أن يمرّ بعض الضيوف، أو بائعي الفخار، فنتمسّك بهم ونقسم بأغلظ الأيمان أن يبيتوا ليلتهم تلك لنسمع حكاياتهم عن العالم

البعيد في تلك السهرة النادرة. لم نكن قد سمعنا بالراديو أو السيّارة بعد. كنا نعيش على مشارف القرن التاسع عشر بالفعل.

حتّى الزواج من الأغراب لم يكن معروفاً بيننا. كنت في هذه المسألة أشبه بذلك الطفل الذي قال «نحن لا نختلط بالأغراب. فأبي متزوّج من أمّي، وجدّي متزوّج من جدّتي، وعمّي متزوّج من زوجة عمّي» وكان مثل هذا هو أقصى ما يمكنني تصوّره.

الوحوش هم الأناس الوحيدون الذين كنت أتعرّف عليهم كغرباء عن أهل البيت، ولكنهم كانوا مخيفين إلى حدّ ما وغير ودودين.

أمّا الطيور فهم الناس الوحيدون الذين يسعد المرء بالتعرّف إليهم والتعاطي معهم.

فما أن يقترب فصل الشتاء حتّى يمتلئ المكان بهؤلاء الزائرين والمهاجرين والعابرين: رفوف تتلوها رفوف من القطا وأسراب اليمام، طيور السمّن المشرّدة الحذرة، وعائلات طيور الصفّر. وعائلات كاملة من الحساسين. وعابرون من دجاج البحر الذين ضلّوا الطريق وحطّوا عندنا في الجبل، وأبو الحنّاء الفضولي الذي لا ينفكّ يتفحّص أشياءَنا ويتساءل عن ماهيّتها حول الدار.

هذا إلى جانب ما لدينا من المقيمين حولنا من الحجل وأبي زريق والحلاج والشحيتي وعرائس التركمان شديدة الطيش وديوك اللامي المقتصدة في كلّ شيء.

أغراب يفدون، مرحّباً بهم، مع بداية الشتاء من بلاد بعيدة يحكون الحكايات ويقعون في شبك الفخاخ.

الطيور كالناس، منهم الأحمق والوديع والمتهوّر والصبور الجاثم واللئيم. ومنهم المسالم والمستعجل والمتحفّز، ومنهم المتربّص والمغير.

من هذا الماضي الموغل في البعد نشأت علاقتي بالطيور. أعرفها من أصواتها وأسلوب طيرانها وصفق أجنحتها. من خجلها وجرأتها ووقاحتها أحياناً.

أعرفها من شكل الذنب، وريش القوادم، والمنقار، ولون الصدر. وكنت أعرف أماكن التعشيش وعدد البيضات ولونها. أعرف شكل العشّ، والمكان المفضّل للبناء والإقامة، والمواد المستخدمة في البناء. أعرف الحاذق في بناء العش والقانع المكتفي بأيّ شقّ في الصخر، والمهمل الذي يضع البيض كيفما اتفق. أعرف اللصوص الذين يسطون على الفراخ.

وعندما فوجئنا برعب الفولاذ والنيران في أيدي اليهود عام 48 فررنا مع جميع هؤلاء، تركنا كلّ شيء في مكانه ونجونا بأرواحنا لا نحمل غير هذه الذكريات عن الأصدقاء القدامى. اختزنتها في صدري وحافظت عليها.

أقرأ في التقارير التي تصلني من المجلس هذه الأيّام أنّ أربعة وعشرين نوعاً من أصدقاء الطفولة هؤلاء معرضون للفناء والانقراض. فأرتعد ويصيبني اليأس. ألتقط آلة التصوير وأتوجّه إلى البحر لاستكمال فلمي الوثائقي عن هجرة الطيور.

يظهر على الشاشة طائر الأنيغا النادر، فأنتفض. يشبه طائر الغاق مع رأس أكثر نحولاً ومنقار أكثر حدّة. أسجّل في دفتر ملاحظاتي وقت ظهوره في اليوم والساعة. تتحرّك عدسة الكاميرا يميناً ويساراً، فلا تجد سوى سطح الماء. أتشاءم والعن رأس المال في سرّي.

في منتصف الخريف أبدأ بإعداد الشباك، وأسجّل الحالات التي تقع في الشبك في الجدول الخاص المعدّ لذلك. الوقت، المكان، التاريخ، نوع الطائر، وزنه، طوله، المسافة بين طرفي الجناحين، النوع: ذكر أم أنثى، وأخيراً أطوّق إحدى ساقيه بالحلقة المعدنية الرقيقة المحملة بالمعلومات، ثمّ أعيده إلى سربه.

في منتصف الخريف وبداية الربيع تزداد الأسراب عدداً، تتوقف للراحة يوماً أو بعض يوم، ثمّ تواصل رحلتها على طريق الهجرة شمالاً أو جنوبا.

ما يزال هؤلاء الناس على عاداتهم القديمة، يحطون ويرحلون بطريقة غريبة وسريّة. وما يزال وصول بعضهم ينذر على عادته، بسقوط المطر حتّى في البلاد التي تندر فيها الرحمة.

هذا هو عملي الذي أجني من ورائه ثمن لقمة عيالي. مثيرٌ حيناً وحنون حيناً، ومملٌّ في معظم الأحيان؛ لأنَّ الأنواع النادرة التي تمرّ بالجزيرة تكاد تكون معدومة. نادرة بالفعل.

كم فرحت لرؤية ذلك الأنيغا، ولكنه سرعان ما اختفى. وتنحصر الأنواع التي ألاحقها بالدراسة في البلشون والغاق وزمار الرمل وطائر النوء وبعض الجواثم، إلى جانب الخرشنة والنورس التي لا تغيب عن ناظري طوال العام.

عملٌ مُجزٍ من حيث الدخل، ولكنه محبط وأشبه ما يكون بالتبطّل.

قل لي:

«ماذا تفعل إذا وضعك الحظّ فيما يسمّونه حالة من البطالة المقنعة؟

تفكّر بالتجارة مثلما فعلت أنا ذات مرّة، لأكتشف أنّها مهنة لا تناسب الحالمين. مراهنات غير مجدية للساذجين من محبّي الطيور من أمثالي، أصحاب العقل التأمّلي. في أحلام اليقظة تعبر في مخيلاتهم طيف شبهة تشبه سحابة زرقاء خفيفة، تغوص في أعماق التاريخ السحيقة قبل نشوء الأسرة وتكوّن المجتمع المستهلك. أعني أيام تجوال الجماعات البدائية العارية بحثاً عن الثمار في الغابة البكر. إذ لا بدّ أنَّ إحدى الإناث الجائعات قد التقت بمحض الصدفة بذكر يحمل بعض الثمار التي فاضت عن حاجته. فهمّت، مدفوعة بغريزة الجوع، بثمرته، وهمّ هو، مدفوعاً بغريزة البقاء، بجسدها، والتقيا في منتصف الطريق. وتمّت مقايضة الجسد بالثمرة الفائضة عن الحاجة. اللبنة الأولى في عالم الدعارة.

كانت عملية المبادلة تلك هي النبرة الأولى في المقايضة التي تطوّرت بعد مليون عام من وجود الإنسان على الأرض لتنتهي بالكارتيلات العابرة للقارات التي تسحق الملايين في جانب وتكدّس الملايين في الجانب الآخر.

في تاريخ البشريّة يتداخل المستهجن بالمألوف، ويتبادل المعقول المواقع مع اللامعقول، وإلا خبّرني كيف يفتك المرء «بأخيه وأمّه وأبيه، وصاحبته التي تؤويه» للوصول إلى كرسيّ الحكم؟

«ارجع يا صديقي إلى التاريخ، قريبه والبعيد، وتأمّل، ثم ضع هذه الأطروحة في موضع التحرّي والمساءلة».

هذا ما كان يقوله صديقي رحّال في جلسات المسامرة. فهو كان ضليعاً في التاريخ. باحثاً محقّقاً، نبّاشاً في آثار الماضين وخبيراً بعظام الموتى، وكان يقول:

كيف تراهم سمموا مياه الأرض وأحرقوا هواء التنفس إذاً؟ حتّى إنّهم بذروا السماوات بالخردة والشظايا والمسامير التي تهدّد أبحاث الفضاء.

ألم يكن ذلك كلّه من أجل الربح والسيطرة عبر ما يسمونه حريّة التجارة؟

إنّهم يعهرون حتّى اللغة، عندما يسمّون ذلك جنياً للأرباح. فالجني لا يكون إلا للحصاد، للمحاصيل والثمار والخضرة التي تعطيها الأرض لمن يحتضنها. ضمير اللغة يرفض هذه التسمية، ولكنهم بفجورهم، وغفلتنا، يريدون اقتلاع كلّ شيء من جذوره.

حتّى حاجتنا إلى التعبير الطقسي، عن شكرنا للإرادة الإلهية أمام الجماليات الممنوحة لنا، يجري التلاعب بها وتسليعها. إنّهم يدفعوننا بقوّة نحو مستقبل متوحّش لنعود كما كنّا في الماضي المتوحش.

ألا ترى أنّ تدهور مستوى المعيشة، مقترن حدّ الالتحام، بالتدهور في مستوى الوعي؟ أو هما يسيران جنباً إلى جنب على أقلّ تقدير.

تشير الإحصائيات يا سيدي، إلى أنّ عشرين في المئة فقط من مجموع سكّان العالم سوف يتمكّنون من الحصول على وظيفة خلال الثلاثين سنة القادمة. ألم تسمع بالفظاعة التي أطلقها أحدهم علانية على شاشة التلفزيون عندما قال «إنّ احتياجات الفقراء قد أصبحت عبئاً لا يُطاق»؟ كان ينطق بلسان من يعمدون إلى تدمير الغابات وتبوير الأرض الزراعية لكي يرفعوا أسعار منتجاتهم.

وأثناء ذلك تصبح إبادة سلالات الطيور التي تسهر حضرتك على إنقاذها مجرّد آثار جانبية طفيفة لا يلتفت إليها أحد؟ فأيّ عالم هذا الذي يملك فيه 358 شخصاً من الثروات ما يضاهي ما لدى نصف سكّان العالم؟ عالم مرعب يفوق الإنفاق على السجون في بعض نواحيه المجموع الكلّي لموازنات التعليم؛لأنّهم ببساطة يريدون أناساً جاهلين يسهرون على مضاعفة ثروات أسيادهم بغضّ النظر عمّا يترتّب على ذلك من جوع وقهر وعنفٍ وجريمة ومخدّرات وحروب وانتحار جماعي، معنوي حيناً، وماديّ في معظم الحالات. ومع ذلك لا نرى إلا الصورة الزاهية الألوان التي يريدوننا أن نبتلعها مع حبات الأسبرين أمام التلفزيون. صحيح أنّنا صرنا نملك الكثير، ممّا لسنا بحاجة إليه، ممّا تعدّه العقول المعطّلة إنجازاً تاريخياً، إلا أنّنا عاجزون عن رؤية التدهور والانحطاط والدمار المريع. فهم يدمّرون المصادر الطبيعية والروحية معاً. وهنا مكمن الخطورة. فما يحدث من دمار هو إفرازات ثقافة معطّلة فرضت على العقول، ثقافة مشوّهة تتباهى بتعهّرها وتلغي المسافة بين الاحترام والانصياع. فليس من العبث أنّهم ينفقون 250 مليار دولار لتكريس هذه الفلسفة على الشاشة التي تحتلّ كلّ بيت.

الثقافة والمعرفة هما الخطر الحقيقي الذي يتهدّدهم. يعرفون ذلك جيداً ويعدّون العدّة لتدميرها حتّى لو اضطروا لشراء العقول بالرشوة أو بالمحاصرة والتهديد بالقتل».

كانت مثل هذه المطارحات، التي لا يملّ من تكرارها على مسامعي كالقصف المركّز، تقضّ مضجعي.

لم تكن بالشيء الذي أتقبّله بالمطلق، ولا بالشيء الذي أرفضه كليّاً.

فأنا في النهاية لست أكثر من لاجئ عاش طفولته في المعلّقة، وأتاحت له ظروف خاصّة (سنأتي على ذكرها) دراسة علم الأحياء. ثمّ إنّني من مواليد برج الدلو، وهي مسألة يعرف الجميع أنّها

مثيرة للسخرية؛ لأنَّ النباهة لم تكن يوماً من طبيعة مواليد هذا البرج، مع أنّهم على قدر من الطيبة يكفيهم للمراهنة على إمكانية وقوع سمكتين إحداهما في بحيرة فكتوريا والأخرى في بحر قزوين في شبكة واحدة. وبالطبع مع الاستبعاد الكامل لفكرة اصطدام طائرة إيرباص بمبنى البنتاغون في اليوم المشؤوم نفسه.

وعندما كنت أسأله:

«ولكن ما علاقة كلّ ذلك بضياع خربة المعلّقة»؟ كان يتأمّلني مليّاً ويقول بجديّة خالصة:

«يا عزيزي أنت تتحلّى بإمكانيات في الغباء تُحسد عليها. وكونك روائياً لا يبرّر ضيق الأفق هذا».

وعندها كنت أعيد تذكيره بأنّ الصبر على حماقات الحمقى هو إحدى شِيَم مواليد هذا البرج أيضاً.

-5-

بالعودة إل طبيعة عملي، لا بدّ من الاعتراف بأنَّ حياة التبطّل نفسها لا تخلو من الحسنات أيضاً.

فقد قادتني قدماي ذات مرّة إلى المكتبة العامّة. وكان أوّل لقاء لي مع جاك لندن الذي سحرني تحت سماء الجليد. ثمّ تلاه هوارد فاست الذي أُريدَ له أن يموت مجهولاً. وهناك بدأت أطراف أصابعي تحترق بأعقاب السجائر. فتخلّصت من الملل البليد، وأدركت أن ليس للإنسان غير حياة واحدة في هذه الدنيا يجب البحث عنها بين أغلفة الكتب. وهكذا أدمنت القراءة وغرقت في هذا البحر.

وعندما التقيت بصديقي لأوّل مرّة، كنت قد قطعت شوطاً بعيداً في التاريخ والفلسفة وعلوم الإنسان والديانات والحروب وفقه اللغة ومذكّرات الرحالة ويوميات السياسيين وتاريخ الفنون والحضارات والكثير من الروايات.

وذات ليلة، لسبب لا أدريه، استبدّ بي القلق، ووجدتني مدفوعاً بقوّة آسرة غامضة للبدء في تسجيل بعض ذكرياتي البعيدة. وهكذا تورّطت في محاولاتي الروائية الأولى، وكانت عن علاقتي بأحد الطيور!

تتحدّث الرواية عن صبيّ في السابعة مفتون بطائر أسود، من ذلك النوع الذي يمرّ بالقرية أثناء هجرته الشتوية. فيحاول الصبيّ اصطياده جرياً على عادته في الإيقاع بهذا النوع من الطيور.

في اليوم الأوّل يفشل الصبي في محاولاته، وكذلك في اليوم الثاني والثالث. وتتحوّل العمليّة بالتدريج إلى مطاردة مثيرة تنطوي على ما يشبه التحدّي بين الاثنين.

ويستقرّ في يقين الصبيّ أنّ المسألة صارت مسألة كرامة. فتتحوّل الملاحقة إلى مطاردة مستميتة.

ويبدو أنَّ الطائر قد أحسّ بغريزته معنى محاولات الصبيّ، فقبل التحدّي، وصار يناور ويراوغ. يتقارب من الفخّ متظاهراً بالبراءة، ثمَّ سرعان ما يزوغ بمهارة غير معتادة كأنّها السحر. فيزداد الصبيّ جنوناً على جنون.

الصبيّ يملك كلّ أناة ومهارات تربّص الصياد الخبير، والطائر يملك كلّ حذر ويقظة الطريدة الماكرة. فينشأ ما بينهما نوعٌ من التحدّي الصامت. فكلّما جدّ الصبيّ في الملاحقة، جدَّ الطائر في المراوغة. والتراخي هنا يقابله تهاون هناك. حتّى إذا ما كان الغروب كلّ يوم، وافترقا، أشار الصبيّ إلى الطائر مودّعاً وصاح بصوتٍ مسموع: إلى اللقاء غداً، فيردّ عليه الطائر: «ستجدني ما أزال هنا».

ومع الأيام ينشأ بينهما نوع من الصداقة اللدودة. ألفة غير مكتملة العناصر، تدفع بهما إلى التأمّل كلّ في حالة صاحبه. ولكن لا هذا ييأس، ولا ذاك يستسلم.

ويستمر الحال أياماً على هذا المنوال.

وفي الليل، كان الصبيّ يحلم بأنّه طائر، وكان الطائر يحلم بأنّه صبيّ، إلى أن كان اليوم السابع.

في ذلك اليوم، وقد أوشكا على الوداع قبيل الغروب بقليل، كان الصبيّ يقف مهموماً على نتوء صخريّ، وكان الطائر يقف محزوناً على عود يابس ينتأ من شجرة عتيقة عند الطرف الآخر من الجرف حيث تجري أحداث الرواية.

وفي لحظة مفاجئة ينقضّ الطائر، وكأنّما عن عمد، ويحطّ بطريقة، آخر ما كان يمكن أن يتوقّعها الصبيّ، على شجرة السرّيس المنصوب تحتها الفخّ. فوق الفخّ مباشرة، وبدون مقدّمات، هبط الطائر، وحطّ على إطار الفخّ المدفون بالتراب وراح يتأمّل الطعم الذي يتلوّى فوق التراب...

وأمام فظاعة اللحظة، ينتفض قلب الصبيّ خارجاً من صدره، ويثب منطلقاً كالسهم صائحاً بالطائر بجنون، صيحة يتردّد صداها في الوديان لاااااا ه..

فطار هذا وارتفع محلّقاً في الفضاء، مغادراً المكان الذي أحبّه، فيما ظلّ الصبي واقفا يحدّق في نقطة سوداء تحلّق مبتعدة في أفق الغروب وهو يشير إليها مودّعاً، ويقول: حذارِ يا صاحبي... حذارِ من الطعوم الجاهزة. وظلّ الصبيّ يحدّق في النقطة السوداء وهي تبتعد وتبتعد حتّى غابت وراء الأفق.

كانت تلك أولى محاولاتي الروائية، فيها الكثير من الرعوية والغناء.

ويبدو أنَّ صدق التجربة قد أضفى على الرواية مسحة ما من شيء غامض. وأمدّتها المطاردة اللاهثة بقدر من التشوّق والإثارة. وأعطتها العلاقة الحميمة بين الصبيّ والطائر بعداً إنسانياً رهيفاً طالما افتقدناه.

كانت كما وصفها البعض صيحة ورواية ملمومة، مكتلة العناصر، محكية بلغة عفيّة صافية.

وعندما عرضتها على صديقي الجديد، رحّال، قرأها في ليلتين، جاءني بعدها متحفّزاً، وجلس يحدّق بي صامتاً.

-ها. ماذا وراءك؟ سألت بخبث.

-هذه الرواية كفيلة وحدها بوضعك في مصافّ كبار الروائيين.

فحاولت، مرتدياً قناع التواضع، أن اشكر له هذه الشهادة، فقاطعني بنفس الحماس.

-ولكن كونك روائياً لا يبرّر هذا الغباء. فأنت تملك من التخلّف قدراً لا يغتفر.

وهكذا جرى تصنيفي في حساباته روائياً رغم أنفي.

-6-

دعونا الآن نتقدّم قليلاً في الزمن إلى آخر ليلة رأيته فيها حيّاً من لحم ودم عندما جاء محطّماً وقال فيما يشبه الرجاء، مثل محتضرٍ يتلو صلاته الأخيرة:

- إنّني أضع كلّ ثقتي فيك لإنجاز هذه الرواية.

وكان يعني رواية الخميرة بالطبع.

وحتّى نتجنّب الانزلاق في مستنقع المبالغة، دعوني أقولْ إنّني شعرت ساعتها كجنديّ نفر، أوكلت إليه مهمّة قيادة فصيل في إحدى المعارك الكبرى، إذ لم يفارقني الشعور بالخوف من أنّني في مواجهة مهمّة شاقّة، محفوفة بالكثير من دواعي السقوط.

وزاد الأمر سوءًا، عندما استخرج من جيب معطفه الداخلي مغلّفاً مغلقاً، غفلاً من أيّ عنوان. مجرّد مغلّف أبيض مغلق لا تشوب بياضه شائبة.

مدّه نحوي قائلاً:

-خذ. ما في داخله وديعة بين يديك. لا تفتح هذه الأمانة إلا بعد موتي.

وحين أفكّر الآن، أثناء كتابة هذه الرواية، تعاودني ذكرى تلك اللحظة عندما أحسست بتدفّق الأدرينالين في عروقي، فشعرت بالرعب، وتعرّق باطن كفّي أثناء تناول تلك الوصيّة.

لم يدُر في خلدي يوماً أن يكون الاسم الذي نحمله عاملاً في إصلاح حالنا.

ذلك اشبه بكتابة كلمة دبّابة على دمية باربي البلاستيكية. أفكّر بهذا لأنّني (ويا سعدي!) لم اسمع أحداً يدعوني باسمي طوال مدّة إقامتي في هذا المكان.

يدعونني بالأستاذ، ولا أعرف لماذا. والناس هنا في سوادهم بسطاء يعزفون عن استخدام الأسماء. خصوصاً الفقراء منهم. يتنابزون بالألقاب ويدخلون في الحديث مباشرة. فهم على سبيل المثال يلقبون نائب السلطان، محظي السيدة الأولى وذراعها الأيمن، بـ(ابن نعجة). ولست أدري ما إذا كان المقصود باللمز هو النعجة أم ابنها أم كليهما معاً. فلا يمكن لأحد الجزم بأن صمت الفقراء هو نوع من التدبّر أو التأمّل الذهني، أم أنّه مجرّد خمود عاطفي، فكنت أقول لنفسي «دعهم وشأنهم فقد يتوصّلون إلى شيء ما». وليس في أن يدعوك الناس بالأستاذ خطر كبير.

وكان صاحبي يطلق على هذا النوع من التفكير "فلسفة السلحفاة".

فالسلاحف مثلما يعرف الجميع، سادة ومضطهدين، تعيش طويلاً، تعمّر وتدوم مثل صمت الشعوب.

لشيء قريب من هذا أرى من المناسب أن أعطي أطفالنا (أطفالي وأطفال صديقي) أرقاماً مرتّبين بحسب الأعمار، بغضّ النظر عن النوع، من واحد إلى ستّة.

لأنّني لا أرى أي جدوى وراء اسم من نوع: تموز أو مروّح أو فلسطين ولا حتّى عيذاب وتيسير وعائدة. ففي النهاية «إنْ هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم»، هذا إلى جانب أنّ بعض الأسماء صارت تشكّل لعنة على حامليها. فما أقلّ من يجرؤون على إطلاق اسم صدّام أو معمّر على مواليدهم في بلاد بعينها. ثمَّ إنّ اسماً من نوع كارلوس قد يودي بحامله إلى السجن، وإنّ مجرّد النطق به يعتبر إرهاباً. وأفتى أحد المشايخ بتحريم الترحّم على تشي غيفارا.

-لماذا تحمل مثل هذا الاسم؟

سألني وهو يضرب بطرف العصا الجلدية راحة يده اليسرى ضربات خفيفة تعلن بوضوح عن ممكنات استخداماتها اللاحقة.

-هذا ما يحيّرني. فأنا لا أعرف لماذا سمّوني هكذا.

-أنا مثلاً اسمي ابن أحمد ويكنونني بأبي الأحمد. قال مواصلاً استعراض عصاه واختبارها على راحته اليسرى.

-أنت بحسب علمي لم تتزوّج بعد.

-أعرف. قال باقتضاب، ثمّ حاول أن يكسو وجهه بمظاهر خطورة الموقف، ولكنه فشل لأنّني أعرفه حتّى القرار. فانحنى إلى الأمام على المكتب وترك العصا جانباً ثمّ راح يتفحّص الكمرة.

-تقول بأنّك تصور فيلماً وثائقياً عن الطيور، فما هو هذا الفيلم الوثائقي؟

وفي تلك اللحظة دخل أحد الضبّاط وانحنى على أذنه يهمس بشيء ما، فأخذت عيناه تتسعان وتتسارعان يمينا وشمالاً، ثمّ قام من فوره وغادر المكان مسرعاً.

دخل بعد ذلك عملاق مفتول العضلات أزرق العينين برأس يشبه البطيخة، ودون أن يوجّه إليّ أي كلمة أشار إلى كلبي حراسة كانا يتبعانه، فجرّاني إلى باب الثكنة، وهناك جرى تعليقي مشبوحاً ليوم وليلة.

في صبيحة اليوم التالي جاءت سيارة (فورويل) بنوافذ معتمة جاءت تشقّ الغبار وعبرت البوابة مسرعة.

وسمعت لدى توقّفها لغطاً كثيراً استطعت من خلاله تمييز صوت إبن نعجة

لم تمكث طويلاً، غادرت مسرعة مثلما جاءت بنوافذها السوداء وسحابة الغبار في أثرها. لم البث بعدها أن أُنزلت عن صليبي شبه محطّم، ثم جاء أحدهم بالكمرة ودفعها في صدري «خذ. ولا تعد للاقتراب من هذا المكان ثانية».

ركبت سيارتي وعدت إلى البيت من حيث انطلقت قبل يومين. كان سوء الحظ قد قادني إلى ما وراء الجبال الحمراء أصطاد بعيني كمرتي زقزاقاً هنا أو شحروراً هناك، عندما وجدت نفسي محاطاً بجيش كامل التسليح يجرّني معصوب العينين إلى الثكنة.

لن أتحدث عمّا صار لي بعد ذلك. فكلّ من يملك ولو قدراً يسيرا من المعرفة، يمكنه أن يسرد الكثير من مأساته الخاصّة أو ممّا سمعه من تجارب الآخرين. ويمكنني في هذا المجال أن أستشهد

بحكمة قالها أحد النجارين ذات يوم «من الخطأ الجسيم أن تعتقد أنّ المنشار يمكن أن يحبّ المسمار».

وعندما حدّثت صديقي أثناء السهرة بما شاهدت من أدوات الرعب خلال استضافتهم لي، علّق قائلاً «أنت لم ترَ من الجمل غير أذنه».

في تلك الليلة، عندما وضعت رأسي على الوسادة، وخلوت إلى خواطري مستعرضاً كلّ ما طرحوه عليّ من أسئلة، أيقنت أنّ المعرفة صارت من المحظورات التي تشكّل خطورة على صاحبها مثلما يقول صديقي: في عالم تتحكّم فيه قوى الشرّ بمنابع المعرفة، ويعرف فيه فقهاء الظلام كلّ شيء، لا يتبقّى لنا شيء نعرفه. والأشياء الجديرة بالمعرفة صارت، على كلّ حال، أكثر ندرة من قنفذ أبيض. ثمّ نصحني بأن أنسى ما حدث فتناسيت، وعدت إلى مزاولة عملي كأنّ شيئاً لم يكن. وعادت الأمور تأخذ مجراها المعتاد: صديقي ينبش الرمل يائساً في "تبة الهالكين"، وأنا أراقب الأفق وأتشمّم الجهات، وحارس سور المقبرة ينال ترقيته السنوية وينتقل إلى الدرجة الثالثة، وابن نعجة يستوفي حقّه المقرّر على الصيادين كاملاً لا ينتقص منه سمكة واحدة، والسيدة الأم، والدة الجميع، تخرج، على مألوف عادتها، من البحر منشورة الشعر عارية كما ولدتها أمّها، وسوسو سوف تعتزل الفن وتتجه للعمل في الصحافة.

وقد تلتقي ساعة الظهيرة بمن يسألك «إلى أين»؟ فتواصل طريقك متجاهلاً السؤال والسائل. فقد كفّ الناس عن طرح الأسئلة منذ أمد بعيد، وتسود الآن حالة من العزوف الجماعي.

وربّما يكسر ضابط كتيبة الحماية القاعدة أثناء تجواله قائلاً لأحدهم «صباح الخير» فيردّ المواطن «أنا رهن أمرك مرّة أخرى يا سيدي». ثمّ يقرن ساعديه ببعضهما لتلقي الأصفاد. يمشون رافعي الأكف أمام وجوههم مفتوحة نحو السماء، يبتهلون كأنّهم المنحوتات الفرعونية على جدران المعابد.

وعندما يمرّ موكب السيدة الحاكمة، والدة الجميع، ينحنون حتّى تلامس جباههم الأرض. ويتباهى السابقون منهم على اللاحقين باتساع الزبيبة التي خلفها تكرار السجود أمام الموكب. حتّى وصل الأمر ببعضهم إلى استخدام التقنيات الحديثة لختم جباههم.

الطيبون، من ذوي النوايا الحسنة سوف يضجّون صائحين:

«هذا كلّه زور وبهتان. لا أحد يمكنه أن يصدّق كلمة واحدة من هذا الهراء». ولكن هناك الكثيرين ممّن هم على ثقة تامّة بأنَّ واقعنا المرير قد تجاوز الخيال بمراحل. وأنّ الخيال في كفّة الميزان الأولى صار كالكسيح يصرخ طالباً تحقيق العدالة مع الإطار الوثائقي للجنون الراجح في الكفّة الأخرى.

ومن أجل العبور من الحقيقة إلى الخيال (الفن) لا بدّ من اجتياز هذا الحاجز من الشكّ.

دعونا نسأل المكذّبين: كيف صدّقتم أنَّ طائرة من نوع بوينج 757 تبلغ المسافة بين طرفي جناحيها 38 متراً وتزن مئة وخمسة عشر طنا، وهي بارتفاع مبنى من أربعة طوابق تستطيع أن تضرب الطابق الأوّل فقط من مبنى البنتاغون، ولا تحدث إلا ثغرة لا تكاد تتسع لشاحنة، ودون أن يُعثر على قطعة معدنية واحدة من هذه الطائرة العملاقة؟ بل كيف تقبلتم صورة إلقاء القبض على صدّام حسين في منتصف كانون الأوّل، وفي حفرة لا تكاد تتسع لحذائه، في حين أنّ النخلة المحمّلة بالبلح

الغضّ في مؤخرة الصورة تصرخ بأنّ هذا البلح لا يكون إلا في شهر حزيران!؟ البلح في هذه المرحلة من النضج لا يكون إلا في حزيران، بينما التقرير المعلن للعالم يقول إنّ الصورة التقطت في منتصف كانون الأول بفارق ستّة أشهر؟!

كيف صدّق العالم هذا المستحيل؟

دعونا إذن نتفق منذ البداية بأنّ ما يعتقد البعض بأنه مبالغة هو أقلّ بكثير ممّا يمكن قوله للاقتراب من الحقيقة.

كتائب الحماية التي خضت تجربتي معها تتألف من عناصر يجري اختيارهم بمنتهى الدقّة. لهم طريقة خاصّة في الإعداد. إذ يحجزون في ثكنات معزولة فيما وراء الجبال الشرقية، ثمّ يجري تصنيفهم بحسب المرجعيات القبلية والبيوتات المتنافسة، ويخضعون لتدريبات عنيفة بإشراف خبراء دمويين أجانب وعلماء نفس. وهناك يتقنون القتل بثلاث وثلاثين طريقة بالأيدي العارية قبل اللجوء إلى استخدام السلاح. ولا يتخرّج أحدهم قبل تحقيق ثلاث إصابات محقّقة بإطلاق النار على ثلاثة أهداف متباعدة خلال ثانيتين اثنتين. وأثناء التدريب يخضعون لاختبارات نفسية جهنمية تجرّدهم من أيّة ولاءات أو أحاسيس إنسانية سابقة ينسون معها الآباء والأبناء ويتنكّرون للأمهات والزوجات ويتحوّلون إلى درع لا يمكن اختراقه لحماية السيدة ولا شيء آخر غير السيدة. يفتدونها بدمائهم وتنتهي أحلامهم عند الموت في سبيلها.

يذكر ابن إسحق في سيرته أنّه جيء بأبي سفيان إلى حضرة النبي يوم فتح مكّة، فقال له النبيّ «ويحك يا أبا سفيان! ألم يئن لك أن تعلم أنّي رسول الله»؟

فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وما أحلمك وما أكرمك! أمّا هذه ففي النفس منها شيء.

أريد من هذه المداخلة الخارجة عن السياق، أن أتمثّل بقول أبي سفيان من انّه ما زال في النفس شيء حيال من يظنون بي المبالغة. فاسمحوا لي إذاً أن أقدم شاهدي الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير يقول:

كان ابن السكيت مؤدِّباً لأبناء الخليفة المتوكّل، فسأله يوماً: أيّهما أحبّ إليك، ابناي هذان أم الحسن والحسين؟ (أحفاد النبي).

فأجاب الأستاذ بما لا يرضي غرور الخليفة، فأمر جنوده (من كتائب الحماية) بأن يدوسوا بطن المؤدب، فسلّوا لسانه وظلّوا يدوسونه حتى مات.

هذا ما كان من خليفة تمتد إمبراطوريته من الصين حتى الأطلسي، فماذا يكون الحال مع السيدة وربيبها ابن نعجة الذي يصفها سرّاً بين خلصائه بأنّها من إن تطبق راحتها على القضيب اليابس حتّى يخضرّ ويورق.

بعد حادثة تعليقي ببضعة أيام حدث التالي:

كنّا حوالي العصر حين سمعت نفير سيارة يزمر بإلحاح أمام البيت، تلاه اندفاع الصغار، يتزاحمون متدافعين من الباب، وكانوا يلعبون في الحارة على عاداتهم «بابا عمّو بابا عمّو في واحد برّا يسأل عنك».

فخرجت (بالبيجاما) أستطلع الأمر، كانت نفس السيارة السوداء تصطف مثل قطعة من الأسطول أمام البيت.

نزل زجاج النافذة آلياً وخرجت يدٌ ممتدّة تشير نحوي بالأصبع السبابة أن "تعال". ولدى تدقيق النظر من خلال شمس العصر رأيت وجه ابن نعجة بنظارته السوداء إلى جانب السائق، فاقتربت.

-تعال، عايزينك شوي. قال بنبرة آمرة دون أن يحوّل نظره عن الزجاج الأمامي.

أسلوبه في الاستعلاء حبس الكلام الذي توقّف في حلقي. فرحت أشير إلى انّني أرتدي (البيجاما)، فقال ملتفتاً نحوي هذه المرّة:

-سأنتظرك ريثما تغيّر ملابسك.

دخلت أتعثّر ببعضي لاعناً برج الدلو الذي أوقعني في هذا اليوم المشؤوم.

غيّرت ملابسي مرتبكاً أمام استفسارات الزوجة المرعوبة وعفرتات الصغار الغافلين عمّا يدور في الدنيا، وخرجت. ترجّل السائق بسرعة لدى خروجي وفتح باب السيارة الخلفي مشيرا إليّ أن "تفضّل". فعادت الطمأنينة إلى قلبي. وللحقيقة لا بدّ من الاعتراف بأنّني كنت نصف مذعور جرّاء التجربة المريرة قبل أيّام، ولكنّني، أمام حركة السائق المسرحية، نصف متماسك، نصف مضطرب، ومندهش تماماً. وفوجئت برائحة كريهة من تلك التي تطلقها الأمعاء البشرية داخل السيارة.

انتظرت أن يقول شيئا ما، أو يلتفت إلى الوراء قليلاً. ولكنه ظلّ متمسكاً بصمته بغباء حجر يُقذف على بقرة.

كانت الرائحة مخزية، فأطبقت فمي، وتشاغلت بمراقبة أعمدة الهاتف وهي تكرّ راجعة إلى الوراء من خلال النافذة. وأحسست بما يعتمل في صدره من رغبة تستعر في انتظار أن أتنازل أنا وابادر إلى السؤال. فصممت على قهره بالصمت، فيما كان صدري يتلظى بمرارة المكابرة. وطال الصمت. صمت صارخ بالكراهية إلى أن وصلنا قصر الرئاسة.

ترجلت مأخوذاً بفخامة المعمار، أتحرك ذاهلاً بتنافر الألوان وانعدام الذوق. وكانت السّخال والخراف تتجوّل بحريّة تخضم ما تطاله من أطراف نباتات الزينة، وتتبعّر على أدراج المدخل الرخامي العريض بانطلاق سيريالي.

فزايلني الخوف أمام هذا العبث الجدير بالفرجة.

وأخيراً أوصلوني إلى السيدة، فإذا أنا في حضرة عجوز عجفاء متصابية تكشف مباذلها الشفافة عن ثنيات جلد البطن وترهّل الصدر. لم تستطع الدهانات والعقاقير، ولا مشارط الجرّاحين أن تفعل شيئاً أمام تغضّن جلد الوجه والرقبة. أفاعيل الزمن أقوى من كلّ هؤلاء.

فداخلني شعور بالأسى على مصير الإنسان.

قالت دون مقدّمات.

-سمعنا بما حدث فأمرنا بإطلاق سراحك، عسى أن يثمر ذلك فيك.

-حنان الأم أكبر من هفوات الأبناء يا سيدتي.

فانتفضت كلبوة أحسّت بالخطر، ثمّ سرعان ما تماسكت وقالت:

-سمعنا أنّك تربّي العصافير.

-ليست العصافير وحدها يا سيدتي، مهمّتي تتعلّق بحماية الطيور.. جميع الطيور.

-طيور، عصافير، كله ماشي، فنحن في النهاية من يدفع لك. حمايتها من أيّ شيء؟؟

-من السموم، والتلوث البيئي، وجور الصيادين، ومراعاة ذلك في أوقات التكاثر. الأخطار كثيرة كما تعرفين يا سيدتي.

-آه أعرف، ثمّ تناولت نظّارة غريبة الشكل غطّت بها عينيها، واضافت وهي تتفحّصني طالعاً نازلاً:

-وكيف تميّز بين الذكر والأنثى في أوقات الزواج؟

لعلّها تريد أن تقول "التزاوج" فأخطأت، ولكنّها أضافت:

-كيف تميّز بين الفحل والأنثى؟

أحسستني عارياً أمام الكلام الملغّم، فاندفعت اشرح بجديّة الخبير.

-نعرفها من الحجم، ففي بعض الأنواع يتفاوت الحجم بين الذكر والأنثى، وأحياناً نعرفها من طريقة الوقوف، فبعض الذكور تقف بطريقة متميزة كأنّها تقف على رؤوس أصابعها. وقد نعرفها من أسلوبها في اللعب والاستعراض أثناء فترة التكاثر، وربّما نعرفها من الصوت، فأنثى القطا على سبيل المثال تصدر صوتاً كالصفير أو تقرق كالدجاجة. ونعرفها من اللون أيضاً كأنثى الهدهد البنيّة اللون غالباً، ولبعضها طوق فوق الصدر أو حول الرأس يميّز بين الذكر والأنثى. وهناك طول الذيل وتعدّد الألوان وبروز قوادم الجناح. وأغلب الطيور تتشابه فيها الذكور مع الإناث بطريقة يصعب التمييز فيما بينها. وعلى وجه العموم كلّما كان حجم الطائر أصغر زادت الفروق بين الذكور والإناث. أمّا الطيور الكبيرة فالتشابه بين الجنسين يبلغ حدّ التطابق في معظم الأحيان.

كنت أتحدّث بسرعة مثل تلميذ حفظ درسه جيدا وراح يردّده في الامتحان. ولكن استرسالي كان يحاول إخفاء ما أشعر به من كلام مشبوه. فلجأت على الثرثرة واللغو الزائدين لتجاهل ما يخيفني. وقاطعتني رافعة نظارتها العجيبة، مشيرة بيدها نحو إحدى الوصيفات التي تقطر أعطافها بالشهوة، فسارعت هذه إلى إحضار قفص بداخله ببغاء وسألتني:

-أهذا ذكر أم أنثى؟

بدا لي للوهلة الأولى بأنّه ذكر من نوع الكوكال.

-يصعب التمييز في هذا النوع يا سيدتي، ولكن بالاستناد إلى هذا الشحوب الخفيف حول جانبَي المنقار أُرجّح أنّه ذكر.

-إنّه ذكر بالفعل تتمنى لو كنت مثله.. أحسنت.

فأحسست بما يشبه يد الإنقاذ تنتشلني من الغرق في بحر متجمّد.

-خذه وعلّمه الكلام. قالت بحزم يقطع الطريق على أيّ قول.

ثمّ أشير إليّ بالخروج. فتناولت القفص وغادرت. وجدت ابن نعجة يتندّر مع بعض الخدم بانتظاري عند الباب الخارجي. فاشار إلى السائق الذي سارع إلى فتح باب السيارة الأمامي. فصعدت إليها تلاحقني نظرات ابن نعجة اللاعنة، وطوال الطريق لم يزد السائق على أن قال:

-سيدي ابن نعـ.. أعني جابر ينتظر عودتي بسرعة.

ولم أكن في حالة تسمح بسماع أيّ كلام. فواصلت عدّ أعمدة الهاتف المتراجعة.

-7-

يوم بدأت باستعراض قصاصات الخميرة: تمحيصها، وتصنيف المتشابه في مجموعات، وتفقيط الملائم للعمل منها؛ كنت قد قطعت شوطاً لا بأس به في كتابة روايتي الخاصّة، حتى إنّني كنت قد حسمت تردّدي واستقرّ رأيي على اسم "ليلة الزعفران" كعنوان لهذه الرواية الجديدة.

رواية تشبه الأفلام الأمريكية الهابطة، تتحدّث عن سلطان يخرج من بين صفحات ألف ليلة وليلة ويمارس مخازيه في الليلة الثانية بعد الألف، ويسمّي ليلته تلك بـ"ليلة الزعفران". وهي فكرة مطروقة كثيرا، ومبتذلة تشبه محاولة خصاء الديك. لا أطمح من ورائها إلى أيّ شيء ذي بال. ولكنّها على قدمها ومطرقمبتذلمستهلكغثاثاتها، ظلّت تلحّ على خاطري يطاردني شبحها في الليل مثلما هو في النهار، ولأنّني كما يقولون "ذنبة الكلب عوجة" استسلمت أمام طبيعتي وبدأت الكتابة.

يقول الراوي: إنّ السلطان كان عنيناً يستجلب الفحول من عساكره لكي يشبعوا غلمة "سيدة قلبه ووردة أيامه" كما كان يسميها، ثمّ يقطع رؤوسهم في آخر الليل على طريقة شهريار.

ولما عافها العسكر، وصاروا يقيئون لمرآها، اخذوا يهربون من الجيش تباعاً، فأخذت هي زمام المبادرة وصارت تروي ظمأها بمعرفتها الخاصّة. فعمّت الفضيحة حتّى صار مركزه محرجاً بين سائر الأباطرة والسلاطين في عصره. فنفاها إلى إحدى الولايات النائية وملّكها على الناس هناك. ثمّ انصرف إلى نزواته الخاصّة. يتشمّم روائح الخادمات، ويقيم حفلات العهر الجماعي وهكذا. كان نزوة من نزوات الطبيعة الدنسة. طفرة جينية حدثت في ساعة جنون ففجرت فيه أبعد ما يمكن تصوّره من بشاعات. (ألم أقل لكم بأنّ الواقع فاق الخيال) فعاش ممتلئ الصدر بالحقد على الأسوياء من الناس، خارقاً كلّ القواعد المألوفة. لا ينفكّ يثابر على أن يرقى بالفحش إلى درجة العرفان. فبلغ الكمال في اللؤم والمكائد.

يقول علماء النفس الذين انكبّوا على دراسة حالته فيما بعد أنّه كان يتصرّف بدوافع خفيّة، دنسة غالباً، ولكنّها ليست أيروسية كلّها. فهناك جانب لم يكشف عنه علم النفس بعد.

وعلى وجه العموم إذا وضعته مع الشيطان وشيلوك ونيرون فسوف تجد أنّه الأكثر سوءًا بينهم.

اختار لنفسه اسم (أبي رغال) مع أنّه لم يخلّف ذرية للأسباب التي جرى ذكرها.

وجاء في مذكّرات أحد أتباعه ما نصّه:

«كان، رحمه الله، في لحظات انسجامه المتباعدة، عندما يكون منشرح الصدر، يتطلع في وجوه من حوله مستعرضاً الحضور واحداً واحداً يقسم ابتسامته الخبيثة الثابتة عليهم بالتساوي. وعندما يبدأ التودّد بالحديث تراه وضيعاً مثل عاهرة مهيضة الجناح. لحديثه رزانة قحبة متقاعدة، وكنا في ليلة بعينها من كلّ أسبوع نجتمع كلّنا إلى مائدته: الحاشية والمستشارون والأمراء وكبار القادة وخدم القصر وسفراء الإمبراطوريات والحريم والجواري والمبعوثون من روما وفارس والصين وبلاد الأحباش وملوك الهند، وكان يسمّي تلك الليلة بليلة الزعفران، ولم يكن لأحد أن يجرؤ على

سؤاله عن المقصود بتلك التسمية أو السبب فيها. ويغلب على الظنّ أنّ السرّ كامن فيما كان يحدث من فظاعات بعد انصراف الناس.

وفي كلّ مرّة من تلك الاجتماعات كان يلقي خطاباً لا يتغير أبداً، يعيده علينا المرّة تلو المرّة حتى حفظناه عن ظهر قلب، بمن فينا من لا يعرفون العربية، كان يقول:

«أنا لا أفعل إلا ما أعتقد أنّه الصواب. وماذا يريدون مني أكثر من هذا؟ ماذا أفعل حيال قابليات الرعايا غير المحدودة للكآبة وخيبة الأمل؟

وبهذه المناسبة، وبوصفي سلطان الجميع، سلطان الزمان الأعظم، آمركم بضرورة العمل على تخلّي الناس عن هذا الشعور بالخذلان؛ لأنّ الداخل في دنياكم هذه يبدأ من حيث الخارج منها. عبث... تيتانوس».

وعند ذلك كان يعلو هتاف الجميع: تيتانوس.. تيتانوس.

كان، رحمه الله، معجباً بهذه اللفظة حدّ الافتتان، لاعتقاده بأنّها اسم إمبراطور روماني عظيم.. تيتانوس. يردّدها رافعاً ذراعه في نهاية خطابه، ويردّدها في كلّ حين بمناسبة وفي غير مناسبة. وتذكر غير واحدة من الخادمات بأنّها سمعته يهمس بها لنفسه في خلوته في الكنيف.

ولم يكن، رحمه الله، ينفكّ عن ملاحقة المحظيات المحيطات يطالبهن بستر العورة ويطالب الخاصّة من الحريم بالعفة وطهارة الروح».. انتهى النصّ كما ورد في مذكّرات التابع.

هذه نبذة مختصرة عن المعالم الخارجية المنظورة لبطل روايتي "ليلة الزعفران"، كما تصوّره خيال الروائي وكما سألاحقه سارداً حالاته الموزّعة بين انتظاره الشعراء يُحملون إليه على البريد لتسليته بالمدائح، وبين المبتسمين دونما سبب يستعرضون صفحات (الفيس بوك) لا هؤلاء تساءلوا كيف ولا أولئك يسألون لماذا؟

وعندما بدأت أتلمّس طرف الخيط محاولاً تخطيط المعالم الأولية لبطل رواية صاحبي "الخميرة،" وجدت نفسي مشطوراً إلى نصفين-أعني ثنائيّ الشخصية، ممزّقاً بين شخصي الحقيقي من لحم ودم، وتجربتي مع سلطاني في "ليلة الزعفران"، وشخصية صديقي – أعني بطله – الذي يشير إليه في قصاصات الخميرة بضمير الغائب المفرد "هو". فهذا الاسم "هو" لا يشير إلى ذات محدّدة بعينها، بل يحيلك إلى مجرّد رأس مقطوعة بين مئة ألف رأس أطاح بها الحجّاج في وقعة "دير الجماجم"، رأس تتدحرج بين مئة ألف رأس مقطوعة!

تقول الحكاية «عندما كان هارون الرشيد يعاني سكرات الموت في مدينة "طوس" جاؤوه بأخ لرافع بن الليث، فدعا بقصّاب وقال له: «لا تشحذ مديتك، وفصّله عضواً عضواً، وعجّل، لئلا يحضرني أجلي وعضو من أعضائه في جسده». ففصّله، ثمّ جمع أشلاءه فإذا هي أربعة عشر عضوا».

لم يصل لرأسي سيف الحجاج، ولا تناولتني مدية القصّاب، ولكنّني مع ذلك مشطور إلى نصفين، شخصية خيالية مراوغة تحاول كتابة حكايتها الخاصّة، وأخرى حقيقية تروي تجربتها. روايتين في حكاية واحدة. أحياناً نتبادل المواقع، فأستعير أنا شخصيته، ويتلبّس هو شخصيتي. والمشكلة أنّنا لسنا منسجمين: ففي حين أتمتع أنا بقدر من التسامح وغضّ الطرف عن الضعف والنواقص

الإنسانية ذهب هو محتفظاً بصلابته وتهوّره وصار شيئاً من الماضي، في حين ما زلت أنا مشروعاً مستقبلياً لرواية في طريقها إلى التشكّل.

حالة ملتبسة مثل محارب قلبه مع ابن الأشعث وسيفه مع الحجاج.

أعود لتقليب القصاصات "الخميرة" فلا أجد غير صفحات من الهواجس والأوهام وأنصاف المعلومات أبحث فيها عن بداية مثل من يبحث عن بداية للدائرة.

كان ممّا تعلمته من الآخرين، واستقرّ عندي كاليقين، أنّ سيرة الشخصية تبدأ من وضع خاصّ، متفرّد وذاتي، يتعيّن عليّ العثور عليها بدأب من يصطاد السلمندر بجانب المستنقع. وبغير ذلك أغدو مثل من يستجمع أطراف شجاعته للقفز من فوق المئذنة.

ولكنك، يا صديقي، في تأملاتك الخريفية الطائشة هذه، لم تترك لي سوى القليل مما يمكن الاعتماد عليه، الأمر الذي يجرّد هذا المسخ الـ"هو" من نذالته الأصيلة ويحيلها إلى شيء هامشي.

وذات لحظة استغراق في التأمّل أُفاجأ بشبحك يطلّ عليّ يسألني «إلى أين»؟

«إلى البحث عنك في عيذاب، أتعقّب آثارك، فقد تكون قد عدت إلى هناك تختفي من ملاحيقك في هذا الميناء المجهول».

هناك وجدت من تدّعي أنّها أمّك!

كانت تجلس متربعة، وقد أسندت عمودها الفقري إلى الجدار الطيني، وعندما كنت أهمّ بالدخول، كان ثمّة ثعبان أسود بطول مترين ينساب خارجاً من الكوخ لم يثر فضول أحد. وكان جوف الكوخ المعتم يشي ببرودة ما تزال ساكنة من بقايا الليل، وكانت هناك تدّعي أنّها أمّك.

أشارت إليّ بالجلوس كأنها تنتظر وصولي. وكان رأسها كزهرة القطن المتفتحة. وكانت تحدّق أمامها شأن جميع العميان. ولمحت حول عنقها المتغضّن سيراً من الجلد ينتهي بتعويذة سوداء تشبه ثمرة القرع الصغيرة.

خبطت الأرض الترابية بكفّها خبطة هينة وقالت «هنا نزفت دماؤه، في حجري.. انظر. أخذوا كليتيه وأعطوها لواحد منهم. خافوا أن ينكشف سرّهم فأرسلوا كلابهم تتعقبه إلى هنا، وعندما طعنوه بخناجرهم صاح «قتلوني يا أمّي».

انتزعت أصابعها التميمة من حول عنقها «خذها يا ولدي، فعساها تعمي أبصارهم عنك».

دفنوه هناك، وأشارت إلى اللامكان.

خرجتُ أجرُّ خطاي وقد تهدّم العالم في داخلي، ذهبت إلى المقبرة، وكانت القفار تحترق بالرياح الداخنة. وكان ثمّة عدد من النسور والعقبان تقف صافنة فوق الصخور بانتظار شيء ما يموت. وكان ثمة جمجمة جمل إلى جانب أضلاعه وسلسلته الفقرية بدت كأنّها تحدّق في وجهي، وإلى جانبها كانت حفرة القبر فارغة، ثمّة آثار مخالب متوحّشة نبشتها وسحبت الجثّة بعيداً. «شرّحوا الجثّة بعد أن قتلوه. وقد مثلوا دور الذئاب للتضليل». قال لي أحدهم.

لم تكن أنت بالتأكيد، ولكنّه آخر يشبه حالتك، مع فارق بسيط هو أنّ له لون بشرة محروقة.

وها أنت تراني أهيم على وجهي أبحث عنك بعد أن كنس الواقع كلّ ما تبقى من الخيال.

انظر كيف انهار بعدك كلّ شيء. وها أنذا أبحث عنك في الموانئ والمحطّات، وفي نتف الأحاديث المتطايرة بين ركاب الحافلة، وفي الحكايات.

أسرح البصر ساهماً في الغروب، فتمرّ الذكريات تتقاطر واحدة إثر أخرى، فأتذكّر كيف لاحت لي الغابة ذات مساء بعيد عندما كنت أرى الأشجار وهي تنساب متراجعة من نافذة القطار في رحلتي البحث الثالثة أو الرابعة.

أتأمل عقد أصابعي المنتفخة وأهمس: عشرين.. لا.. ربما ثلاثين سنة أو أكثر مضى على ذلك الغروب وكان جاري في المقعد يميل بجذعه مستغرقاً في النوم.

تغمّدك المولى برحمته، لو أنّك نظّمت هذا الركام ودوّنته بمعرفتك الخاصّة، وبلغتك، لخرجنا بكتاب نادرٍ في مجاله. ولكنك أبيت إلا أن تعرّضني لهذه التجربة. الفوضى فيها هي أولى الحقائق. فها هي السيدة تأخذ بتلابيبي بعد أن تعلّم ببغاؤها الكلام، تجرّني للحديث عن نزوات أيّام صباها. وكيف حطمت قلوب العديدين مرات ومرات دون أن يردعها رادع عمّا تسميه "غوايات عزيزة على قلب التيتانوس" بالمعنى الواسع للعبارة. تقول «كنت أتخذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة أيّة مفاجآت. ولكن الحراس كانوا يعرفون كلّ شيء. وأقولها صريحة لم يكن الأمر ليعنيني بأيّ شكل.

ها أنت ترى يرحمك الله، لا أعرف من أين أبدأ، فكلّ بداية ممكنة، وكلّ الخيارات لها نفس التأثير المحيّر. عزائي الوحيد أنّني أحاول.

أتصوّر نفسي في زنزانة معتمة يسألني الجلاد «بأيّة تهمة جاؤوا بك إلى هنا»؟ فأردّ عليه: «لأنّني كتبت رواية. وحتّى لا يذهب موتي سدى اقرأها إذا أحببت. فيردّ بغضب:

- أنت منهم إذاً؟ لا أريد أن أقرأ شيئاً. مدّ يديك.

يضع القيد، ثمّ يشبحني عالياً ويمزّق ملابسي.

أحد المسؤولين عن رعاية الثقافة يقسم صادقاً أنّه لم يقرأ كتاباً في حياته. يقول ذلك من باب التفاخر، فإذا ما قرأ في وجهك أنّك تستهجن ذلك، ضغط على الجرس يستدعي لك الجلاد الواقف وراء الباب، وأفضل ما يمكنك عمله عندئذٍ هو أن تبتسم له ببلاهة وتغادر، ثمّ تنسى كلّ شيء.

عند هذا الحدّ دعونا نعد ترتيب الأحداث، فالأضرار لا تكون كبيرة في مثل هذه الحالات عادة.

نحن الآن نقف في نقطة البداية، أمام رجل تتدافع في ذهنه الأحداث، حائر، لا يدري كيف يبدأ بسرد روايتين في حكاية واحدة.

وفيما هو يلفظ آخر أنفاسه، يتساءل ما إذا كان ذلك حقيقة أم حلماً. فيسمع هاتفاً على لسان صديق ميت يقول «ومن أنباك أنّ حياتك كلّها لم تكن حلماً»؟

فيغمض عينيه ويموت

وقد يفضّل البعض – وهذا وارد طبعاً – أن يُبقي على الرجل حيّاً لكي يواصل الحلم ويروي الحكاية.

-8-

في السابعة صباحا انهارت (رُغاليا)

وفي الثامنة كانت الجيوش على مفارق الطرق تنظم المرور وتدقق في الهويات. جنود حقيقيون بقدر ما هي حقيقية فوهة المدفع.

تحققت نبوءة رحّال.

باتت رغاليا مثلما تبيت الدول وأفاقت مثلما تنفجر الفقاعة.

ولهول الصدمة أُصيب الناس بالتبلّد. بعضهم بدا وكأنَّ الأمر لا يعنيه في شيء، كان الاكتساح شاملا لحد الذهول. شيء يستعصي على التصديق لأنه يفوق الخيال.

فنحن نعرف أنَّ الدول لا تنهار فجأة كالأفراد: يصاب أحدهم بالجلطة فينهار في الطريق أو تداهمه سيارة فتقذف به إلى الرصيف.

الدول كالتاريخ: يتغلغل فيها الفساد، فتضعف، ثم تترهل، وتضعف قبضة المركز على الأطراف، ثم تتهاوى تدريجيا خلال عقود أو سنوات.

حدث هذا مع بني أمية، وبني العباس، وبني بويه، وبني حمدان، وبني الأحمر ولكن بني رغال انهارت في عز عنفوانها فجأة مثل تمثال تحطمت قاعدته.

ومن أجل استيعاب ما حدث، احتاج الناس إلى زمن أطول بكثير من الزمن الذي استغرقه السقوط. (برجا التجارة العالميين انهارا عموديا بسرعة 32 قدم/ث على عكس ما يهرف به علم الفيزياء).

ومع أنّ رحّالا تنبأ بالحدث، وكنت أنا نفسي مهيّأً لتلقي الصدمة، إلا أنَّ مشاعري ظلت ملتبسة مثل تلك التي تصيبك بعد ارتطام طابوقة سقطت وراءك من الطابق السادس.

وراءك تماما وعلى بعد خطوة واحدة. تنظر مبهوتاً إلى الأعلى ثم إلى الأسفل،إلى الطابوقة المحطمة، وقد تماهى في داخلك الإحساس بفداحة الخطر مع شهقة النجاة. سقطت على بعد قدم واحدة من رأسك! ومع ذلك نصف ناج، نصف مندهش تواصل سيرك، يمور بداخلك السؤال نفسه.

الأغلبية الساحقة من الناس الذين عانوا من الإهمال طويلا، فكروا بأنَّ الأمر لا يعنيهم في شيء. فواصلوا سيرهم رغم سقوط الطابوقة وراءهم.

بعضهم راح يعالج النازلة بما قدّر أنها تستحقه من برود اللامبالاة. ووجد آخرون في الحدث نوعاً من الطرافة مؤكدين صحة النظرية القائلة بأنّه حتى الكوارث لا تخلو من بعض الإثارة أحيانا. واستيقظت لدى البعض رغبات قديمة بالفوضى والانتقام. وتفجرت أحقاد حامضة تجمعّت طويلا وراء السد.

بلاد وجدت نفسها على حين غرة مقطوعة الرأس. بلا سلطان ولا محتسب ولا حتى ضمير يندم. فرّ رغالها مختبئا في الصندوق الخلفي وقد ألقيت فوقه قطعة سجاد متآكلة الحواف مع بعض

الملابس المتسخة والأحذية القديمة، وكان يتمدد هناك مغطى الرأس بشعر مستعار وبملابس النساء.

في تلك الأثناء كنت في دورة تدريبية تتعلق بنظام المحميات فسافرت لمدة ثلاثة أشهر تصادفت مع بداية الصيف وإجازة المدارس. فاصطحبت العائلة لقضاء حاجتين بحجة واحدة، الاستجمام، وحضور الدورة. فسافرنا تاركين أصدقاءنا في الجزيرة التي بدأت تهتز بفعل التوابع الزلزالية اللاحقة للانهيار الكبير.

أقول أصدقاءَنا لأنّ زوجتي اتخذت من الخرساء أختا حقيقية سرعان ما تعلمت لغتها وصارتا تثرثران معا.

أمّا الأولاد فقد جمعتهم مشاعر الأسرة الواحدة ولم يكونوا يطيقون العيش دون مشاكل لدقيقة واحدة.

ففي غياب رحّال، كانوا ينفردون بي، يذيقونني أنواع التباريح بمشاكلهم حتى أصل إلى حافة الجنون: يندفعون فجأة قاطعين عليَّ القراءة، يصّايحون لاهثين. فأميز من خلال الصخب صوت رقم 3 «عمّو تموز ينظر تحت ذيل القطة»، يليه صوت رقم 2 «نعم أنا رأيته، يرفع ذيلها وينظر». أسأل «لماذا تفعل ذلك»؟ فتجيب فلسطين بنوع من التشفي «ليرى إن كانت ولدا أم بنتا». أقول «اخرسي أنت. من سمح لك بالكلام» فيتدخل مرّوح بلهجة التأنيب «عيب مش هيك يا عمو»، فأختصر الطريق وأوافقه الرأي «طبعا عيب». فيتناول الأصغر قلمي ويتفحّصه ثم يدلي بدلوه «بابا ما لازم نمسك ذيل القطة لأنها تعض». نعم نعم ثم إنه ينزل الدم ونعطيه إبرة». آخذ القلم من يده منهيا هذا الفصل: «الآن اذهبوا والعبوا إخوة ولا تؤذوا القطط». يخرج قائدهم تتبعهم بقية الزبانية.

فلا تمضي دقائق حتى يعاودون الكرّة «عمو تموز شد شعري»، ويؤكد صوت رقم 3 «نعم شد شعرها أنا رأيته». «لماذا شددت شعرها»؟ لا يرد لأنه كان يمرغ أنفه بالكتف الذي أمامه. وأخيرا يقول «ما شددت شعرها هي التي قالت لي أبو الخنان أولاً». ويتبرّع 5 بالشهادة «لأنها قالت له أنت فسّاد (واشي)»». ويتدخل صوت لا أعرف رقمه «هو الذي دفعها أولاً»، وتبدأ رقم 3 بالبكاء.

وعلى هذا المنوال كان يجري الوقت بفض النزاعات.

عيذاب تقول لتموز «أنت كذاب» ومروّح يقذف شبشب عائدة بالهواء. وعائدة تهمس في أذن تيسير على مسمع من الجميع بأن عيذاب لا تحب الحساب ولا المدرسة. ومروّح يطالب بحقه في قيادة المجموعة وتسلم زمام الأمور على أن يستمع إليه الجميع لأن "أمي" قالت لكم ذلك. فتنبري فلسطين تدفع بهذه الحجة بأن ذلك كان بالأمس وليس اليوم.

أما عندما كنا نجلس على الشاطئ عصراً فكان من الطبيعي أن يتسع أفق الأزمات لتطال الرمل والحصى وسرطان البحر والأسماك الميتة وشد الشعر والخوض في الماء. هذا إلى جانب مسح الأنف بأكتاف الجميع بالطبع ووصف فلسطين للأرقام 3، 4، 6 بأنهم حمير وأبناء كلب. وهنا كان رحّال يمتشق حزامه ضاربا الأرض بعنف تحت أرجلهم مهددا الجميع بالجلد وحرمانهم من البحر فيفرون لا يلوون على شيء ليواصل هو حكايته كيف صار آثاريا يبحث عن عظام الأقدمين:

«كنت عاطلا عن العمل عندما بدأ جيراننا في مخيم عين الحلوة يحفرون حفرة امتصاصية. فدفعني التعطل أو لنقل حق الجيرة، ونخوة الشباب إلى مد يد المساعدة لجارنا الكهل. وأثناء الحفر انهار من أحد الجوانب قدر قفة من التراب سقطت معها قطعة من الفخار الرقيق بلون زهري. التقطتها وأزحت ما علق بها من طين. كانت على هيئة مركب بحجم الكف لها قيدوم بارز إلى الأعلى من الأمام، في نهايته فتحة تتسع لقلم الرصاص تقابلها فتحة أخرى بحجم القرش فوق العروة عند نهاية المركب. ويزين الجانبين حفر يمثل رأس إنسان. كان واضحا أن الرسم لشخص واحد ولكنه في الجانب الأيمن ينظر إلى الأمام باتجاه القيدوم، وفي الجانب الأيسر يتطلع إلى الخلف، كانت مجوفة ورقيقة ومشغولة بعناية فهمت فيما بعد أنها كانت مصباحا يعود إلى أيام الفنيقيين.

يصبون الزيت من الفتحة الكبيرة وتبرز الفتيلة من الفتحة الصغرى.

لم أعرها كبير أهمية ولكنني احتفظت بها. وجرى الحديث يوما مع تاجر "أنتيكات" فعرضتها عليه، نصحني جزاه الله خيرا، أن أعرضها على جامع آثار زوّدني بعنوانه. فلم أكذب خبرا. ذهبت إليه وكان فرنسيا، تراودني الأحلام بعشرين، ثلاثين ليرة إذا ضربني الحظ. تفحصها الرجل وسألني «ما رأيك بألفي ليرة لبنانية»؟ فقبلت فورا.

كان المبلغ في ذلك الزمان من الستينات يعني ثروة لا يحلم بها الكثيرون. ثروتي تلك هي التي تكفّلت بدراستي للتاريخ في جامعة بيروت العربية التي أسّسها المرحوم عبد الناصر لتستقبل أبناء الفقراء بالمجان. وحتى لا نخلط حديثا بحديث ها هم الآن يتجرون بالتعليم – أعني فك الخط وليس تنمية الملكات النقدية-فضلات أمعاء الحضارة...

أما كيف انتهيت إلى منقب عن الآثار فتلك حكاية يطول شرحها.

في مهنتي، كل حفنة تراب لها قيمة. مفاتيح تاريخ الحضارة موجودة هناك مدفونة مع قطع الفخار ولو أنها تتعرض للتلف والإهمال والسرقة غالبا. هناك اختصاصيون في سرقة الآثار-شركات كالشركات العابرة للقارات. كان قدماء المصريين يسخّرون الأسرى لحفر قبور الفراعنة. يسدونها بالحجارة ثم يدفنونها لتضيع معالم المدفن خوفا من اللصوص. وكانوا يعدمون هؤلاء الأسرى فور الانتهاء من العمل منعا لتسرّب السر. وهكذا يظلّ القبر مجهولا ويضمنون عدم العبث بمحتوياته – ولكي يهدئوا من مخاوفهم أمام رحلتهم في عالم الموت كانوا ينقشون لعناتهم على الصخر عند فم المدفن.

يقال بأنَّ المنقب الذي كشف عن توت عنخ أمون مات بلدغة بعوضة في أعلى خده الأيسر وهو نفس المكان الذي تلقى فيه الفرعون الضربة التي أودت بحياته. وأن عصفور الكناري الذي كان يربيه التهمه في نفس اليوم من قفصه ثعبان كوبرا، وهو نفس الكوبرا المصرية البارزة في مقدمة التاج الملكي. ويقال بأن كلبته ظلت تعوي وتطلق صيحات مرعبة حتى ماتت. ومات لأسباب غريبة وعلى فترات متقاربة بعد ذلك اثنان وعشرون شخصا ممن شاركوا أو أشرفوا على فتح المقبرة.

كان أثناء حديثه هذا يسفو الرمل بكفّه ثم يعرمه، يسفوه ويعرمه مثل من يستحضر أيام الفراعنة بالحديث إلى الرمل.

عشرات الحكايات المدهشة كانت تأخذني بعيدا في عالم اللعنات والأشباح حيث الخرساء تشرح لزوجتي على الرمل كيف فقدت القدرة على النطق بعد مجزرة صبرا وشاتيلا...؟

كان المسلحون يندفعون كالمسعورين... وكانت النسوة تصرخ بصورة هستيرية بأن أطفالهن يذبحون... نعم على صدور أمهاتهم.... أطلقوا النار على كل أفراد العائلة بمن فيهم رضيع لم يتم سنته الأولى لأختي الكبرى... أنا لم أدر بنفسي. ظنوني ميتة... عائلات بكاملها ذبحت بالسكاكين والفؤوس.... وكانوا يصفّون الكهول أمام الجدار ويحصدونهم بالرشاشات... أنا رأيتهم يربطون خمسة شباب بسيارة ثم جروهم في الشوارع وبعدها أطلقوا عليهم الرصاص... فقدت النطق منذ ذلك اليوم.

* * *

في ذلك العالم من اللعنات والأشباح التي يقطّع فيها المسلحون المقيدين بالسيوف في مبارزات جنونهذيانية على أرض جرداء فيتراءى لي سلاطين ليالي الزعفران بعالمهم المليء بالقذارات يحثّون أتباعهم قائلين «حمّصوهم أولاً ثم اطحنوهم»، ثم تقترب الصورة أكثر فأراه جالسا على كرسيه الهزاز تمضي به الأيام مغمض العينين مستغرقا في تفكيره الخسيس وقد وضب أموره على أن يصل إلى مرتبة ما وراء السفالة...إلى ميتافيزيقا السفالة. إذا رأى طفلا جميلا راح يقضم أظافره بعصبية من يجثم على صدره جمل. متعته الوحيدة هي إتقان الكراهية وشحن منابع الخبائث في قاع روحه هو المظلمة.

كان دائم الاعتقاد مثلما صرّح بذلك مرارا – بأن كل من حوله لهم نفس الميل الفطري للؤم. فكان يحضهم على أن يتحلّوا بالإرادة الكافية ليكونوا صورة ثانية عنه.

تقول الرواية: إنّه كان في طفولته يتسلّى بتشريح آذان الأرانب لأن «من غير المعقول ولا المقبول أن يمتلك جسم بحجم القط كل هذه الآذان الكبيرة». هذا هو المعنى التقريبي الذي كان يقدمه للمربّين المذهولين مفسرا أسلوبه الشاذ. لم يكن يقوله بهذه اللغة طبعا (ولكن بعبارات وأسلوب لا تقدر عليهما إلا ساقطة مستهترة أمام تهمة الميوعة والإهمال). هذه العبارة منقولة حرفياً على لسان واحد من معلميه.

أثناء سرحاني كان صديقي ما يزال يتحدث في عالم الآثار أيام كان يعمل منقبا في عيذاب يسفو الرمل ثم يعرمه عندما سمعته يقول فجأة:

«هل تدري.. أفكر أحيانا أنّه يجدر بالعالم أنْ يتبنى عيدا خاصا بالهستيريا على غرار يوم فلنتاين ويوم الأم ويوم التضامن مع الشعب الفلسطيني ويوم العمّال، تحيي فيه الشعوب وفرق التمثيل والمسرحيون ذكريات ما عاشته الأجيال المتعاقبة من وقائع مرعبة ومن جنون».

وفي تلك الليلة كتبت فصلا كاملا من فصول ليلة الزعفران.

-9-

(فصل من رواية ليلة الزعفران)

الصابر، الواقف أبدا بجوار فصالات الباب، يتقدم بخضوع مطأطئ الرأس نحو سيده (التيتانوس) الجالس في صدر الصالة. وكان هذا الأخير، مستغرقا في التفكير بالفضيحة التي أثارها في خطابه الأخير عندما قرأ كلمة "الأغنياء" بدلاً من كلمة "الأغبياء" المكتوبة في النص فقلب مدلول الكتاب كله رأساً على عقب. ساعتها، وبلمح البصر تدارك الخبراء والهتافون الفضيحة بعاصفة من التصفيق والتصفير والهتاف بحياة التيتانوس قاطعين على الناس طريق التفكير بالغلط، فجرى صرف الأنظار بالتهريج والهتاف (ومشي الحال) واستمر الخطاب كأن شيئا لم يكن. ومن ذا الذي يبحث عن أي معنى في خطاباته أصلاً؟ تقدم الصابر مطأطئ الرأس

-ها ماذا وراءَك؟

-سيدي... قال وهو يتلعثم

-لا تتعثر بخصيتيك أيها الحمار. قل ماذا وراءك من البلايا.

-ربيبك ووارث مجدك يا سيدي.

-ما به هذا النغل أيضا؟

-قتل طفلا في العاشرة. أهله يثيرون ضجّة و....

-لماذا يفعل هذا؟

-تناول حصته المقررة من الحبوب وانطلق بالسيارة. تجاوز الإشارات الحمراء واجتاح الصبي... تناثرت فتات رأسه على الرصيف.

-أيهما؟ هب واقفا يسأل بلهفة.

-الصبي يا مولاي.

-أرعبتني يا الحمار... ولماذا سمحوا له بالخروج وهو على حالته التي تقول؟

-خرج رغما عنهم. أخذ يطلق النار على الجميع فقتل اثنين وجرح خمسة ثم انطلق بالسيارة.

-وماذا تريدني أن أفعل؟

-لمجرد العلم يا سيدي... وللاستنارة برأي مولاي.

-أرى أنّه لا أساس من الصحة لكل هذا. إشاعات يطلقها مغرضون موتورون. فالربيب أصلا خارج البلاد للدراسة لينال درجة الدكتوراه. وكما يعلم الجميع لم تطأ قدماه أرض الوطن منذ سنتين لأنه يقدس العلم. أليس كذلك يا مستشاري؟

-ولكنه – وهنا تعثر بالكلام – لا يفك الخط يا سيدي..

ثم تنحنح وأضاف: لا يجيد القراءة يا مولانا.

-تصرفوا يا أبناء القحبة. ألا تستطيعون شيئاً دون أنْ تصدعوا رأسي بهكذا تفاهات!!

-أمر مولاي

خرج المستشار إلى مكتبه وأملى بالهاتف تعليماته الخاصة على الجهات المعنية حول الموضوع. وعاد بعد قليل راضيا منبسط الأسارير.

-انتهت المسألة يا سيدي.

-زادت التعديات علينا يا الصابر.

-لا عاش من تسّول له نفسه الاقتراب من حدود مولاي.

-أقول لك زادت التعديات يا ولد القحبة. أنا أعرف عشرين طريقة لسرقة البيضة من تحت الدجاجة ولست مغفلا.

-بل واحدة وعشرين يا مولانا.

-حرسي من أبناء اللقطاء يسرقون ثمار الحديقة في جولاتهم في الليل. شاهدتهم بعيني هاتين في غبش الفجر ليلة البارحة.

-نعريهم ونصلبهم إلى جذوع الأشجار ونسلخ جلودهم في الشمس.

-أبناء الزنا، ألا يخافون الله؟ يسرقونني وأنا حي؟

-ليكن ما سرقوه كالمُهل في بطونهم.

حتى الدجاجات التي تبيض في كنيف خيامهم يسرقون بيضها. أبناء الفاخات.

-لتكن بيضات مولانا زقوماً في حلوقهم.

-لا أعرف كيف تطاوعهم أيديهم. هل أنا قصرت في إشباع بطونهم حتى تمتد أيديهم إلى أشيائي؟

-حاشا لمن كان له دست بعرض دست مولانا أن يجوع أتباعه.

-أم هل رأوني أنتهك الحرمات؟ بلى قل لي إنني أدوس فراش زوجتيهم أيضا.. قل هذا أيضا أبناء الـ.....

-حاشا لدلاديل محاشم عظمتكم أن تنكشف على شراشير أمهات أمثال هؤلاء.

-لماذا لا يحبونني إذاً. هؤلاء الذين تكلّفت بتعليمهم، وأبناء القمامة الذين صيرتهم معروفين، واللصوص الذين أخرجتهم من السجن بيديَّ هاتين وسلمتهم المهمات الكبرى وغيرهم وغيرهم.. لماذا صارت قلوبهم من الرصاص نحوي.

لماذا لا يحبونني... هل يرضيك هذا يا كبير المستشارين.

-تعطشهم لعطاياك أعمى بصائرهم يا سيدي. وإذا سمح لي مولاي بالنصح لقلت: جوّع كلبك يتبعك.

-لم ترى عيني ما هو أردأ من نصائح كبير مستشاريّ غير نصائحه. يا الثور اجعلهم ينشغلون ببعضهم. إلى متى سأظل أعلمك؟

-أنا عبدك قبل أن أكون مستشارك يا مولاي.

-بلبلهم. اجعل من نصفهم وشاة على النصف الآخر. اجعل هؤلاء يشعرون أن أولئك يراقبونهم، وأنّ أولئك منقطعون لتصّيد فضائح هؤلاء.

حتى إذا عثرت على من تشك بأمره اقتلعه من جذوره فهم كالنباتات السامّة. إلى متى سأظل أعلمك الدروس؟

-إلى أن تشفع لي شيخوختي بنيل رضاك عن إدارتي يا سيدي.

-مثلاً مثلاً حرّضهم على التندر بعضوك لتصرف أنظارهم عن الحديث عن فضائحك. اجعل أنظارهم تنشغل بالقليل ليسلم لك الكثير.

-عندما أنظر في جلال محيّا مولاي أعرف نواياه دون أن يجشّم نفسه عناء الكلام. فالنظرة تغني عن الإشارة والإشارة تغني عن الكلمة للوصول إلى جحور رغبات مولاي.

-عافاك يا ولدي عافاك. لا أدري والله ماذا كان يمكنني أنْ أفعل بكل هذا الغمّ دون وجود لوطي ابن قحبة مثلك.

-سنجعلهم يتمنون لو لم تلدهم أمهاتهم.

-اين نغل الأمن وقواد الدعاية أين ذهب الجميع. جئني بهم عليكم اللعنة جميعا.

وسرعان ما جاءوا مهرولين يتدافعون كأنما انشقت عنهم الحيطان وانتظموا حوله مطأطئي الرؤوس.

-ألا تستطيعون القيام بواجباتكم. هل أنا في زريبة أعلف البغال وأسمنها؟ أم أني اخترتكم دون سائر الناس لكي تأكلوا وتتغوّطوا فقط. أنتم جميعا واحداً واحداً تعرفون جيداً ما أفعل من أجلكم.

-لا نفعل إلا ما يرضي مولانا.

-اخرس أنت يا ابن الفاخة ولا تقاطعني.

-المسؤوليات كثيرة و...أضاف أحدهم فقاطعه بحدّة.

-تبا لكم ولمسؤولياتكم. أين هي هذه الخراءات. تحدثني وكأنني صبي تتخانث معه كما تشاء.

بُحَّ صوته. فعمَّ الصمت وراح يستعرضهم بنظرات الغضب معطيا التوبيخ فرصة ليؤتي مفعوله فيهم. ولم يلبث أن قطع الصمت.

-خبروني يا محترمين.. لماذا لم يخرج أحد لاستقبالي بالأمس في عيد العمال؟ أتريدون مني أن أجعلهم يصطفون لموكبي بمرسوم؟

فغامر أحدهم بالقول:

-لقد خرجوا جميعا عن بكرة أبيهم بالرياحين والأعلام والأكاليل. أرسلناها لهم مع الأوامر منذ الصباح الباكر. وجعلنا التجار يتبرعون بالهدايا التي ستوزعها، ونفذ القائمون بالأمر مراسيم الاستقبال بحذافيرها ولكن موكب سموكم تأخر، للدواعي الأمنية كما تعلم، لما بعد الساعة الخامسة.

أنهكهم الوقوف من الساعة السابعة صباحا من بداية الدوام الرسمي، وسرت إشاعة بعد الظهر بإلغاء الاحتفال بسبب الحر. انهاروا من التعب والعطش وخصوصا أطفال المدارس وذبلت الرياحين والورود و...

-اخرس أربيكم لأجد موكبي يقطع الشوارع كأنني في جنازة، هتافاً واحداً لم أسمع على طول الطريق.

كان متوقعا أن تضج القاعة بالهتاف عند هذا الحد. ولكنهم ظلوا صامتين هذه المرّة فالموقف أكثر خطورة من أن يعالج بالهتاف.

لم يهتفوا (عاش التيتانوس) حتى لا يسمعوا «لا أريدها منكم... أريدها من أفواه الشعب».

-اهدأ يا صاحب العظمة فنحن نخاف على صحتك.

-تريدونني أن أهدأ وأترك البلايا تتراكم فوق رأسي، غدا سيخرج من أبناء العاهرات هؤلاء من يحرض على محاسبتي.

ثم استدار حول المكتب بغضب.. وأخرج صحيفة نشرها أمامهم وهو يشير بإصبعه مقضوم الظفر، إلى رسم كاريكاتوري تعمد فيه الرسام إظهار عينيه الشاحبتين الخسيستين، رماديتين ومسحوبتين مثل براز الكلب.

-انظروا.. انظروا كيف يتجرأون علي.. انظر حضرتك.

فتجرأ هذا بالتوضيح.

-نفوذنا لا يطال صحافة البلاد الأخرى يا مولاي..

-كل خراك. لماذا أدفع لهم إذا؟ لماذا؟ هل تراني موزع صدقات على منكودي الحظ في صحفهم المتعثرة؟ أين التعاون الأمني؟ أين الأمن الثقافي؟ أين اتفاقيات تبادل المجرمين؟ أين حقوق الإنسان التي يشدقون بها ليل نهار، ثم يحرمونني منها؟ اشتروهم يا البغال. اشتروهم اعلفوهم «الذبان يعرف وجه اللبان» أم أنكم لا تعرفون هذا المثل أيضاً؟

بعد هذه الجولة من التوبيخ، والاستسلام للمهانة، بدأ يهدأ تدريجيا ثم أخذت تظهر على وجهه أعراض المسامحة والعفو عنهم هذه المرة أيضا.

فجلس يلتمس قليلا من الراحة وهو يطلق ما احتشى في تجاويف بطنه من أرياح تمخضت عنها غناظمصارين سيادته في كلا الاتجاهين الحش والغلاصيم جرّاء ما نال خرثتلافيفغلاصيم كرشه من الارتجاج.

وأعقب ذلك تبريد حماقات ولي النعمة بجولة من تقبيل الرأس والعينين والأكتاف واليدين والقدمين.

أمّا أكبر المستشارين الواقف إلى جانب فصالات الباب أبدا والذي يخفي أضعاف أضعاف ما يظهر: يقول كلمة، ويلمح باثنتين، ويخفي عشرا، فقد كان أثناء ذلك منصرفا إلى التأمل في بطاقة

مذهّبة الحواف مكتوب عليها بالحبر الأخضر وبالخط الخراشوني ما لا يعرفه أحد غيره. كان يقلب البطاقة ويهمس لنفسه «إذا قدر لي أن أموت بعد هذا الكلب، فسوف أنقش على قبره: الدنس والرذيلة تجسّدا في هذا العرص المدفون هنا. تيتانوس هتف حامل المبخرة الذي دخل في تلك اللحظة من باب جانبي وراح يتجوّل في القاعة مؤرجحاً مبخرته إلى الوراء وإلى الأمام.

فعبق الجو برائحة البخور التي طفت مؤقتا على الرائحة الأخرى وهنا مدّ التيتانوس عنقه إلى الأمام يُسرّهم النجوى متسائلاً:

-ما حكاية ذلك الصبي الذي دهسوه في الشارع؟

-أوكلنا المسألة لابن نعجة يسوّيها مع والد الصبي.

-وما هي حكاية والده هذا؟

-يعمل منقبا عن الآثار. كان قضاءً وقدراً ولكنه يكتب مقالات في الصحف في الخارج.

-أهذا كل ما هناك.

-ابن نعجة سينهي المشكلة.

-ابن نعجة هذا تافه لا يساوي بصقة ولا أثق به لذبح دجاجة... هَمّ م م. وماذا عن الذهب الذي عثر عليه هذا المنقب وسرقه؟

تطلعوا في وجوه بعضهم حائرين. ثم تجرأ أحدهم فقال:

-نقلناه حديثا وهو لم يبدأ التنقيب بعد.

-سيظلّ الحمار حمارا طول عمره.

حسنا ما رأيكم بالنقود المزيفة التي وجدت بحوزته؟

-دع عنك هذه المسألة يا مولانا ولا تشغل فكرك بالأمور الصغيرة.

-وماذا بشأن تلك الطباخة التي تهدّد بالسفارة؟

-جعلناها تهرب مع عشيقها ثم ألقينا القبض عليها متلبّسة بالزنى فتنازلت عن القضية وسافرت.

-وماذا عن الولد.

أضفناه للحضانة مع بقية ربائب مولانا.

-أحسنتم. والشركة التي ابتلعت الأخضر واليابس، ما أدري شو اسمها، تبدو لي قضية معقدة.

-سلمنا أوراقها لمستر مورغان وقال أنه سيتدبر الأمر بطريقته. لديه طاقم من خبراء المال أفضل مما عند البنك الدولي.

-حسنا فعلتم. هذه هي الأخبار الحسنة.

وفي جو من التناصح والتفاهم هذا تجرّأ أحدهم قائلاً:

-من عناية الله بنا، في هذه البلاد، أن الناس على درجة عالية من التسليم بالأمر الواقع.

-هذه من نعم الله... علق آخر، حبانا بها.
فضحك التيتانوس ملء صدره لأول مرة وعلق قائلاً:
-وإلا لأصبحتم كالبغال تجر سفينة فوق الرمال.
-بصراحة.. لقد تمادى هذا المنقب كثيرا. قال أحدهم عرَضاً. فرد عليه آخر:
-دعني أقلْ لك ما قالته السيدة لابن نعجة.
-وماذا قالت له؟
-كل خراك.

-10-

عندما بدأ رحّال عمليات التنقيب في مشروعه الجديد، صار رحّالا بالفعل. يعمل في مشروعين في وقت واحد.. يمضي أسبوعا في الجزيرة وأسبوعا في البر الآخر.

وعندما جاءه ابن نعجة ذات مساء برزمة من النقود بحجم الأرنب، تحت ذريعة المخصصات الممنوحة "لدعم التميز في البحث العلمي"، ساورته الظنون السوداء. وكنت قد حذرته قبلها بأيام،

فأخذ يتفحص الأوراق بروية. وعندما تأكد له بأنها مزيفة، قذفها في النار وفرّ لا يلوي على شيء.

أخذ عياله وغادر البلاد سرّا قبل طلوع فجر اليوم التالي. يتلظّى صدره حسرة على طفله تيسير ذي العينين الضارعتين. آه ما أوجعك يا ليل الضحايا! لم يعد تيسير أكثر من بقايا نثار من فتات الدماغ على الرصيف.

وعندما تبدأ المعلومات بالتسرب عن مدى الوحشية والرعب، وتستعرض القوائم بأسماء الضحايا، يتفضل المسؤول الإعلامي بالتصريح أمام الكمرات بأن ما يشاع "لا أساس له من الصحة" يروّجه مغرضون حاقدون. ثم يعرب عن أسفه لمثل هذه الحوادث. وفي عالم اكتمل تماما بكل تفاصيل الهستيريا تنبري صحافة الكارتيلات الديمقراطية لتصوير الأطفال الذين يرمون الحصى على دبابات الميركافا على أنهم مهملون كسالى في مدارسهم وأنهم قتلة متهورون يستمرئون الاعتداء على كل دعاة السلام.

«الأوامر التي نتلقاها صريحة... أطلق النار على الإرهابيين المحتملين» يقول عنصر القوة الخاصة ضاحكا أمام العدسات فيما راحة يده تُملّس على فولاذ الرشاش.

صارت أيامنا كلها هستيريا يا صديقي «اجعل صديقك يغلق فمه». هذا ما قاله لي المحقق المتجهم في تلك الغرفة المعتمة قبل أن يفر رحّال، ناجيا بجلده، بأيام.

طرقوا الباب في منتصف الليل، وأخذوني والحق يقال-دون قيد. لا أعرف إلى أين... ولم أسأل.

وهناك وجدته ببزته الرسمية التي لو تجرّد منها لكنا صديقين.

وفي جو من التجاهل الكامل، ونبرة التهديد الصريح، راح يستعرض أمام عينيّ عددا من القوالب قيل لي إنها مخدرات "بصريح العبارة حشيش".

انتابني شعور غامض بقوة تدفعني إلى السخرية فقلت:

-ولكنني لا أدخن الحشيش كما تعرفون.. وأكتفي بالويسكي فقط.

-هل تتذاكى حضرتك؟

-لا. ولكن لا بد للواحد أن يكون شديد الحمق ليواصل الاستماع لهذا الكلام.

-يرحم والديك... هذا هو مربط الفرس. الحمق، المسألة كلّها مسألة حمق.

-الهوة واسعة بيننا. لا بد لاجتيازها من المصارحة.

-ما هو المطلوب مني؟

-هكذا يكون التفاهم بين الناس المتحضرين. استمع لهذا السيناريو أولاً: «تقول المعلومات التي توفرت لدينا أن أحد العاملين في مجال حماية البيئة يتجر بالمخدرات. فنصب له رجال الأمن – العين الساهرة على سلامة الوطن وأمن المواطن – كمينا متقنا. وسرعان ما وقع المذكور في الكمين متلبسا بالجرم المشهود. ولدى تفتيش بيته، بأمر من النيابة، وجدناه يخفي هذه الكمية تحت السرير في غرفة نومه.

-حلوة هذه في غرفة نومه...

-ما رأيك بهذا الفلم؟ ألا تراه مثيرا حتى الآن.

-مثير فعلا. ولكن تنتابني الحيرة في نهايته لا أعرف هل ستكون مفرحة أم محزنة.

-إنْ شاء الله مفرحة. قالها بإخلاص منقطع النظير.

-كيف تكون مفرحة ولديّ كل هذا القدر من الحشيش؟

-دعنا الآن نتصور صحفيا تناسبه مهنة الراقصة، من اللي بالك فيهم، يدبج تحقيقا، مليئا بالأخطاء، عن اكتشاف طريقة مثيرة لتهريب المخدرات على سيقان الطيور المهاجرة!! وأنت أدرى مني بمدى ما قد يقترفه أمثال هؤلاء بغبائهم المزمن.

-بهذه أنت غلبتني. أقرّ لك. واسمح لي أن أضيف بأن بعضهم سوف يعيد إلى الذاكرة طريقة استخدام الحمام الزاجل في نقل المراسلات قديما.

ارتسمت على وجهه شبه ابتسامة قطعها قائلا:

-نحن متفقان إذا.

لا يفرق بيننا سوى هذا الصدع النفسي، فلماذا لا نتقدم خطوة أخرى.

-الأفضل أن تتقدم أنت لأنك صاحب المبادرة وعندنا يقولون في الأمثال "صاحب الأولى لا يُبارى".

-أنت تقصر في حق نفسك-وهذا خطأ كبير بالطبع-إذا لم تدرك جديّة المخاطر التي تتعرض لها.

-كيف لا أقدرها وأمامي ما يلبي طلبات الحشاشين في دولة بحالها.

-أردت فقط أن أنبهك.

-أشكرك من كل قلبي.. وأدرك أيضا أنني ساعتها سألف ذراعي متقاطعتين فوق صدري وأتنهد حسرة وراء القضبان في زنزانة ضيقة.

عند هذا الحد ضغط على زر فلعلع الرنين في الخارج. وسرعان ما دخل أحدهم وأدى التحية. فأشار إليه أن يرفع قوالب الحشيش، فأخذها هذا بين ذراعيه وخرج.

فقام إلى الباب وأغلقه بهدوء ثم عاد إلى مكانه ترتسم على وجهه بوضوح تام عبارة لم يكن بحاجة إلى قولها (السر إذا تجاوز اثنين ذاع).

وفي جو الثقة الذي رسمه هذا قال:

-اجعل صديقك يغلق فمه.

-هل تعرف من هو صديقي! دعني أروِ لك حكاية صغيرة. «في قرية اسمها الطنطورة على البحر المتوسط طوّقت قوات الهاغاناه القرية عام 48 وأغلقت جميع المنافذ، ثم جمعت الأهالي العزّل، وجعلت الشباب منهم يحفرون خندقا بطول ثلاثين مترا. وعندما انتهوا أجبروهم على الاصطفاف على حافة الخندق ثم حصدوهم بالرشاشات حتى امتلأ الخندق بالجثث.. وفي نفس الوقت، وفي مكان آخر من القرية جعلوا الشباب يصطفون أمام الجدار وحصدوهم إلا أنَّ واحدا منهم ظل واقفا لم يصبه الرصاص. سدد الضابط اليهودي رشاشه إلى صدره فلم ينطلق الرصاص، فاستخرج مسدّسه وسدده للإجهاز عليه، فلم ينطلق المسدس أيضاً.

كان شيئا شبيهاً بالمعجزة جعلت اليهود ينصرفون تاركين الرجل ينجو من بين عشرات القتلى.

ذلك الرجل هو والد صديقي رحّال الذي اشتق اسمه مما حدث بعد ذلك».

لاحظت أثناء الكلام أنّه كان يتحاشى النظر في وجهي مباشرة وأومض في ذهني، كالبرق الخاطف، إنني لم أكن أكشف على الجوانب الخافية من مأساة صديقي بدائرتها الموشكة على الاكتمال (الجد، الحفيد، الأب) بقدر ما كنت أكشف عن داخلي أريد أن أكون واضحا أمام نفسي. فهل كنت ساعتها أدافع عن صديقي أم عن نفسي أم عن الاثنين معا ووجدتني أقول:

-أتريده أن ينسى ابنه؟ لا أظنني أقدر على هذا.

وفي تلك الأثناء كان ثمة راديو صغير على طرف الطاولة يتسلل منه غناء خفيف "ضحكت لك وردات الدار وقالت لك أهلا وسهلا أهلا بهالطلة أهلا"، فخيّل لي أنها سرقت أسماعنا معا وبشكل مفاجئ.

-نحن لسنا ملائكة في السماء، نحن هنا على الأرض.

ودقّ بقبضته على حافة المكتب وأخرس الراديو وأضاف: والأمر عندي واضح، أم تظنني أحضرتك في منتصف الليل لنحتسي الشاي ونستعيد الحكايات القديمة!

-ألا تعتقد أنّ من حقي أنْ أظن ذلك؟

-نحن نحترمك ونعرف قدرك، أنت أستاذ وتعرف أنَّ من ينتظر الكمال لا يجد إلا النقص دائما.

-وهذه هي المصيبة بعينها.

-سمّها ما شئت ولكن اجعله ينسى لصالح الجميع... ولا... تضطرني... لطلب الرجاء. أرجوك ساعدني.

قال جملته الأخيرة بما يشبه آخر عرض لقبول التسوية.

-أتدري أكثر ما يؤلمني في الحياة...؟

فرفع حاجبيه بذعر من يتجنب أسوأ ما يتوقع سماعه وطال الانتظار قبل أن أضيف:

-أن يجد الإنسان نفسه مضطرا للتصرف بعكس قناعاته.

-دعنا من هذا يرحم والديك، ما فيني يكفيني. قالها بتصميم من قرر بتر الحديث نهائيا.
ولكنني وجدت نفسي أندفع رغما عني أقول مشيرا إليه بإصبعي:
-وخصوصا إذا كان الإنسان مثقفا واعيا.
وهنا قام من مكانه كالملسوع-وقد فهم المقصود-وتوجه إلى الباب، ففتحه ونادى على أحدهم آمراً:
-خذوا الأستاذ وأوصلوه إلى البيت.

-11-

بعد اختفاء صاحبي، وانهيار رغاليا، وجدت نفسي كالمسمار الأقطم يغوص في الخشب، لاجئا من جديد، بلا مرجعية ولا عمل.

في ذلك الوقت، فتحت مظروف الوديعة، أمانة صاحبي. فوجدته يتحدث عن لفّة من أوراق البردي يصفها بأنها «لا تقدر بثمن» تعود إلى أيام الأسرة الرابعة من الفراعنة مخبوءة بين الكتب في بيته في الجزيرة، ويطلب مني في حالة وفاته – ويوصيني بتوخي الحرص – أن أتدبر مسألة عرضها للبيع (وهنا أيضا يعود للتأكيد على مسألة الحرص) لكي يتمكن أبناؤه من الاستمرار في العيش مستورين بثمنها. ثم – وهذا هو المضحك في هذه التراجيديا – يهبني جمجمة مهترئة نخرة، ملكا خالصا لي حلالاً زلالاً لا ينازعني في ملكيتها أحد، طالما حدثني عنها فيما مضى على أنها جمجمة صاحب الزنج علي بن محمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رض) والذي خرج في فرات البصرة على ظلم السلاطين الذين كانوا ألعوبة في أيدي الجواري ببغداد. فاجتمع حوله أقنان الأرض من العبيد والزنج الذين يكسحون السباخ ويفلحون أرض الإقطاعيين ويموتون جوعا.

واستمرت ثورته خمسة عشر عاما أقام خلالها العدل والمساواة بين الجميع في جنوب العراق (ويؤكد صديقي) أنّه لم يكن يملك في بداية خروجه سوى ثلاثة أسياف وفرس واحدة يركبها عرياً ودون لجام.

جمجمة هذا الرجل خصّني بها صديقي حلالاً زلالاً لا ينازعني فيها أحد...

في ذلك الوقت كان الأمن قد انفلت في رغاليا نهائيا.

انتشرت العصابات، وعم النهب، وصار القتل على جوانب الطرقات أمراً عادياً. كانت الفوضى شاملة ذعر معها الناس ولاذ أكثرهم بالفرار، فهجرت البيوت أو انتهبت وانتهت الأحوال إلى الخراب التام.

على الصعيد الشخصي كنت على شفا الإفلاس "لا قرش مصروف ولا وجه معروف".

ولكن زوجتي كانت تكتنز قدرا محترما من المصوغات الذهبية حرصت على شرائها قطعة بعد قطعة طوال سنوات زواجنا، أقراط، أساور، عقود، سلاسل، خواتم، ثولات، سبائك، ومصكوكات إنجليزية وعثمانية من كل ما تحلم به النساء الشرقيات، ولكن الزوجات، كما يعرف جميع الأزواج، نوعان: نوع غبي جدا، ونوع أكثر منه غباء، غير أنهن جميعا مقنعات في النهاية.

ففي آخر ليلة لنا في الجزيرة قبل السفر، خبأت كل ذلك في طباخ الغاز باعتباره شيئاً قديما مهترئا، صدئا ومتسخا (لا تقيم به العين ولا تحط" ولا يلفت انتباه أحد.

في الحقيقة كانت قد اعتادت على فعل ذلك كلما سافرنا في الصيف وكنا نعود من الإجازة لنجد كل شيء على حاله بالفعل.

وعندما كنت أحذّرها بمصادفات لا تحمد عقباها، كانت تقنعني بعدد لا نهاية له من الاحتمالات التي قد تتسبب في ضياع مصاغها أثناء تنقلنا هنا وهناك طوال فترة الإجازة. وكنت أملك الاستعداد الفطري للاقتناع.. فأقتنع. أما في تلك الليلة فلم أكن مطمئنا.

قلت لها «مش كل مرة تسلم الجرة»، فتحولت بقدرة قادر إلى العقلانية العلمية التي لا تؤمن إلا بالتجربة الأمبيقية الصارمة وردّت «بلا جرار بلا أباريق.. حكي فاضي»، وأمام نظراتي الحائرة البلهاء أضافت بما هو أكثر إقناعا «الحارس هو الله...لا يذهب شيء لك فيه نصيب» فأقفلت فمي على الباقي.

وها هي الآن لا تنفك تتحسر تعض أصابع الندم «لو كانت ذهباتي معي لَـ....». «لو أنَّ الله هدانا وأحضرناها معنا لَـ....». بل وراحت تلقي علي باللائمة تتهمني بالإهمال واللامبالاة وعدم تقدير العواقب.

مالنا وللزوجات الغبيات والأكثر غباء لنضرب صفحا عن ذلك ونردد ما قاله السابقون من أنَّ الكوارث لا تأتي فرادى. فقد داهمني نوع مفاجئ من الحمّى عجز جهابذة النطاسيين عن اكتشاف أسبابه فأودعوني المستشفى الذي تكفل بالإجهاز على كل ما كان متبقيا معي حتى آخر قرش.

وقضيت أسبوعا أتمدد على سرير المستشفى في غرفة تطل نافذتها على رقعة من السماء لا تزيد مساحتها عن مترين. فقضيت نهارات ذلك الأسبوع محدقا في تلك الرقعة الزرقاء حتى إذا ما جن الليل رحت أعدّ الخراف الواثبة فوق مياه الجدول من الواحد إلى المئة تتلاطم في رأسي الأحداث والمقولات والتفاصيل والأوهام إذ لم تعد المعايير اللازمة للتمييز بين الصديق والعدو بسيطة ومعقولة كما عهدناها، وصرنا بحاجة إلى الكثير من التحايل على الكلمات والتراكيب للتمييز بين الشقيق والمجرم الذي يقطع علينا الطريق، فوقعنا ضحايا للعبتنا الجهنمية هذه وآل مشروعنا الحضاري كله، في أذهاننا إلى الإخفاق التام، وزادت الحمّى الملعونة من الهلوسات والتشويش والزوابع الذهنية في رأسي، فما إن أزيح صورة مصرع أنديرا غاندي جانبا حتى يظهر لي وجه الهواري بومدين في تقاطعات من اللاترابط تجمع بين تسريحة شعر جو مكارثي ولغز مصرع جون كندي إلى جانب اقتراح أحد الصحفيين بإخصاء الفلسطينيين لحل أزمة تزايد السكان. وفي لحظة بعينها تخايلت نفسي في صورة أيوب الصابر مفكراً أنّه لم يكن لأيوب راتب شهري فقده فجأة ولم يكن يملك سوى بنطلون جينز حائل اللون. هل كان أيوب يهوديا؟ لا يا أدوناي، كان من الغوييم.

تومض الصورة الفكرة في عقلي كالشرارة تعبر كالمقاتلة ف 16 وتختفي بسرعة 2 ماخ تاركة وراءها في أذني ما يشبه الهمس بأن وجه القمر لا يشبه في شيء وجه الأوانج أوتان، فأرد على الهمس بصوت جلي بأن هذه المسألة بالذات هي زعم لا يقوم عليه دليل لأن المقارنة من حيث المبدأ لا تحتاج لكل هذا القدر من النباهة بسبب أنَّ جماعتنا لا يفكرون بطريقة هذا صح وهذا خطأ، وإنّما بأسلوب 4-2-4 خذ وهات، وبتناغم تام مع (إنَّ وأنَّ ولكنَّ وكأنَّ وليت ولو أنَّ).

وهو أسلوب خاسر لأنه ينتهي بـ"هذا لي وذلك لا يعنيني".

وهل تعتبر هذا عيبا؟

يقول بلهجته الحانقة التي عرف بها، فأنفعل صارخا بصوت تجفل له الممرضات بأنّنا صرفنا كل الوقت في محاولة عابثة لإثبات أن.... أن ماذا؟

يزوغ مني الجواب لتحل محله أنّ الخرائط قد تغيرت وتبدلت الحدود وتهاوت أمم بحالها بهاريخها وساندويشاتها مع أنَّ العلاقة ما تزال هي نفسها بين لوح الخشب والمسمار، وأسمع من يقول: مسكين، حمّى أفقدته السيطرة على مثانة عقله. «إعطوه إبرة».

في آخر ليلة في المشفى حلمت بقطع ذهبية تتراقص أمامي في الفراغ تطفو معلقة في سماء الحلم كالهباء وحلمت بصياد سمك يجرّ فرنا من الغاز فوقه صندوق خشبي صغير مطعّم بالنحاس وكان الأمريكي يجمع قطيعا مبعثرا من الأبقار يتأرجح حول حقويه مسدسا الكاوبوي المعروفان. وكان سرج حصانه أحمر اللون يتدلى من مقدمته ذلك الزق الذي لا بد من وجوده والمشغول يدويا من الجلد البني.

وفي آخر يوم لي في المشفى، قطعت على نفسي عهدا بالذهاب إلى رغاليا ومنها إلى الجزيرة مهما كانت الصعاب ودرجة المخاطر، فهناك تركنا كل شيء.

1-مخطوط الرواية التي كنت بدأتها منذ زمن "ليلة الزعفران".

2-والحلي الذهبية، كل ما بقي لنا من الدنيا، في داخل طباخ الغاز المهترئ.

3-وهناك لفة أوراق البردي التي لا تقدر بثمن، وتفوق في أهميتها مخطوطات البحر الميت.

4-وهناك ملابسنا الشتوية وملابس الصغار الذين يرتجفون بردا في وضعنا الجديد.

5-وفوق ذلك كله، هناك جمجمة صاحب الزنج التي اختصني بها صديقي المفقود، انتخبها من رأس التركة.

وفي مساء ذلك اليوم من النقاهة، وبينما كنت أقف أمام البيت حائرا أتأمل في غموض الغروب، اتخذت قراري «سوف أستعيد أشيائي من هناك مهما تكن الأخطار».

كان الصغار يرتجفون من البرد في تلك الساعة من المساء، يتكومون حول بعضهم كالجراء الرضيعة في صالة باردة شبه خالية من الأثاث. ولم يكن يستر أجسادهم غير غلالات من الملابس الصيفية التي فات أوان ارتدائها.

كان تشرين قد داهمنا بأماسيه المثلجة جعلت الصغار يتنافضون كفراخ أبي زريق الزغبية في العش.

وكنت قد لمحت في وقفتي تلك، بعيد الغروب، ما يشبه الوشاح القطبي حول نجم سهيل في الركن الجنوبي الشرقي من قبة السماء.

هدوء مسكّن ولا نهائي ترتجف له الأطراف، فَسَرت في جلدي قشعريرة الخوف الأبوي على الصغار الحالمين بدفء اللقاء بأقرانهم في الحارة.

عندما كنت صغيرا في المعلقة، شاهدت ثعلبة وقعت بين فكي الفخ الرهيبين، سحقها الحديد المسنن وماتت.

وعندما شعرت جراؤها بأنها تأخرت عن موعد عودها كثيرا، راحت تبرز مخاطمها من فم الوجار تتشمم رائحة الأم، ثم بدأت تخرج واحداً واحداً، ثلاثة أو أربعة جراء تتناوص وتموء وتتشمم الجهات تتساءل بغريزتها العمياء عما حدث للأم التي تأخرت كثيرا. تدور حول بعضها ثم تتوقف وتحدق بعيدا ثم تعود للمواء والصوصأة، بما هو أشد مرارة من البكاء، تنادي الأم. كانت وجوهها المتسائلة الحائرة شيئا موجعا يصعب قوله بالكلام.

تدخل الوكر ثم تعاود الخروج تسأل الأفق. يومها اختزل العالم في داخلي بكلمة واحدة "الرحمة". تحوّل كله إلى صورة جرو رضيع يسأل الغروب: أين أمي.

لم يكن أطفالي بأفضل حالا من تلك الجراء، فلم يكونوا يتوقفون عن مطاردتي بالسؤال: متى نعود إلى بيتنا؟ ولم يكونوا يتوقفون عن تذكر أقرانهم واحدا واحدا وواحدة واحدة بأسمائهم صبيانا وبنات.

وقعت الثعلبة في الفخ وهات يا حزن الجراء! ففي مثل هذا الوقت من كل عام، نكون قد عدنا من الإجازات حيث مهرجانات الطفولة في الحارة أمام البيوت.

خلافاتهم الصغيرة وأحلام طفولتهم، حيلهم وتلاعباتهم، تحالف الكبار ضد الصغار، ترفع البنات عن قذارات الأولاد، مطاردة القطط واختطاف الحلوى وشد الشعر والتأخر عن أداء الواجبات المدرسية، خلية من النحل لا تهدأ إلا بعد أن تخرج الأمهات كل واحدة تجرّ أطفالها جرّا إلى الاستحمام. شعور متشعثة، وكدمات وأنوف محمرّة، وخطوط من العرق فوق الجبين، ملابس ملطخة... و... ماذا بجبينك يا ولدي.. ما هذا الجرح؟

كانوا جميعهم يعتبرونني بمثابة الأب حلال المشاكل، لا تسألوني كيف أو لماذا، فأنا نفسي لا أعرف.

كنت أشعر أنّني تعافيت تماما فأعلنت قراري.

-غدا سأسافر.

-الله معك ترجع لنا بالسلامة، قالت الزوجة بإخلاص منتزع من واقع الحال.

-أيقظيني في الرابعة صباحا، قلت فيما أنا أتأمل وجوه الصغار الصامتين فرأيت طيف أسى الجراء يطل من الوجوه الصغيرة وهي تحاول التكتم على ما يعتمل في النفوس من ألم. كانوا صامتين لشعورهم بأن مجرد النطق بالواقع سوف يفتح الباب على الوجع. وأخيرا كسر تموز الحاجز وفجّر القنبلة «بابا سلم لي على مروح» فاندفعت عائدة وفلسطين «وأنا كمان سلّم لي على عيذاب وبوسها... ومريم كمان.. و..». كلام بسيط فيه رجاء يشبه النحيب.

رب لمسة طفولة عفوية ينتشر ألمها باتساع رواية.

أحسست بهم يبكون أمام جثة أمل ميت، استخرجوه من القبر وراحوا يرجونه أن يعود إلى الحياة، قبل أن يعاودوا دفنه من جديد.

كانت محاولاتهم في التكتم على الحزن هي الحزن نفسه، وكانت كلماتهم البسيطة تلك هي البكاء نفسه.

* * *

رنّت ساعتي البيولوجية في تمام الرابعة صباحا، فانتفضت.

قمت من نومي وافر النشاط.

وكانت أم العيال قد سبقتني إلى الاستيقاظ وأعدت لي بيضتين مسلوقتين زادا لرحلتي، وضعتهما في كيس مع رغيفين، فيما كنت أغسل وجهي بالماء البارد و... يا رب يا كريم-ترجع بالسلامة.

لم تشتغل السيارة مع ضربة (السلف) الأولى تشاءمت، فهذا أمر لم يحدث لي من قبل قط.

ومع النقرة الثانية هدر المحرك، وانطلقت.

فيات أرجنتا سعة ألفي سي سي بمكيف هواء معطل ولون بيج وسرعة هائلة.

كان صباحا باردا، ساكنا والبيوت هامدة ساهمة، تنتظر اليوم الجديد.

ضغطت على البنزين فقفز العداد: تسعون، مئة، مئة وعشرون.

عيناي مثبتتان بإحكام على الطريق الممتد إلى ما لا نهاية بينما الأشياء على الجانبين-كلّها كانت تسيل وتنساب متراجعة إلى الوراء. النظرية النسبية. كالشمس بالنسبة إلى الأرض. خنقوا كل صوت جميل، كل أسطوري حتى الطيور "حطموهم".

انتهى زمن المعارضة، ولتضعوا نصب أعينكم أن الأرصدة لا تتأتى من قيمنا كمحسنين، قيمنا تأتي من تحويل كل شيء إلى ربح. نعم نعم وتجارة الموت أيضا. سيطروا على أدمغتهم نوّموهم بكل ما توصل إليه العلم في تجاربكم على العقل.

استخدموهم كقنابل بشرية يفجرون أنفسهم في بعضهم بعضا. وإلا فما فائدة هذه المليارات التي تصرف على التجارب؟

وهات-المجد لله في الأعالي-دليلك على ما تقول. قانون تكتبه الهراوات، ومعلومات أساسها الكذب، نظام تبادل الحماية بين القرش والهراوة وكل في فلك يسبحون.

لو أنَّ أحدهم يسوق ورائي بسرعة 120 لكانت سرعتي بالنسبة إليه صفرا. أما القادم المقابل على سرعة 120 فسوف يمرق كالسهم بسرعة 240،اينشتين، السرّ كامنٌ في تركيب الجينات.

وراثة العرق قدر لا مفر منه مثلما يقول صاحب النظارات الدائرية ذاك. روايته مذهلة. له وجه يومئ بالوداعة، شاربه الكث وعيناه الذكيتان وشعره الأهوج، عبقرية وضعها الله في رأسه مثلما وضع الرمال في هذا المكان.

جنس ماكر، ومكروا ومكر الله. سخرية التناص. هذه ليست كتلك. وهذا الثاني ليس كالأول. صاحب النظرية وصاحب الرواية... انتبه للطريق!!

في رأسه 180 أي كيو وفي رأسك حذاء نمرة 42 انتبه للطريق.

كان العداد يشير إلى سرعة 140، وكانت الشمس عمودية عندما وصلت إلى أول نقطة حدود.

كانت مدينة تبرز بيوتها، كالتآليل على وجه الصحراء. ترابية اللون تمتد أفقيا وتنتشر مثل رقاقة من الطين تركت هناك لتجف.

المدن كالرموز والبيوت إشارات دالّة على روح الجغرافيا، أنفاس التاريخ نقش مرقوم على صفحة حجر.

هذه المدينة شيء مغلق. أصم. يأس تجلى في بثور ونتوءات على وجه الصحراء. من عادة المدن عندما يطل عليها المسافر من بعيد، أن تعرض نفسها كأنثى تدعوه للاكتشاف، مثل نص ميثولوجي خالص.

كنت أقرأ في وجوه المدن ذلك الترحيب الباسم مفتوحا على آفاق السفر، هذه مدينة لا سبيل إلى فك رموزها، إرم ذات العماد، طلسم، ولا شيء غير الصمت.

كانت درجة الحرارة تقل عن المعدل العام لجهنم بدرجتين اثنتين فقط. وكانت السيارات التي ينتظر أصحابها تخليص معاملاتهم تمتد صفوفا لا نهاية لها. مجرد مرور لا يستغرق غير ثوان على الحدود بين دول أوروبا، الأمر هنا مختلف. ولما كنت في عداد آخر الواصلين، فقد كان أملي بإنهاء إجراءات العبور بسرعة ينطوي على الكثير من الاستخفاف والطيش.

وهكذا رحت أتذرع بالصبر، في انتظار وصولي إلى الدور.

وركنت سيارتي في بقعة من الظل بحجم الرغيف، إلى جانب الرصيف، حيث كانت هناك شجرة هزيلة، زهدت هي الأخرى بهذه الدنيا الرذيلة، فتخلت عن الخضرة والأوراق مما تستتر به الأغصان في سائر الآفاق، ولم يبقَ عليها سوى وريقات بارمة صفراء، تصارع من أجل البقاء.

تحت تلك الشجرة قرأت سورة الفلق وحمدت الله على تلك النعمة، وقررت الانتظار هناك إلى أن يقضي ربك أمرا كان مفعولا.

وفيما كنت أجاهد لانتزاع نفسي من المقعد الذي التصقت به مؤخرتي لشدة الحر، جاءني أحد المكلفين بالأمن، بجسم سقيم، كالخارج توا من الرقيم، فبدا لي أنهم استعاروه من العرب العاربة، ضمن ما أخذوه من مربوطة وسائبة، فأيقظ في نفسي رغبات قديمة بالسخرية، بالقدر الذي تنحيه اللغة من التورية.

خفّ نحوي مهرولاً،يهددني محتقن الوجه بالغضب، كأنني أبو لهب، وكانت تبرز من تحت ثوبه الترابي القصير،ساقان عجراوان معوجتان تعيدان إلى الذاكرة الأطراف الخلفية للأتان. وكان يهز في يمناه خيزرانة بدا أنّ له فيها مآرب شديدة الوضوح، فيما يتعلق بالممنوع والمسموح:

-لا تخرج عن الخط.

قال وهو يرمقني بنظرة حولاء، محملة بكل معاني الازدراء، فقلت:

-عفوا، أنا لا أفهم ما تريد من وراء كل هذا الوعيد!

فخبط مقدمة السيارة بعصاه وقد بلغ به الجبروت منتهاه. وقال بصوت أقرب إلى الثغاء منه إلى صوت البشر الأسوياء:

-أقول لك لا تخرج عن الخط، ضع بهيمتك هناك، مشيرا إلى آخر القافلة، فقلت:

-يا أخا العرب، إنك والله لأكرم من أمير، وأحنّ على الضعفاء أمثالنا من البعير، لك والله سطوة كسطوة عنترة في هذه المشية المتبخترة، حتى لكأنك المقصود بقولهم "واثق الخطوة يمشي ملكا"،

رعاك الله وخلاك وطوّل عمرك وأبقاك، جئت يا سيد القوم كما ترى، ألتمس شيئاً من الظل و...

فقاطعني بصيحة كثغاء السخل، لا مجال وراءها لمزيد من القول.

-دع عنك الظل، قف هناك في آخر السرى شأن سائر المكلفين من الورى.

لم أجد أمامي غير أن أصدع للأمر أعاني صبرا أحرّ من الجمر.

وهكذا نهرت بهيمتي وتوجهت إلى حيث أشار في آخر طابور الانتظار.

وكانت الشمس السادة تصهر دماغ الضب كأنما حلّت على المكان لعنة الرب.

وبعد ساعتين مريرتين وصلت إلى نافذة تقديم الجوازات وهناك سألوني:

-إلى أين يا أخا العرب؟

-إلى رغاليا طال عمرك.

-ولماذا إلى رغاليا يا منكود الحظ؟

-لأنني عاري الدبر كما ترى، سأحاول إنقاذ ما تبقى لي من متاع الدنيا الفانية، الملابس وأشياء أخرى طال عمرك.

حدّق العسكري في وجهي مليّا ثم انفجر بالضحك وقذف الجواز في وجهي.

وكانت عبارة الترحيب المكتوبة على طول الجدار بالخط الكوفي الجميل تقول "مرحبا بكم، سوء المعاملة هي امتياز قومي قلما يحظى به سوانا من الأمم".

ملأت خزان السيارة بالوقود، وانطلقت لا ألوي على شيء كما يقولون، وفتحت الراديو ففاض صوت فريد الأطرش يحملني على أمواج سحرية، ويداوي الروح بتلك النشوة المخدّرة، يغري بالاستماع ويقرّب إلى الإحساس بالقداسة "غالي يا بوي والله عليّ..." صوت مليء بالبوح.

وهو نفس البوح الذي كان يساور غيلان وهو يطوف بربع ميّة معمورا في تلك الليلة الصحراوية المقمرة، مهمل الثياب، مشعّث الشعر يضرب على ربابته "يا ميُّ ما أنت إلا...." عندما يقطع غناءه طرّاق الليل يعبرون على خيولهم خبباً: المتلمس، ومعه ابن أخته طرفة بن العبد على قلوصة السوداء، يليهما امرؤ القيس على فرسه الكميت، ثم لبيد بمخلاته في عنقه يغذّ الخطى كأنه يحجل، ثم الشنفرى طعيناً يؤلب الليل على شيوخ القبائل بشعر تردده كثبان السوافي كالضباح، وهو نفس البوح في حكايات الرّحالة الصالح ابن جبير وأنفاس المتنبي الحرّى ساهرا يحلم بالإمارة وفي عيون النساجين والوراقين والناسخين والوقادين وأصحاب الكدية في بغداد المنصور والسهارى من باب توما إلى الغوطة في دمشق، وفي ليل المرمودين والموجوعين والمقهورين والأسرى والضارعين والجرحى والناجين من المذبحة في عين وردة.

في عين الوردة لم ينج أحد من التوابين الأربعة آلاف الذين خرجوا يطالبون بدم الحسين حفيد النبي...آه يا سليمان بن صرد.. آيا بوووي، غالي يا بوي والله....

يوم سافرت إلى رغاليا طلبا للرزق قبل خمس عشرة مجزرة حذرتني من الاغتراب آآ يا بوووي: قلت لي يومها: إنها تشبه بيت العنكبوت، يبدو جميلا أخاذاً في عين الفراشة، فحذار من عيون الفراشات يا ولدي.

انتهت الأغنية فتركت الراديو لحاله يصف كما يشاء وصول الإمدادات والحشود إلى رغاليا، خمس حاملات للطائرات وثلاثون طرادا وعشرون مدمّرة وعشر غواصات نووية ومئات الآلاف من المارينز والقوات الجوية والقوات الخاصة والمشاة والدروع.

بذخ تعبوي يجعل الواحد شديد الثقة بمستقبل الأجيال القادمة، وثقة تصل حدود الزهو وفقد الاتزان.. يا إلهي!! أكلّ هذا من أجل... من أجل ماذا؟ وتذكرت صديقي الذي كثيرا ما يقفز إلى رأسي فجأة دون مقدمات.

قفز فجأة وقال «من أجل تيسير» فصرفته بسرعة «اغرب عن وجهي فأنا أسوق بسرعة 120 الآن»، ولكن روايته "الخميرة" احتلّت مكانة في تلافيف دماغي.

بدأت بإعمال العقل عساني أعثر على جملة مفتاحية ينبهر لوقعها القارئ فوجدت السجع يطاردني بإلحاح مقيت، اللعنة على السجع وما فيه من الافتعال، ثم إن المبالغات لا تصنع رواية ولا تعني شيئا كثيرا. قد يذهب بعضهم لتعداد أصناف الطعام أمام بطل الرواية و... نحّ عنك ذلك جانبا وتنبه للعداد، فقد تجاوزت سرعة المئة والأربعين، وهذا شيء لا يقنع أحدا لا بد من إرواء هذا الظمأ الحكائي الغامض الذي تفتر أمام إرادته رغبتك في العيش.

الرواية!! يا لها من رحلة عجيبة يغامر بها أفاقون على شاكلة خير الدين بن زَرَد.

تتحدث قصاصات "الخميرة" عن ذات هلامية رخوة يشير إليها صاحبي رحّال بالضمير (هو) ضمير الغائب المفرد.

ولدى التأمل في هذا الـ (هو) أجد شخصيته تزداد غموضا كلما اقتربت منها، صحيح أنه يبدو أحيانا صريحا في مجاهراته بانعدام الشرف والمروءة، يعرف كل الأسماء وكل العناوين وكل المواعيد وكل الاحتياجات والرغبات والأحلام وأسعار الخضروات، ويستطيع أن يجعلك تربح في اليانصيب في السحب النهائي أمام المشاهدين أو تخسر حياتك «ضعوا حدا لهؤلاء» يقول مشيرا بكفه فتتحول رغبته فورا إلى إجراءات ميدانية فتغشى العيون، وتتضاعف حوادث الطرق، وتتفشى السرقات، وتنخفض أسعار الأسهم، وتخرج القحبات من مخابئها تتسلى بحل الكلمات المتقاطعة على جوانب الطرقات، فتظن للوهلة الأولى بأنَّ "الخميرة" تتحدث عن شخص يختفي في الظلام، يحرك الخيوط ويضحك.

وعندما تستمر في قراءة القصاصات تكتشف أنّ المقصود (هو) الحظ لا غيره، وتواصل القراءة لتعثر من جديد على ما يعزز الاعتقاد بأن المقصود هو مجرد (الصدفة).

وأحيانا كنت أجد ما يذهب بي إلى الميل بأنه يشير بهذا الـ(هو) إلى قوة عالمية سرية، شيطانية، وكلية القدرة، تتحكم بحياة الناس على هذا الكوكب.

وذات لحظة يأس مرّ بخاطري النفط، وشركات المضاربة في أسواق المال، وإمبراطوريات الإعلام الكبرى، والماسونية بل وحتى مرض الإيدز.

وعند هذا الحد أتوقف وأقذف بجميع الأوراق يائساً.

ولكنني سرعان ما أتدارك حالة اليأس وأقول لنفسي بهدوء متمثلاً بالحكمة القائلة «إذا أردت أن تعرف ما يوجد خارج السور فتعال ننظر ما يحدث خارج السور» وهنا يعاودني همس صديقي

يتمثل بقول الإمام علي «ليس من طلب الحق فأخطأ مثل من طلب الباطل فأصاب».

وهنا تزداد حيرتي

«إنك تضيّق علي مجال الرؤية يا صديقي، وتزيد عالم الرواية ضيقاً على ضيق، فالأسئلة ما تزال تصطدم بالجدران وتتساقط ميتة تحت قدميّ.

* * *

كنت في تلك الأثناء قد قطعت ما يزيد على الأربعمئة ميل عندما لاحت أمامي محطة وقود يلتصق بها ما يشبه مطعما، شيء يشبه محطات القوافل.

نزلتُ من السيّارة، أعطيها فرصة لتبرد وتتزوّد بالوقود، ودلفت إلى المطعم أمنّي النفس بكأس من الشاي والماء البارد. فقدّموا لي إبريقاً مع قدح من الفخّار يشبه القدح الذي أستخدمه في البيت.

صببت كمية من الشاي في القدح متأملاً هذا الأفعوان الجميل من السائل الداكن ينساب من المنبع إلى المصبّ دون عوائق تحدّ من قدرته الخارقة على التشكّل بحسب الوعاء في انسجام حقيقي بين الحيّز والشكل الذي يتخذه السائل لا أثر فيه للإكراه أو الاحتيال أو المراوغة.

تجربة الشاي مع القدح، عميقة بدرجة تستحقّ أن يخوض المرء غمارها لا أن نحرم أنفسنا من متعة الكشف بإهمالنا المعتاد. فثمّة ما يحتجب دائماً وراء ما نراه. ومعرفة ما يجري خارج السور تستلزم التسلّق والنظر إلى ما يحدث خارج السور.

كنت أمسك بقدحي الفخاري بين يديّ، أديره بأصابعي العشرة أمام وجهي، أحدّق في محيطه فأرى أنّني بإزاء دائرة شيطانية مغلقة لا سبيل إلى الخروج منها. تدور بين أصابعي وتدور وتتركّز فيها حواسّي. فباغتني السؤال فيما إذا كنت أعاني حالة من المسّ تهيّئ لي أوصافاً تتشيّأ من العدم وتتراءى كموجودات حقيقية. وقفز إلى ذهني ما قاله صديقي ذات يوم من أنّه كلّما شاهد كتلة من الغرانيت (شاهدتها على شاشة التلفزيون في صدر المطعم) تتدلّى من جرف، تراءت له في داخلها منحوتة لرأس الزعيم جمال عبد الناصر، أو صدّام حسين. ثمّ راح يشرح نظريّة الخلق اليونانيّة عند إخوان الصفا حول ما يسمّونه الوجود بالقوّة والوجود بالفعل حتّى ليكاد يخرجني عن طوري مثلما يحدث معي الآن عندما شدّ انتباهي ذلك المنافق الذي لم تتح لي فرصة كراهيته بشكل عملاني يطل من الشاشة بعنقه المعروق ووقاره الزائف وطاقيته، يصلّي لله ركعتين ويروي كيف دخل إبليس في بطن الأفعى لكي يصل إلى حواء الجنة ويغويها بتجربة الثمرة المحرّمة.

ساعتها تمنّيت لو أنّني كنت الآن في بيتي لأتصرّف بحريّة يتأبّاها الذوق، ثمّ أتوجّه بعدها راضياً للبحث في لسان العرب عن معنى كلمة "تلفيق". وأعود إلى مقعدي وقد عرفت معنى كلمة "تزلّف" أيضاً التي يتقنها هذا الأرعن عندما يؤذي المؤمنين الصادقين شاكراً لابن منظور هذه الإحاطة بلسان العرب في إمبراطوريتهم الممتدّة من الصين حتّى الأطلسي. رجلٌ واحدٌ وحيدٌ فرض نفسه على لغة بهذا الحجم وقيّدها بما يجوز وما لا يجوز. مثله في ذلك مثل ذلك الفارسي سيبويه الذي قنّن لنا قواعد نحونا العربيّ وألزم به العقول إلى يوم القيامة. فالحمد لله الحمد لله اهدأ يا هذا اهدأ فإنّ استمرار المأساة يفقدها مرارة معاناتها. واعترف أمام نفسك أنّ هذه الأفكار العشوائية المجنونة التي لا يربط بين نتفها رابط هي من نتائج الحمّى أو نتيجة الإنهاك الناتج عن قيادة السيّارة لأربع عشرة ساعة متواصلة. ولكن، على وجه العموم، سوف يظلّ الحصان حصاناً سواء

أكان مربوطاً في الدار البيضاء أو (رغم أنف سيبويه) في البصرة، اللهمّ إلا إذا جدَّ ما ينقض هذه الظاهرة.

كان الإنهاك قد بلغ حدوده القصوى عندما لاحت المدينة التالية تتراقص أضواؤها كالسراب.

وفي فندق من الدرجة العاشرة تناولت المتاح من عشاء: خيارة واحدة بحجم اليقطينة، وحبّة بندورة مع رغيف جاف وزجاجة بيرة.

وبعد العشاء ألقيت بجثّتي على السرير بكامل ملابسي وغرقت في النوم دون أحلام مقيتة.

وفي حدود الرابعة فجراً رنّت ساعتي البيولوجية، شيء ما يوقظني في الموعد بالضبط، كثيراً ما فكّرت بهذه المسألة أيضاً. نوع من العزاءْ. على الأقلّ هناك ما هو مضبوط في خضمّ هذا العطب العام.

كان الحمّام مجرّد أنبوب (نصف إنش) دون رشاش، يتدلّى من السقف رأسياً ويتدفّق منه الماء.

انتعشت بتدفّق الماء فوق رأسي وجسمي الذي كان يفوح برائحة تشبه الخلّ. نشّفت نفسي بملحفة السرير، وكان إحساسي بالذنب في حدود المعقول. فما هي فائدة التظاهر بالوقار، في عالم من المسخرة؟ لا ترى فيه على وجوه بعض ذوي الفضيلة إلا أقنعة المهرّجين.

لم يعد القميص يلتصق بظهري وإن ظلّ يباس الأقمشة الذي خلّفه جفاف العرق ما يزال موجوداً.

ولدى خروجي من باب الفندق تشمّمت الجوّ فوجدته صافياً يشجّع على الانطلاق. كانت المدينة تتفتّح كالوردة تستعيد آخر أحلامها عندما اقتحمت الإشارة الحمراء، وكان العالم ما يزال نائماً في لارنكا وأثينا ونابولي ونيس ولشبونة عندما عبرت الجسر متمهلاً، أمتّع النظر في النهر الذي كان يحثّ الخطى منحدراً لكي يصل في موعده إلى البحر.

كان هو الصاحي الوحيد في هذا المدى الواسع. فالتفت صوبي مثلما يلتقي غريبان، يتفحّصني بفضول بريء شأن جميع الأطفال المتعثّرين بأوّل الكلام.

فبدا نادياً، عفياً، مثل امرأة خرجت توّاً من الاستحمام. والهاً، مطمئناً لعدم مسؤوليته عن الخطأ الذي حدث. وكان في استرساله الروحاني/ الشعري معافى تماماً ممّا أعانيه من ذهان. يواصل كتابة نفسه بتلقائية نزار قباني حين يكتمل عنده العشق، فداخلني ما يشبه اليقين، بأنَّ الأنهار لا تعرف الكذب!

حاذيته فحاذاني. ابتسمت له فابتسم لي. وتحدّثنا حديث العابرين:

-صباح الخير أيّها النهر.

-صباح الخير أيّها الفتى.

-إلى أين أنت ذاهب يا سيّدي؟

-إلى حيث تقودني خطاي... وأنت؟

-إلى حيث لا بدّ من إنجاز ما لا بدّ من إنجازه.

-أأنت ذاهب إلى الموت؟! سأل بذعر.

-لا، بل إلى الحياة يا سيدي.

-ما الذي ينتظرك هناك؟

-عصافير وحكايات ورسائل وأشياء أخرى.

-أتسافر وحدك؟

-بل معي ذكرياتي وقلقي...

-أتمنى لك السلامة أيّها الفتى.

-بالسلامة يا سيدي النهر.

ثمّ تصافحنا. فمال هو إلى اليمين، وانحرفت أنا إلى اليسار. فبدا لي مثل من يريد أن يقول شيئا، وهو يسرع مبتعداً كأنّه يريد أن يوصيني.فأخرجت له ذراعي بطولها من الشباك ملوّحاً، وصحت بأعلى صوتي:

-إلى اللقاء يا سيد العطاء العظيم. إلى اللقاء يا شاعرنا الخالد.

وبسبب من سرعة اندفاع السيارة لم أتمكّن من سماع ما ردّ به عليّ، ولكنّه كان يلوّح لي بدوره ويقول أشياءه ويبتسم.

لكَم أحببت هذا النهر. هذا الفارس العظيم. يداه مخضّلتان بالغناء.

لم تمض ساعة أو بعض ساعة حتّى بدأت الأشياء تستعيد أشكالها من مستودع الفجر... «أبو الأمانات يا ليل». قلت لليل الهارب: يا ليل... ولكنّه لم يعبأ بي. فظللت مع أغنية يا ليل يا ليل إلى أن اختفى. كانت أسراب الطيور قد أفاقت وراحت تبحث عن رزقها. رفوف من القطا واليمام والحجل والزرازير. فاستيقظت البلادة المهنية في عقلي فانبرت له الروح توبّخه على الابتذال الرخيص. وسرعان ما خنس العقل شاعراً بالخزي وتكوّر حول نفسه.

لن أستمرّ بهذا الهذيان طوال الألف ميل المتبقية للوصول. سأختصر. وها أنا أدخل إلى رُغاليا أخيراً.

في منتصف الشارع المحاذي للبحر استوقفني العسكر:

-إلى أين؟

-إلى الجزيرة.

-وما هي الجزيرة هذه؟

-جزيرة... إنّها جزيرة هكذا. وأشرت بيدي صوب البحر.

-هذه أكذوبة كبرى.

-ولماذا؟ ألأنّك لا تراها؟

-وهل تذهب إليها بهذه السيارة؟

-لا، فهذه لا تمشي على الماء. على الشارع فقط.

كانت أسئلة من النوع (الغبيالودود) الذي لا يخفي وراءه أيّة نوايا سيئة أو عدوانية، فشجعني ذلك على الردّ بودّ مقابل:

-نذهب بالعبّارة، وهي سفن تحمل الركاب وتحمل السيارات أيضاً.

-فهمت. هل معك سجائر.

-آسف. أنا أدخّن الغليون. فإذا كان معكم ورق لفّ أعطيك شيئاً من الطباق.

-وما هو الطباق؟

-تتن... دخان.

فتكلّم الجندي الآخر الذي ظلّ على بعد خطوات يتابع ما يجري بفضول وقال:

-أنا معي دفتر بافرا.

فأخرجت كيس التبغ واغترزت بأصابعي لهوة من التتن قدّمتها لهم. فأخذوها شاكرين يدعون لي برحلة موفقة.

كان الوقت قبيل الظهر عندما وصلت رغاليا. فراحت تعرض حطامها من كلّ شيء: مئات من الآليات المهجورة تركها أصحابها فظلّت هناك محطومة أو نصف معطوبة. تهبط على نفسها ويتخذ بعضها أوضاعاً شديدة الغرابة. مقلوبة أو تقف على جانبها أو مركونة بلا عجلات. بيوت بأسوار متهاوية وطرقات مهجورة وصمت.

سحب الحرب وقعقعة السلاح دفعت الكثيرين منذ البدء إلى الهروب إلى الأرياف والأماكن البعيدة والبلاد المجاورة. وسرعان ما دبّ الذعر بين الآخرين فراحوا يفرّون تباعا ناجين بأرواحهم. أنا نفسي لم أعد إلى هنا إلا لكي أغادرها نهائيا. ألتقط ما جئت من أجله وأنجو بجلدي بالسرعة الممكنة.

على يميني شجرة هابطة فوق ظلّها كعباءة سوداء تقرفص لقضاء الحاجة. وعلى اليسار بضع شجيرات بينها شجرة نخيل تدلت سعفاتها بسكون يزيد الصمت عمقاً. حتّى نسائم الهواء غادرت أو أخلدت إلى مهابّها وأغلقت على نفسها المنافذ وسكنت. أمامي جهة اليمين ثمّة أكداس من الصناديق والبراميل تُركت عند أحد التقاطعات، يليها تلتان من القمامة ثمّ ثلاث أخرى ينبعث منها الدخان الأزرق في تموّجات بطيئة تمتدّ وراءها جدران رصاصية داكنة تتلقّى أشعة الشمس بصبر الأسوار المعهود، تبرز من خلفها البيوت مكفهرّة يعلوها غبار الهجر ليس فيها ما يُشير إلى وجود حياة.

وعند التقاطع التالي وقفت شاحنة ضخمة تمزّقت إطاراتها الأمامية فانكفأت على مقدّمتها، تليها على بعد أمتار عرمة من الرمل بارتفاع مترين لا بدّ أن يكون قد أفرغها قلاب أحمر يسوقه رجل محروق الوجه غاضب غضباً مزمناً لا نفع فيه. ففرح عند انهيار رغاليا.

وراء العرمة وعلى مسافة سؤالين وإشارة تعجّب ثمّة ورشة مهجورة: خيمتان وصفٌّ من البراميل مطلية باللون الأزرق الفاقع ينتهي آخرها عند آلة للحفر معطّلة نزفت زيتها ووقودها في خطّ أسود يمتدّ أمتاراً إلى أوّل كدس من الخشب الذي تناثر أكواماً متباعدة لا انتظام فيها أُلقي فيما بينها من فراغات كلّ ما يخطر بالبال من معدّات وآلات تالفة وحبال حديدية وقضبان وأنابيب وأوتاد

وغالونات بلاستيكية فارغة تدحرج بعضها إلى جانب الكثير من العدد والمستلزمات التي تستخدم يدوياً تركها العمّال تتناثر في جنبات المكان وغادروا.

يلي ذلك برجٌ حديدي بارتفاع عشرين قدماً تحته حوضٌ تبرز من جوانبه أنابيب ضخمة تمتدّ جانبياً كجيب تصل إلى برج آخر أقلّ ارتفاعاً تتدلّى منه حبالٌ حديدية مجدولة مبرومة تلتفّ على بعضها وتتعلّق ببعضها بكرات حديدية مدلاة، ترى على بعد متر منها آثار حريق ورماد أسود لم تذره الرياح، مفروش على الأرض كالبساط ينتهي عند الطرف البعيد من الورشة حيث يقوم خزان ماء أسطواني سعة أربعة آلاف غالون إنجليزي يعلو برجاً تناثرت من حوله أكياس الإسمنت وحمولة شاحنة أو اثنتين من الطابوق الجيري الأبيض مسفوط على شكل هرم لم تمسّه يد بسوء.

تقدّمت في أطراف المدينة. كانت جثّة هائلة من الإسمنت الساكن. لا يمكن لهذا العبث إلا أن يكون جنوناً سيريالياً. واقع لشدّة سطوعه لا يبدو معقولاً. ولمحت شاباً بقميص أحمر وشعر سبط يحمل كيساً من الورق ويسير مطأطئ الرأس بمحاذاة سور يكاد يلتصق به طلباً للحماية من خطرٍ ما ويبدو عليه كمن ينصت لأصوات سريّة. أمام الشاب عمود كهرباء مكسور ينحني فوق المدخل عند نهاية السور، حيث صفّ من البيوت مغلقة النوافذ، تهبّ من جهتها روائح موادّ عطنة تراكمت في المساحات الفارغة بين البيوت. ولفت انتباهي نافذتان محطّمتان تهدّد إطاراتهما المخلعة بالسقوط في أيّة لحظة يليهما مباشرة بناء اكتسى نصفه العلوي بسخام الحريق.

قلب المدينة لم يكن يختلف في شيء عن الأطراف.

نفايات، وصفائح فارغة، وجدران متآكلة، ومواعين بلاستيكية من النوع الذي يجري التخلّص منه أولاً بأوّل، أوراق صحف متطايرة، وأبواب مغلقة، وتلال من النفايات. ما هو أسوأ من الموت استعراض الموات. بدأت اشعر بوجود عيون فضولية تراقبني من وراء النوافذ المغلقة.

صمتٌ يشبه الرهاب. وشيء ينقض من بعيد يشبه المذنّب. توغّلت في المدينة ودخلت الأحياء السكنية بشوارعها الفرعية أتفقد بيوت الأصدقاء، عسى أن أعثر على من لم يستطع المغادرة بعد. فشاهدت هنا وهناك عدداً ممّن تقطّعت بهم السبل ولم يستطيعوا المغادرة لضيق ذات اليد، أو ممّن أقعدهم التردّد والحيرة وانتظار فرج لا يعرفون من أين يأتي، فظلّوا يتضوّرون هناك. واحد هنا وآخر هناك، ينهشهم القلق متشبّثين بوجودهم بكلّ العجز والحيرة الممكنين. يتلفّتون حولهم كالمأخوذين.

لم أكن لأتصوّر رحيل الناس على هذه الدرجة من الرحيل.

كان وجود هؤلاء القلّة المتبقية من الحيارى أشدّ فظاعة على نفسي من رحيل الآخرين. عجزوا حتّى عن الفرار.

على بعد مئة متر ظهر شبح رجل عند الناصية ثمّ اختفى وغاب بين البيوت. لا شيء سوى ظلال البنايات يغطّي الشارع. ظلال مخيفة بالفعل لم أعتد على رؤيتها من قبل. وكان الوقت عصراً حيث الوقت بلا معنى مجرّد ظلال كالأشباح تغطّي المساحات الخاوية بين البيوت. دبيب الخوف يكاد يكون مسموعاً في الزوايا والأركان كأنّه الاحتضار.

داخلني خوفٌ حقيقي. فللخوف حضور يمكن سماعه عبر خطواته الخفيّة ووطء قدميه الثقيل.

دخلت الشارع الذي كان يسكنه بعض الأصدقاء. ثمّة ملعب ترابي من تلك التي تنتشر في الأحياء الشعبية، تليه مدرسة للبنات، فمجموعة من العمارات السكنية تحدّق في الساحة الخالية. أوقفت السيارة في منتصف الشارع بين البنايات الخاوية وأطلقت نفير السيّارة بأقصى ما أستطيع.

كان كالعويل. تلاشى ليعقبه صمت أشدّ.

تخيّلت من يطلّ من إحدى الشرفات صارخاً في وجهي، ولكن الشرفات ظلّت ساكنة، والنوافذ مغلقة مثل عيون أسبلت على الألم، وصوّر لي خيالي طفلة تندفع وراء كرتها المقذوفة خطأ في الشارع، وخيّل لي بالفعل أنّني أسمع صرخة استغاثة تنطلق من مكان ما. ارتفع وجيب قلبي، كانت الصرخة حقيقية، ولكنّها سرعان ما تاهت في قيعان الصمت. وظلّت الشرفات على صمتها وذهولها. ففكّرت أنّ سكان هذه الحارة قد غادروا عن بكرة أبيهم، آثارهم منظورة في الطريق وفي الزوايا والأركان: صناديق كرتونية زادت عن الحاجة، لعبة بلاستيكية متسخة بذراع واحدة تخلت عنها الصغيرة وهي تقرأ النازلة في وجوه الكبار، بقايا أثاث محطم، آلاف الأشياء التي تلفظها البيوت غداة رحيل أصحابها.

مررت بدكان كنت أعرفه فكان خاليا إلا من الرفوف الفارغة ثم بمطعم الصقر المزدحم أبدا في مثل هذا الوقت فكان فارغا من كل شيء، ثلاجة فضية بعرض الجدار تخلّع بابها مع رف داخلي مائل حاول أحدهم انتزاعه ثم عدل عن رأيه في اللحظة الأخيرة فظل معلقا هناك، طاولة معدنية مثبتة في الأرض ما تزال في مكانها يكتسي سطحها بطبقة سميكة من الغبار. ثم مررت بالمكتبة الحديثة التي كان يتناوب على إدارتها صاحبها الأعرج وزوجته المغناج، ثم باب محل التصوير شديد الضيق والأناقة فبقالة العربي التي كانت تثير سخط العابرين بصناديقها التي كانت تزحم الرصيف، ومن وسط هذا الحطام الشامل ظهر أمامي فجأة.

كان يجلس على كرسي ذي قوائم حديدية قصيرة أمام دكانه، ويحدق مبتسما للفراغ.

لم تكن ابتسامة ترحيب أو حبور. لن أنسى ما حييت تلك الابتسامة: فجائعية مجلوبة من أقاصي تخوم النواح. انطبعت على وجه، عاجز، مشلول التفكير، مبذولة للفراغ،للا شيء عاجزة وبلهاء ولا نصادفها إلا على وجوه من عجزوا عن البكاء.

كان يبتسم، فأجفل عندما حييته.

ولكنه سرعان ما تمالك نفسه فانمحت الابتسامة الغيبوبية تلك.

كان باب الدكان مفتوحا على مصراعيه تتناثر في جنباته أقفاص للعصافير. أقفاص حقيقية من الأسلاك الرمادية الرفيعة من جميع الأشكال والأحجام: هرمية ومخروطية ومكعبة وكرويّة، أقفاص عادية، بعضها معلق في السقف وبعضها على الأرض وثمة مجموعة أخرى تناثرت بغير نظام على جانبي المدخل، ولم يكن هناك أيّ عصفور.

كانت الأقفاص كلها فارغة.

-تفضل، أشار بيده إلى كرسي واطئ آخر، بدا جسده مثل القوس، هزيلاً ومنحنياً.

-أراك تقيم وحدك في هذه الأنحاء؟ قلت مشيراً بحركة دائرية نرسمها عندما نعجز عن التعبير عما يدور في نفوسنا.

-نعم وحدي... رد باقتضاب.

-لم ترحل كالآخرين، قلت بتوجسات من يطرق باب بيت يدرك مقدما أنه فارغ:

-لا لم أرحل.

-لماذا؟

-وإلى أين ستراني سأرحل؟ ما باليد حيلة.

-أرض الله واسعة.

-أرض الله لأصحابها، لقد أخذوا جميع الأمكنة.. ثم تنهّد وأضاف: لم يبقَ لي غير هذا المكان.

-أفهم من لهجتك أنّك من غزة؟

-أي والله من غزة لا يمكنني الذهاب إليها ولا إلى أي مكان آخر.

-وكيف تتدبر شؤون الحياة ؟ قلت مشيراً بيدي إلى الخلاء الممتد.

-أتركُ أمر هذا التدبير إلى الله.

-هل وراءك عيال.

-خمسة وأمهم ينتظرونني في الشقة، العمارة خلت من الناس ولم يبقَ فيها غيرنا، العمارة الثالثة على اليمين من حيث جئت أنت.

ثم أضاف كمن يرجوني البقاء لمدة أطول

-هناك شقتنا على يدك اليمنى... تفضل اجلس.

-أشكرك وماذا عن هذه الأقفاص؟

-انني كما ترى..أبيع الاقفاص. قال بنبرة من يرثي نفسه

-اقفاص!..تبيع الأقفاص؟

-نعم. وكنت أبيع العصافير أيضا.

-ولكنني لا أرى أيّ عصفور!!

-لم يعد لدي علف لإطعامها، خشيت عليها من الموت جوعا فأطلقتها، أطلقت آخر عصفور قبل يومين، كان جائعا ويعض الأسلاك، أشفقت عليه، أطلقته ليبحث عن رزقه.

صمت لحظة يستجمع أطراف ألمه ثم أضاف:

-لم يعد لدي ما أعطيه، فأعطيته العالم الواسع.

-ومن هو الذي يفكر بشراء أقفاص في هكذا ظروف؟

-لا بد من وجود أحد ما يفكر بشراء قفص.

-وبكم تبيع الواحد؟

-بحسب الحجم، ولكن السوق ليست على ما يرام كما ترى.

ولهذا أقبل بالمقسوم، أقبل بما يعرضه الزبون.

كدت أصرخ «أين أنت يا غوبا لتسمع هذا الحديث؟ تعال وارسم ما يدور هنا».

همست بهذا لنفسي فسألني:

-ماذا تقول؟

-لا شيء يا أخي.. لا شيء.. هي بضعة أوراد تعودت أن أتلوها لنفسي كلما ضاقت بي الدنيا، لا عليك.

-الله يهونها علينا جميعا.

مددت يدي إلى جيبي وأخرجت بعض ما كان معي من النقود، دفعت بها إليه، ثم تناولت أقربها إليّ وأخذته.

ودعته، وذهبت إلى حيث تقف السيارة.

وهناك تناولت حجرا بحجم العصفور ووضعته في القفص ثم أغلقت عليه الباب.

وضعت القفص إلى جانبي على المقعد الأمامي ثم شغّلت المحرك وأطلقت العنان للدموع.

-12-

كان لي صديق في الجانب الغربي من المدينة يملك محلاً في سوق العطارين، توقعت أن أجده، فهو من النوع الذي لا تهزه حتى الزلازل، عرفته لسنوات وكنت آنس إليه وأقضي عنده أحلى الأوقات.

كان عرافاً يقرأ في البلّورة.

سمعت به بمحض الصدفة في غابر الأيام، فذهبت إليه أبحث عنده عن مستقبلي.

يومها قال كلمة واحدة: لا فائدة.. وباللغة الإنجليزية. ولم يزد على ذلك حرفا واحدا رغم كل مناوراتي لدفعه إلى الكلام.

كان يبيع شيئاً واحدا فقط: زيت الخُزامى.

يبيعه في جرار من الخشب واحدتها بحجم البلحة.

صرت أزوره بعد ذلك كلما سنحت الفرصة. أزوره صيفا أو شتاء، في الليل أو في النهار فأجده على نفس الهيئة قابعا في مكانه وراء منضدة خشبية مزيّتة السطح تمتد على طول الدكان.

مجرّد سطح خشبي، عتيق، ودَبِق، لا تأمن على مرفق قميصك الأبيض من الاستناد إليه.

عرّاف وبائع لزيت الخُزامى.

أول ما يلفت النظر فيه، تلك الومضة النبوئية تحت حاجبيه النابغين.

ولكن أول ما استوقفني في ثاني لقاء لنا أيامها، هو أصابع يده اليسرى: الخنصر والبنصر والوسطى. كانت معقوفة إلى الداخل نحو راحتها كالمخالب. تشنجت ذات يوم وظلت متيبسة على هيئتها تلك كأنّها معصال التين.

حاولت أن أستفزه ليتكلم بعد أن رفض أن يضيف كلمة واحدة.

فلوّحت بإشارة، حاولت أن أجعلها عارضة، إلى كتاب الأدب الكبير لابن (المقفع).

تجاهل إشارتي البذيئة إلى عاهته الجسدية المشتركة مع ابن المقفع، وحدجني بنظرة رجل واثق من نفسه.

فوضع كلتا يديه فوق الطاولة وراح، كما يحدث تلميذا بليدا، يواصل حوارا قطعه جرس نهاية الحصة، وقال:

«أنا أعزو الأدبين الكبير والصغير إلى إحساس ابن المقفع بوضاعة المحتد أمام المنصور.

كان ذلك أول النتائج التي أفرزها تراكم الإقطاعيات الزراعية في أيدي شيوخ القبائل المتدفقة من الصحراء.

تفاقم أمر العصبية إزاء غير العربي أدّى إلى إحساس الشعوبيين بالدونيّة.

وفي حالة ابن المقفع وصل به الأمر إلى حد الخشوع التراجيدي أمام المنصور.

كان ثنائيا عجيبا: المنصور يشتهي السلطة، وابن المقفع يعاني الانصياع العصابي لصاحب السلطة، يطلب الحماية والأمان».

فوجئت بأنني في حضرة أستاذ حقيقي لا تستوقفه الصغائر، فقلت معتذرا:

-أنا شديد الأسف بالفعل لهذه السقطة، كنت أخرقَ بالفعل، وهات رأسك أبُسْها.

فأشار بيده "لا عليك".

-لم يكن ذلك تعسفا من المنصور كما أفهم... فقاطعني قائلا:

-ما أريد قوله هو أنَّ الكهنوت السياسي يستدعي وجود هذا النوع من الناس في كل العصور.

وكان أثناء كلامه ينقر على غلاف كتاب قديم جدا قرأت عليه "تعبير الرؤيا" تفسير الأحلام الكبير للعلامة الإمام أبو بكر محمد بن سيرين البصري.

.-أرى أن السلف اهتموا بهذا قبل التفكير بجمع الحديث.

-هذا صحيح. هو ما تراه.

وراح يؤكد كلامه بدقات متتالية من أصابعه المعقوفة على الغلاف، وأضاف:

-صاحبنا هذا مولود في أواخر العصر الراشدي قبل البدء بجمع الحديث بقرن أو يزيد.

-لم أكن أعرف هذا!! هل روى أية أحاديث في مسألة الرؤيا؟

-إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثا.

-وسنده؟

-له أكثر من سند في الصحيحين.

كنت أزوره دائما فعرّفني على الفصاد والحجام وعرّفني على الصندل والحرمل والسلجم والطرخون.

كنا نجلس بالساعات نلعب لعبة ابتكرناها للتسلية: الكلمة وتداعياتها.

أقول مثلا المريّخ فيرد بسرعة «تهورك الكافر وإدعاءاتك الفارغة».

المشتري: فيرد : رغباتنا المخبوءة بدون معنى.

القمر : تمام النقص بعد الاكتمال.

الزهرة: جنون الشهوة المتولدة عن الغنى.

زحل: النغَمة الأخلاقية في قوانين نيوتن.

الشمس: الكبرياء الموصلة إلى الهلاك.

الإعلام : الثقة المتبادلة بين اللص وصاحب البيت المسروق.

الذاكرة: غبار النجوم في منتصف الليل.

المستقبل: كارثة في سبيلها إلى التحقق.

المعجزة: الربح في سباق دون خيول.

الصدق: الزمن وقد تهرأ.

الإنسان: دوام التشكي دون سبب.

السياسة: الكذب ومواصلة الكذب والإصرار على الكذب.

أنت: فقدت أهلي وأعيش (بزنبوط) رقبتي.

أنا: مأساة تنضج على نار هادئة.

أحد عشر كوكباً: إخوة يوسف الذيال، ذو القزع، ضروح، مصبح، وثّاب، قابس، الفيلق، طارق، ذو الكنفات، الجريان وعمودان.

مناحيم بيغن: الأسباط (نطقها ممدودة مثلما نطقها صاحبنا في القدس)

كنا نشعر بمتعة ما بعدها متعة في هذه اللعبة لأنها بمثابة الاعتراف والتطهر.

ولكن أحدا منا لم يلفظ كلمة (العبث) أبدا، أتمنى أن أجده هناك لأبدأ بها فورا.

العبث.....

أغرب ما في الموضوع أنني طول تلك السنوات لم أسأله عن اسمه مع أنني كنت دائم الشوق أن يسألني عن اسمي.

وصلت إلى حيث كان الدكان... رماد.

* * *

كانت الساعة في حدود العاشرة ضحى، وكنت قد قضيت الليلة الفائتة في ضيافة بائع الأقفاص، كانت شقته واحدة من ست عشرة شقة خلت جميعها سوى اثنتين هذه في الطابق العلوي وأخرى في الدور الثاني.

ولشدّ ما آلمني اعتذاره بضيق ذات اليد عندما قدم لي على العشاء كأسا من الشاي وقطعة بسكوت واحدة.

وأنا الآن، في حدود العاشرة، على درجة من الجوع أتوهم معها بأنني قادر على التهام نصف بقرة. فرحت أفتش في الحارات عن بقالة ما يزال لدى صاحبها بقايا من شيء يمكن أكله.

وبعد طول تجوال، عثرت على واحدة.

كانت رفوفها خالية إلا من سوائل التنظيف وبعض قطع الصابون وكان ثمة نصف كيس من البصل وقرعتان وصندوق به بعض حبات من البطاطا المخضّرة الذاوية.

وعلى الرف المقابل ثمة الكثير من علب الكبريت "لو كان في البومة خير ما تركها الصياد".

غمغمت لنفسي فردّ الرجل بكلمات فهمت منها أنه يخاطب نفسه «بأنني جئت أرشّ على الموت سكرا» فعدّلت لهجتي بما يناسب الحال.

-ألا أجد لديك شيئا يؤكل؟

فأشار إلى القرعتين ثم إلى حبات البطاطا.

-لا.. أريد شيئا لا يلزمه الطبخ.

بسكوت، لبن، شيئا من هذا.

-عندي صندوق من علب السردين ولكن الثمن قد لا يعجبك.

-أما من شيء آخر؟

-لا شيء سوى السردين.

-أعطني علبتين من فضلك.

غاب الرجل وراء حاجز داخلي وعاد بعلبتي سردين وضعهما لا شعوريا في الميزان.

-أما من سبيل للحصول على رغيف؟

-تجده في علب العرائس، إنهم يوزعونه بالرغيف في الجزء الجنوبي من المدينة.

-وماذا عنكم هنا؟

-نضطر للذهاب إلى هناك لنقف في الطابور نهارا كاملا للحصول على بضعة أرغفة بحسب عدد أفراد الأسرة.

-كان الله في عونكم.

قلت هذا وانتقيت رأسا كبيرا من البصل ثم نقدته الثمن ومشيت إلى حيث أوقفت السيارة.

أخفيت أحدى العلبتين في الصندوق الخلفي، تحت خرقة مهترئة وفتحت الثانية ووضعتها على غطاء المحرك ثم شرعت ألتهم السردين مع شرائح البصل في مقابل الدكان.

وبدأت تصل إلى أنفي رائحة الدخان المنبعث من تل القمامة عند نهاية الشارع.

وكان ثمة شاحنة صغيرة تقف عند الطرف الآخر تحمّل أثاث إحدى الأسر، كان أفرادها غادين رائحين يكدّسون الأغراض كيفما اتفق، فخرج صاحب الدكان ووقف مقابلي على الرصيف الآخر وراح يحدّق في الشاحنة ولم يلبث أن أشار إليهم متوجها بالحديث إلي «إنهم يغادرون»، قال:

كنت مشغولا بغرف زيت السردين برقاقات البصل، فلم أرد.

قالها برجاء من يطلب المساعدة للعثور على حل.

توقفت عن المضغ وفكّرت فيما يمكن قوله، فلم أجد شيئا.

فواصلت غرف الزيت بالشرائح المقعّرة وأطلت من العمارة المقابلة امرأة وابنتها وراحتا تحدقان بأسى من يودع عزيزا يغادر إلى غير رجعة، فيما واصل صاحب البقالة محاولة جرّي إلى

الحديث.

-كلما شاهدت أسرة تغادر أحسست بجزء ينخلع من جسمي، وكان الحزن المرتسم على وجهه يغنيه عن أي كلام.

في البناية المجاورة، كانت حبال الغسيل الحديدية الممدودة على عرض الساحة تلمع في الشمس. ملابس الأطفال الملونة المنشورة على الحبال فرضت نفسها على مخيّلتي... لم يكن على تلك الحبال قطعة غسيل واحدة. أسلاك عارية تلمع في الشمس. كم هي كثيرة أشياءَنا البسيطة التي نعتادها دون أن يستوقفنا جمالها الخاص مثل ملابس الأطفال المنشورة على الحبال في الذاكرة.

مشكلتنا في التواصل مع المحيط أننا نرى الأشياء أصغر بكثير من معانيها: الرحيل. السردين بالبصل. الحرب. حبال الغسيل. أشياء نقولها دون أن نعيها. المعنى هو الواقع ،أما الأسماء فهي لمجرد التأشير على الواقع. رقائق البصل مع السردين بدأت تعطي مفعولها في رأسي، منظرها النادر بين الأصابع الغارقة بالزيت قلما يصادفه المرء لدى غير الذاهبين لإحضار ذهبهم من قفا أفران الغاز.

وسرعان ما بدأ مفعول الوجبة يؤتي ثماره في مكان آخر غير الرأس من بدني.

بدأت أسمع قرقرة وقرقعة أخذت تضغط في النصف الأسفل من بطني.

اللعنة على جميع الزوجات اللواتي يخبئن الذهب في الأفران.

قريني، الملعون، قفز إلى مخيلتي فجأة كالضفدع وراح يضحك.

-المهم في كل هذا ألا تنسى أنَّ سوسو سوف تعتزل الفن وتتجه للعمل في الصحافة، ثم أخذ يقهقه بفجور.

-لن أنسى، اغرب عن وجهي عليك لعنة الله.

-مهم جدا ألا تنسى لأن نسيانك الشيء يعني أنك تقتله، حتى التفاصيل في ثنايا الحكاية يجب أن تبقى حية لأن إسقاطها يعني اغتيالها.

-آه لو أنهم اغتالوك من زمان كنا ارتحنا.

-أقول لك جادّا هذه المرة، واصل حكايتك فإنها تضع كل شيء في مكانه الصحيح.

-وما الذي تعرفه عن حكايتي؟

-ولو!! مهو أنا الذي يستدرجك إلى التعبير المناسب.

-طز.

بدأ طفح فصامك بالانتشار، سأحاول الحد منه.

-أرجوك إذا كان لا بد من ذلك، فليكن من عبارات بسيطة.

-من نوع السردين بالبصل؟

-لا ليس إلى هذه الدرجة من الإسفاف.

-أقول لك جادّا، بأنه ما لم يتسرب خلل ما إلى مشروعك سوف تنجح.

-هل تعني الذهب واللفائف أم تسجيل الحكاية.

-كلاهما معا، ولا تهمل تسجيل الأسماء.

-هذا شيء لا يعنيك، اغرب عن وجهي.

-«يا سعدي إذ لا يعرف أحد اسمي». قالها متهكّما من لهجتي، ثم غادر وهو يضحك.

لوّحت بيدي لصاحب البقالة مودّعا، وانطلقت صوب الميناء.

كان أمين المكتبة أول من قابلته ممن أعرفهم من سكان الجزيرة.

كنت الزبون الوحيد تقريبا، الذي يؤم مكتبته في الأيام العابرة، فعرفني فورا.

-أهلا يا أستاذ.

-عسى ما شرّ، كأنك تنتظر أحدا.

-أنتظر وصول العبارة-دار أخي يرحلون اليوم.

-وهل يرحل الناس؟

-كلهم يقولون بأن الحرب ستبدأ من هناك.

-عسى حال المواصلات ماشي.

-عبّارة واحدة تروح وترجع مرتين كل يوم، يبدو أنها ستتأخر، ثم ركب سيارته وغادر.

كان الميناء خاليا تماما، الصمت يهبط بكامل ثقله على الأشياء التي تحدق ببعضها: الحامي بحدّة الصدفي الأسود يحدّق في ماء المرسى، والأعمدة المغطاة بالقشريات تحدّق بمباني الإدارة الفارغة والرافعات تنحني فوق الماء تتدلى حبالها وبكراتها وقد تجمدت في الزمن الساكن، حتى أذيال الموجات الخفيفة عند خط الماء تبدو خارجة عن السياق تنتظر من يلتفت إلى وجودها.

أمّا خارج الميناء فقد بدا البحر مهموما منصرفا عن كل ما حوله يكتب حكايته الخاصة.

جلست على مقعد خشبي وأغمضت عيني مسترخيا أعاني قلق الانتظار ريثما تصل العبارة. فرأيت بعين الخيال ميناء يضج بالزحام، قادمون ومغادرون وعائلات بكامل أفرادها في رحلة جماعية للاستجمام، عزاب يبحثون عن متنفس هربا من روتين الأسبوع.

أزواج حديثون دفعهم الفضول لكشف المزيد في رحلة بحرية.

وفي الساحات الخارجية كانت السيارات تطلق نفيرها ليفسح لها حاملو الأمتعة طريقا للمرور. فضوليون لا هدف لهم، وحمّالون يتدافعون حول المركب الذي رسا توّا. وضجيج السماعات الخارجية يعلن عن الرحلة رقم أربعة بعد خمس دقائق.. حياة. قمت أتمشّى على حامي الموج أدقق في الأفق بحثا عن عبّارة بلا جدوى. لا يبدو أي أثر لأي شيء حتى نهاية الأفق. سماء زرقاء مستديرة وصافية تنحني متدلية عند نهايات النظر هابطة في وهم أزرق عميق.. لا شيء.

حتى طيور النورس ساورتها الظنون فرحلت هي الأخرى.

ما الذي تفعله هناك أيها البحر؟

ماذا تفعل بكل هذا الصمت «أيها الراعي الذي يسهر عندما ينام الناس جميعا، اطعم رعيتك بكل ما هو جيد». هذه هي الآلهة اليونانية تملك الطبيعة وتسخرها للتحكم بمصائر البشر.

حروب طروادة مصممة خصيصا من أجل إظهار بسالة آخيل. أنا آخيل. طروادة في جانب والبحر في الجانب الآخر وبينهما هيلانا وباريس وهكتور وآخيل ويوليسيس. فرعون كان إلها وملكا في نفس الوقت.

كان البحر هادئا هدوء الحكماء يحدّق مثل من يريد أن يقول شيئا.

«قل ما عندك. قله ولا تخف فالأمر عندي سيان. قله على سبيل البيان الختامي. فأنا ما جئت أيضا إلا لكي أقول وداعا».

لمحتها فجأة بدت بحجم النورس أولاً، ثم بحجم الصندوق، بعد ذلك أخذت تنمو رويداً رويداً حتى اكتملت.

وسرعان ما بدأ المنتظرون يتقاطرون على الميناء.

وصلت العبارة جاء أمين المكتبة أولاً تلاه المدعو (س) الذي ركن سيارته بحيث يمكنه أن يعيق حركة الآخرين (1). من أكثر المفارقات أن يعتبر طراز السيارة واحدا من المصادر، وربما أوثقها لدراسة الشخصية، حسناً إنها سيارة مرسيدس آخر طراز.

المهم وصل (س) يتطلع حوله مثل من يعاني من ضغط فكرة خسيسة تتلمس طريقها للخروج. دعك من أرسطو ودعوته للحكم الأوليغاركي. فلو أنّ أرسطو نفسه كان هنا الآن لانزلق على بقعة الزيت تلك التي اندلقت من أحدهم وظلت تهدد العابرين بالانزلاق.

(ب) و (ج) وصلا معا في سيارة شفر وسلّما علي بأقل قدر من الاهتمام. (ش) بطوله المديد وشاربيه المميزين صاحب همة عالية حقا، ثم وصلت مجموعة أخرى بالكاد أتذكر وجوههم، تلاهم الشاب (ح) عاشق لدراسة الجغرافيا الطبيعية ويحب مهنتي كثيرا وينتهز كل فرصة تسنح لنستمتع بالحديث معا. عانقني بحرارة رطبت جفاف روحي وقال: «شايف شو صار فينا يا أستاذ»؟ ثم وصل (س) آخر، ويلقبونه بالقطة، على دراية تامة دائما بأحوال الموقوفين على ذمة التحقيق، ابنه البكر قواد برتبة.

***

1 ما الفرق ما إذا كان اسمه: سليم أو سلمان أو سعيد أو سطام أو سامر أو سعود أو سيّد إذا كان (س) هو أكثر واحد يمكن معرفته من بينهم؟

مستشار لابن نعجة-أما ابنه الأوسط فقد ترهبن بعد أن أجبروه على الدخول في كتيبة الحماية ففر منها وأطلق لحيته وصار يذرع الطرقات بثوب متّسخ مشعّث الشعر ويمشي حافيا.

اختفى ذات مرة لأسبوع كامل فظن الجميع أنَّ البحر قد ابتلعه ليظهر فجأة بعد أن نام أسبوعا كاملا على سدّة في المسجد.

واقع الحال على الأرض، مثلما هي انعكاساته في رأسي، ذو طبيعة إشكالية تستعصي على التطويع في سياق سردي معقول.. "فوضى الأشياء؟ لا.. نظام الفوضى؟ لا.. نظام الأشياء؟ نعم.. ميشيل فوكو، ما زال لديك شيء من الذاكرة" وبدأت الشاحنات المحملة بالأثاث بالخروج تباعا.

الأولى لا أعرفهم، راحوا يتطلعون يمينا وشمالا فلم يجدوا من ينتظرهم.

تلتها الثانية معرومة بالأثاث يبرز من نافذتها وجه أعرفه جيدا يلقبونه "الفانتوم".

ثم شاحنة أخرى تبرز من صندوقها سجادة ملفوفة تهدد بالسقوط.

فشاحنة ناظر أملاك السيدة الذي تزوج في آخر أيامه من خادمة (على ثلاث نساء) في عمر أحفاده رزق منها بولدين يشبهان الطباخ إلى حد كبير.

ثم شاحنة (ع) شبه المشلول قضى نصف حياته الأول مخبرا سريّا ثم تحول إلى الوعظ بعد عودة ابنه من أمريكا بهابوت إثر جرعة مضاعفة من المخدرات، له دستة كاملة من الأبناء أصغرهم العائد بهابوت.

ثم سيارة صالون صغيرة يقودها (ج) الذي يحمل في رأسه ثلما من الجلد خاليا من الشعر بعرض ثلاثة سنتمترات يمتد من قمة رأسه حتى بداية خده الأيسر، أبوه المضارب في البورصة وعده بسيارة جديدة إذا ارتفعت الأسهم، وشبت الأسعار. فوفى الرجل، ومعه كل الحق في ذلك، بوعده.

وأثناء تجربتها في (التشحيط أو التخميس، لا أدري ماذا يسمونها) انقلبت بالصبي وتدحرجت ست مرات. أفاق (ح) هذا بعدها من الغيبوبة بعد شهرين في العناية المركزة ليجد هذا الثلم في رأسه وما تزال تنتابه نوبات خفيفة من الصرع حتى اليوم.

وهذه أخرى تحمل دار (م) نسيت اسمه الأول. تليها أخرى محملة بمتاع زوجة (خ) الثانية التي كرّست كل مجهودها للحمل والولادة، فبزرت أحد عشر بطنا لا انفصام بينها تحت رعاية أختها غير الشقيقة الأقل امتلاء والأرهف عودا والملهوفة باستعراض نهديها الرجراجين بما فيهما من إيجابيات لا تنكر، لها نظرات متوحشة وتصرف بأسنانها دائما كناقة في موسم العشار يدرك المتفحّص للنظرة الأولى بأنه أمام واعدة فيما يتعلق بالمماحكة.

تلا ذلك دار الحج (اج)، مقاول رحلات حج وعمرة وذو حظوة عند العجائز، ومزواج متخصص بالأرامل يحتل مكانة مرموقة في هذا المضمار، وزوجته الثانية لم تكن فاضلة بالدرجة التي تستدعي التنويه، وظلت محافظة على عادتها القديمة في اقتناص الفرص مع التقدم في السن.

استمر خروج الشاحنات لأكثر من نصف ساعة ظهر بعدها باطن العبارة مستوياً فارغا باتساع ملعب الكرة. فبدأ تدفق الشاحنات الفارغة إلى الداخل، فشغلت سيارتي وتقدمت ملبيا أوامر الربان الذي ما انفك يأمر بالاصطفاف واحدة على اليمين والثانية على الشمال لحفظ توازن السفينة.

وخلال دقائق بدأت الرافعات تجأر ساحبة باب الإغلاق العملاق رويدا رويدا إلى أن استقر في مكانه فيما كانت المحركات تتناوب العمل لتوجيه الدفة نحو الخروج.

وأخيرا خرجنا من الميناء وأسلمنا أنفسنا للبحر.

كانت الريح ساكنة تماما والبحر مصقولاً كسطح المرآة.

رحلة واعدة في الأفق المفتوح.

بدأت طيور النورس تتزايد، ترافقنا على كلا الجانبين.

تنقض على الأسماك المتطايرة كالنبال يمينا ويسارا وقد أفزعها هذا الجبل الذي يجأر على سطح الماء. «الطبيعة تنظم نفسها لو أنهم يتيحون لها فرصة التوازن، ولكن مراكمة الأرباح تعميهم: تروستات، كارتيلات، أبناء عاهرات يربون مديريهم مثلما يدربون الكلاب فيدمرون مصادرنا المادية والروحية معا ويكرسون الثقافة التي تحيل الإنسان إلى مجرد جثة لا يملك حتى حرية اختيار ما هو بحاجة إليه.

ثقافة إعلانية زعزعت أساس نظامنا العقلي فأفقدتنا القدرة على ترتيب الأولويات.

تناثر أصحاب السيارات على السطح، فالتّم بعضهم في جماعات يلعبون الورق، وتناثر بعضهم على المقاعد لا يرتبطون فيما بينهم بأية روابط خاصة. وجلس اثنان متجاورين يسندان ظهريهما إلى قاعدة المدخنة، فيما تمدد آخر بلحية كثة في ظل قمرة القيادة واختفى الباقون حيث لا أدري.

وقفت وحيدا أستند إلى درابزين السطح أتأمل البحر وأتلو صلاتي الخاصة: «اللهم يا أبا العيال، أنت أعلم بالحال وأدرى من طينك، عبدك وابن أمتك، بحقيقة حاجته إلى السؤال، فوّضت أمري ليدي رحمتك، وأوقفت قلبي مصليا ضارعا عند بابك، أسألك يا رب العفو والعافية، وستر الحال وشرّ السؤال، ربي يا ملاذ الخائفين والمتعبين والحيارى والموجوعين، ألتجئ إليك بكل ضعفي وحيرتي وعجز وسائلي، وألوذ برحمتك من ذنوبي ومن وساوس نفسي ومن شرور دنياي، ومن أذى الأشرار الذين ينامون على القتل ويصحون على الدمار، لا ملاذ لعبدك إلا في ظلال رحمتك سبحانك، عندك الكلمة ولك الرحمة، لك الحمد ولك المجد، تبارك اسمك وتعاليت...آمين».

أثناء التلاوة ظهر سرب من الدلافين على الجانب الأيسر، واحد.. اثنان.. ثلاثة.. ستة. قطيع يتواثب كالخراف في موازاة السفينة. منظرها آسر. من العائلة الحوتية تتوالد وترضع صغارها تحت الماء. الذكور تحيط بالإناث بينما يتعلق الرضيع بثدي أمه وسط الجماعة، تكافل معدوم عند الجنس الأناني.

الأمريكيون درّبوها للكشف عن الغواصات السوفياتية الصامتة، من ذوات الدم الحار بعكس الأسماك، دمنا حار في الأغاني. الأفضل هو الذي يقود القطيع، انتخاب طبيعي. مسؤول في التعليم لم يسمع بدارون. يتفاخر بأنه لا يقرأ الكتب.

كرم الله وجهه لم ينظر إلى عورة قط. علاه بالسيف يوم صفين فرفع ابن العاص ثوبه كاشفا عن عورته، فأشاح، كرم الله وجهه، عن المنظر الفاحش. نجا ابن العاص وتحكمت الجواري والقيان بميراث عام الجماعة.

ما أخطر أن تكون مثقفا جذريا. تختفي بهدوء تام مثلما حدث لك يا رحّال.

-ألا يكون هذا هو ما يسمونه بالأمن الثقافي.

-صدقت هو بعينه.

-أستغرب أن تتفق معي على رأي.

-واقعنا لا يثير الاستغراب بل السخرية.

-في هذه أنت محق تماما.

-أستغرب كيف يروّضونهم كالكلاب البوليسية.

-بالعصا والجزرة. فضيحة أوصلوها لمرتبة القانون.

-لا فضيحة ولا شيء، سيأتي يوم لا يستخدمون فيه غير العصا.

-اسمع أريدك أن تكون (آسف نسيت أنّك ميت) أكثر تفاؤلاً.

-وهل هناك ما هو أكثر للتفاؤل من حالتي: الاغتيال بدون ضجة.

-منذ متى امتلك البعير روح الفكاهة؟

-منذ أن جرى التداخل بين معنى الأعطيات ومعنى العطاء، وتساوت المنحة مع المحنة وتلبس الريع بلبوس الإنتاج.

-ولا تنسَ سوسو التي سوف تعتزل الفن وتتجه للعمل في الصحافة.

-مفخرة ستظل تتحدث عنها الأجيال لسنين طويلة.

-صدّعت رأسي، إذا لم تتوقف رميتك في هذا البحر.

-الشيطان نفسه لا يتهدد صاحبه هكذا.

-الشيطان وديع ومسكين صار بحاجة لمن يأخذ بيده.

-الشيطان الأكبر.

-الأكبر والأصغر كلهم سواء. أشعل جميع الحروب التي تتذكرها البشرية، سلسلة لا نهاية لها من الضحايا جرى التغاضي عنها. كان الثمن فوق ما يطيقه الجميع. فوق ما يمكن السكوت عنه. اختلفوا حول الفريسة الممددة فامتشقوا السكاكين ومزقوا وجوه بعضهم بعضا.

يومها أعلن الشاعر والرسام والروائي والفيلسوف سقوط الحضارة. فغادروا النمط أو انتحروا. خذ عندك: غوغان، كوخ، رامبو، لوتر يامون، إليوت، جيمس جويس، سارتر، كان المشهد مروّعاً.

يومها انتحى كارل ماركس بمريديه جانبا وصلّى فيهم طهارة الروح. كانت الأصفاد ما تزال تجلجل في مخيلة العالم، فوقفوا واجمين حول تمثال لينين الممدود الذراع في إشارة إلى ما سوف يكون، ولم يلبث الدخان أن اخذ يتصاعد من درزدن وبرلين وطوكيو التي قتل فيها مئة ألف في ليلة واحدة.

كانت القاذفات ما تزال بدائية لم تبلغ الكمال الذي وصلت إليه بـ 52 وعندما حدثت الأعاصير في هيروشيما وناغازاكي خرج من بين الأنقاض من يقول «كفى! أخفضوا أسلحتكم أيها السادة» ورفع ستالين قبضته في وجوههم فأخفضوا أسلحهم.

ليلتها تنفست أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية الصعداء، وبات العالم ليلة دون خوف.

في تلك الليلة ولد عبد الناصر وتيتو ونهرو وكاسترو ولومومبا وهواري بومدين وسوكارنو وغوموكينياتا ونلسن مانديلا وروبرت موغابي وغيرهم وغيرهم.

وذات ليلة تسلّل واحد من أبناء الحرام، وأطلق النار على رأس الحلم. لا بد لمؤسسة الشيطان من إعادة هيكلة نفسها الآن. أفلست وقررت التوقف عن تقديم خدماتها. سلع الإغواء التي ظلت تحتكرها منذ أيام آدم صارت شيئا عتيقا لا يفي بمتطلبات العولمة. هذا زمن الأشجار التي تطرح ثمارا من الهمبرغر يا سيدي. زمن المقايضات: ميلوسوفتش مقابل مليار، صدام حسين مقابل عشرة، الأمن القومي مقابل كسب رضى الليكود أو حصار الدول الناشزة (أيهما أقل كلفة). معسكر سرّي مع سائر معدات القتل الحديثة في ضواحي لاباز لتعقب جيفارا: مرتزقة، كوبيون منشقون، بساطير من كولومبيا، قبعات من هندوراس، رشاشات من تل أبيب. قتلوه دون استجواب، قف. ثم انهمر الرصاص. تاريخ لا يمكن نسيانه عام 67 هذا.«بدا لي من وجهه بريئا وجميلا كالمسيح» قالت إحدى الفلاحات التي شاهدت الجثة. وفي غرينادا قال أحد الجنود «كنا نقتحم البيوت ونقتل كل ما نجده فيها حتى الصيصان والخنازير، طهرّنا كل شيء وحررنا البلد».

اللعنة على الذاكرة النسّاءَة، هل هي الهندوراس أم نيكاراغوا أم غواتيمالا؟ المهم روى القرويون أنّهم كانوا يبيدون الجميع في القرى المحسوبة على اليساريين. يحشدون الرجال والنساء ثم يفرغون خزانات بنادقهم في أجساد العزّل. ولم يكونوا يبددون الرصاص في قتل الأطفال، يمسكونهم من أرجلهم ويطوحون بهم في الهواء محطمين رؤوسهم على الجدران. وعلم مراسلنا تقول صحيفة الـ (هـ-ت) أنهم في بعض الحالات كانوا يقذفون أطفال القرى في الهواء ويتلقونهم بالحراب!! «المجد لله في الأعالي». قال القسيس المنهك الجسد وهو يمسح العرق ويهش الذباب عن عينه «نعم إنهم يبيدون الجميع عن بكرة أبيهم).

الطرق مفروشة بالجثث. ولا تنس المعلومات المفصّلة للغاية التي تقدّمها صور الأقمار الصناعية عن كلّ شارع وكلّ حارة وجادّة في بغداد. تستطيع قراءة رقم السيارة من خارج نطاق الجاذبية الأرضية. حصة العراق ثمانية من هذه الأقمار. «أنا لا أفهم سببا واحدا يمنعنا من احتلال العراق لضمان أمن إسرائيل» هذا ما صرّح به أحدهم علانية للصحافة.

وكانت كتائب الموت مزودة بقوائم بأسماء المرشحين للتصفية، وصور للبعض على هيئة أوراق اللعب. «في حال دخولنا سوف تبدأ المجازر، ينبغي تصفية الكثير من الحسابات».

ثم جاءت البلاك ووتر. والحصيلة أربعة ملايين يتيم، وظهرت الجزيرة. ها هي أمامنا.

وأخيرا، دخلنا الميناء.

توقفت العبّارة، وسكنت آلاتها. قذفت الحبال فتلقفها الواقفون على الرصيف ولُفت حول المرابط. ورويدا رويدا بدأ الباب العملاق بالهبوط.

شغّلت سيارتي وخرجت.

كان فضولي في حدود المعقول دائما إلا هذه المرة. فطابور الشاحنات المحملة المصطف من المرسى إلى الشارع والممتد إلى حيث لا ترى العين له نهاية، أذهلني.

جميع الناس هنا. السماع عن الشيء لا يغني عن رؤيته. أو بصريح العبارة "الحكي مش مثل الشوف"، فهناك دائما تفاصيل صغيرة تسقط من الوصف أو يعجز عنها الكلام (وهي تشبه براغي الشد لأجزاء الحكاية. ويقال بدون مؤاخذة: إنّ في ذلك النوع من الطائرة التي ضربت البنتاغون

مليونا ونصفاً، أكرر مليوناً ونصفاً، من مثل هذه البراغي). نعود إلى ما نحن فيه. ركنت السيارة ورحت أتفرج على ما يجري!

كانت محركات الشاحنة الأولى في المقدمة تهدر استعدادا للدخول في السفينة.

جأر ناقل الحركة، وكان الربان يطل من علٍ يشير بكلتا يديه للسائق : إلى اليمين قليلا.. الى اليسار.. لا لا. هذا كثير. وكانت الشاحنة تهدد بالانزلاق أثناء الهبوط بطريقة توحي بأنها ستنحرف وتغرق في الماء. ولكنها استوت أخيراً بين صيحات المتفرجين وتهليلهم، واستقرت في المكان الصحيح من العبارة. تلكأت الثانية بسبب الاعتراضات الكثيرة على بروز الأثاث من الصندوق بشكل يعرضها للانقلاب. وبعد مجادلات وملاسنات عنيفة سمح لها بالتقدم.

كان صف الشاحنات يمتد لأكثر من ميل والسعداء الذين حلَّ دورهم للصعود في تلك الرحلة، أحسّوا بانزياح جبل الانتظار المرير عن صدورهم. رحلتان فقط في اليوم. فكان على الأسر التي في نهاية الطابور أن تنتظر خمسة أو ستة أيام ريثما يصل إليها الدور. وكان معظم هؤلاء المتأخرين ممن لم يستطيعوا استيعاب ما يحدث، أو ممن لم يأخذوا الأمر، في البداية، على محمل الجد.

كانت الحيرة والانكسار هي السمة الوحيدة على الوجوه «إنّنا نقتلع من بيوتنا». «إلى أين سنذهب» وكانت الإشاعة على كل لسان: «من هنا ستبدأ الحرب». حرب لا تميز بين عجوز ورضيع في اللفة وستكون هذه أرضاً محروقة. ثقافة الخطاب السماعي. ميل طبيعي لتصديق الإشاعة.

وعملياً، صارت الجزيرة معزولة تماما لولا هذه العبارة، وهي عرضة للعطل والتوقف بسبب نقص طاقم المهندسين واختفاء قطع الغيار. الشركة المالكة لا يدري أحد كيف تبخرت،أمّا الربان البطل فيواصل عمل الليل بالنهار «لا أستطيع أنْ أتخلّى عن سفينتي» يقول. بطل حقيقي يبحر بلا إدارة ولا مهندسين أو مرشدين ومساعدين حقيقيين. وغاصت إحدى الشاحنات بمقدمتها في الماء وانحشرت بين هيكل السفينة وجسر المرسى. قفز السائق صارخا يلعن كل شيء وحدثت فوضى تامة.

العائلات التي تفترش الأرض في ظلال السيارات تعاني صبرا لا ينفد. وآخرون ممن هم في نهاية الطابور تركوا شاحناتهم تنتظر دورها وعادوا إلى بيوتهم الفارغة يفترشون البلاط ويودعون ذكرياتهم مشدودين بتلك الخيوط السرية إلى همهمات الزوايا والأركان. لا هم قادرون على البقاء، ولا تتيسر لهم المغادرة.

واضطر الربان في غمرة الزحام إلى العمل ثلاث رحلات يوميا في بعض الأحيان. حتى إنّه أغفى ذات مرة وهو يمسك بالدفّة. وأمثاله من الندرة بدرجة تغري هؤلاء بالتفكير بقتلهم.

« ناصري بصحيح»( ). كان يحلم بتربية الخيول بعد تقاعده.

كانت الفوضى تستغرقني تماما عندما تذكرت فجأة أنّني لم أصل إلى البيت. بعد. وأفاقت وساوسي على لص انتهز الفرصة وسطا على البيت، فأي صندوق وأي ذهب؟ لقد تأخرت كثيرا أيها المنكود، فأسرعت لا ألوي على شيء يخفق قلبي رعباً وأملاً.

وصلت الحارة.

صفان مقابلان من البيوت بينهما شارع ورصيفان تتقابل على جانبيهما النوافذ والأبواب.

لا شيء سوى أبواب مغلقة يهبط عليها سكون موحش ويعلوها الغبار، لقد غادروا جميعا.

أين ذهبت شيطنات الصغار وعفرتاتهم؟ كخلية النحل في مثل هذا الوقت؟ أين ذهبت حلقات الآباء والأمهات يتراشقون الضحكات ويتبادلون الحكايا ويفضون منازعات الصغار أمام البيوت؟

يمرق كل ذلك في خيالي كأسراب السنونو: محبة، ضغائن، مسامحات، بوح، تاريخ طويل من حياة اختفت في غمضة عين وغابت إلى الأبد. فإذا كل هذا مجرد أبواب مغلقة، وغبار متراكم، وصمت.

وكانت بضع قطط تتجول حائرة تبحث عن شيء ما. نظر أحدها إليّ باستغراب غريزي يكاد يكون إنسانيا، ثم غامر بالمرور بين ساقيّ. وجاء آخر يتمسح ويموء وفي عينيه سؤال حقيقي مريع «ألست أنت جروح والد الصغار فلان وفلان وفلانة»؟ بدا أنّه يعددهم بأسمائهم. «أين ذهب الجميع إذا؟». أين الصغيرات: عيذاب وسارة ومريم وفلسطين وفاطمة؟ أين تيسير وعائدة وتموز؟ أين ذهبوا؟

كان السؤال يطل من عيني الحيوان الجائع بصراحة مروّعة وبلاغة لا تستطيعها إلا حيرة غرائزية موجعة. خرساء لا تقال بالكلام ولا البكاء.

انفتح أحد الأبواب فجأة وأطلت منه الصغيرة م ر ي م.

مريم.. تتفقد الأبواب بعينيها عسى أن تحدث المعجزة وترى أحداً ما ففوجئت بمرأى السيّارة، فوقفت مبهوتة لثوان، لا تصدق ما تراه عيناها، ثم أطلقت صيحة هائلة عمووه ووثبت إلى الداخل يلحقها صوتها «باباااا عمو إجا عمو إجا..» وسرعان ما اندفعت الأسرة كلها من الباب فاتحين أذرعهم مثل من أصابهم المسّ.

ضحكبكاء مَسْهستيريا جئت ساحبا ورائي الأمل والخلاص والروحناس والألفة والغناء، جئت ساحباً الروح المستلبة، وكانت صيحة الصغيرة بابا عمو إجا هي الخلاصة النهائية لهذه المشاعر المتدفقة من الضحكبكاء ويأسرجاء في جيشان فوضوي من الانفعالات المتداخلة.

وأنستني حرارة اللقاء نفسي. فلم أفطن لعيني الدامعتين إلا بعد دخول البيت ويد مريم تناولني منديلا ورقيا لأمسح دموعي. هؤلاء هم دار أبو علي، والد مريم، طيبون بأكثر مما يلزم للتفكير بالرحيل،حنينهم إلى المكان وجع لا علاج له.

إحساسهم بالفقد وعجزهم أقعدهم متبلدين حائرين لا يصدقون ما تراه أعينهم.

دامت فرحة اللقاء ساعة أو نحوها ثم تبددت فجأة أمام الواقع الماثل حينما انزلقت على لساني سهوا جملة صغيرة قتلت الفرحة وطرحتها جثة هامدة أمام الجميع. قلت موجّها حديثي للصغار: فلسطين وتموز وعائدة يسلمون عليكم كثيرا و...جئت لآخذ ملابسهم و..

ران الصمت فجأة وأطل الهلع من الوجوه، وحركات الأيدي العشوائية، ومن الحقائب والصناديق. كان أثاثهم مسفوطا ومحزوما استعدادا للرحيل. قالت أم علي: غدا تأتي الشاحنة نحمّل أغراضنا ونرحل.

قبل لحظات كان إحساس الصغار بأن كل قطعة أثاث قد عادت إلى مكانها مع وصولي. ولكن جملتي الحمقاء دمّرت كل شيء. وعمقت الإحساس بالمرارة. حلّ الصمت محل الكلام، فتباعد الحديث، وتقطع. فلم أعد أطيق هذا التصبّر الذي يفرضه اليأس على وجوه الجميع، فاستأذنت بحجة تفقد البيت، وخرجت. وكنت أرى دبيب النحيب يتلوّى فوق الوجوه.

كانت القطط قد تجمعت بدورها تتأملني عسى أن أقول شيئا، فتطلعت إلى السماء وشممت رائحة البحر التي يبثها ابتداء الجزر قادمة من بعيد، ثم فتحت باب البيت، ودخلت....

فراغ المدخل ذكرني بفوهات مغاور الموتى في المعلقة. فراغ أصم موحش وحقيقي. طالعتني صورة تموز المعلقة مقابل المدخل حدقت بي بابتسامة رأيتها ميتة لأول مرّة، ولأول مرة أفطن إلى أنَّ إطارها مائل قليلاً. تقدمت وعدلتها بإصبعي سارح الروح. صور الجدران الأخرى صافنة أيضاً. قطع الأثاث غارقة بصمتها، والغرف والممرات تقول برائحتها الأسئلة. وفيما أنا أستعرض شظايا أيامي يساورني ما يشبه صوت أحد الأولاد يخرج مبتسما في وجهي من مكان ما، سمعت صوتاً حقيقيا. كانت الصغيرة مريم قد دخلت وبين يديها دمية على هيئة دب من القطن وضعته على حافة الطاولة وقالت «هذا لعائدة يا عمو.. كان عندي»، ثم غادرت وأغلقت وراءها الباب.

أحسست بيديها تبكيان وهي تضع الدب. فأوشكت على الانهيار. أي شيء يكون البكاء غير هذا؟ حدقت في الدمية فتخايلت جثة الصغير تيسير.

ووجدت نفسي أفتح الخزانة. أطلّت الملابس معلقة مثلما تركناها. جافة لا تقول ولا تومئ. تحسست ثوبا فأجفلت. رأيتها هناك. كانت كلها جافة! ومعلقة! تركني، باب الخزانة مفتوحا، عند باب المطبخ تجرني خطاي. فأيقظني طباخ الغاز المهترئ في مكانه تحت النافذة، فأفقت.

كل شيء في مكانه، وعلى الحالة التي تركناه عليها منذ شهور. ثمة مقلاة ما تزال فوق الطباخ مع طبقة خفيفة من الغبار. فمشى الدم في عروقي. ما زال الصندوق في مكانه. حمدت الله في سري بشعور يشبه رعدة الخوف. وبدأ الارتجاف يخف في أصابعي أمام الفوضى في المطبخ عندما تناولت فنجانا كان مقلوبا في صحنه إلى جانب بضعة كؤوس.

إحدى خزائن الجدار مفتوحة ويطل منها الكثير من الأواني : بهارات، فلفل، ملح، ووعاء زجاجي كبير فيه من السكر ما يكفي أسرة لأسبوع. وعلى الرف العلوي علبهان من صلصلة البندورة وثلاث علب من التونة، فكدت أبتسم. وعلى الرفّ المجاور علبة من الشاي وشيء من مسحوق القهوة.

صنعت لنفسي فنجانا من القهوة التي أعادتني رائحتها إلى الحياة تماما. وحشوت الغليون بالطباق لأول مرة منذ ثلاثة أيام ورحت أدخن متلذذا مع القهوة. وكان التعب يصل بي إلى حدود الإنهاك.

فتحت جهاز التلفزيون واستلقيت باسترخاء تام. وعندما بدأت الصور تتلاحق على الشاشة أخذ إحساسي بالوحشة يتلاشى. أطلّ وجه الجنرال (ش) بوجهه المحتقن متغضن العنق فوق صف من أربع نجوم على الياقة. قبعته الخضراء تغطي الجبهة وأعلى الحاجبين، وهو يتكلم ضاغطاً على مخارج الحروف في تقريره للصحافة عن العمليات اللوجستية متجنباً الحديث عن التوقيت وساعة الصفر. اختفى الوجه وبدأت تتلاحق الصور المنتقاة بعناية فائقة: دبابة ابرامز تقوم بمناورة استعراضية. يدور البرج بزاوية 90 درجة ثم يعاود الدوران بالاتجاه المعاكس، وفي خلفية

الصورة تبدو من بعيد دبابة أخرى تشبه المركافا تطلق قذائفها على هدف ثابت فتهبّ عنده عاصفة من النيران. فوهة المدفع في مواجهة عدسة المصور مباشرة تهدد المشاهد بالنسف. صورة بانورامية لحاملة طائرات تظهر على البعد. تليها صورة مقربة لكل ما على السطح. ثم يتم التركيز على المدرج فإطارات الطائرة التي تتأهب للانطلاق. ينطلق المنجنيق فتندفع المقاتلة توم كات. تهوي قليلا عند حافة المدرج ثم ترتفع منسابة برشاقة، وتحلق مبتعدة مخلفة وراءها بخار المنجنيق ما يزال يتصاعد من مجرى الدفع. وفي آخر الكادر يستقر صف من المقاتلات متعددة الأنواع والمهمات. تتغير الصورة فتظهر قاذفة هارير البريطانية تهبط على سطح حاملة أخرى بشكل عمودي. تحط مثلما يحط اللقلق. تتوقف لثوانٍ في الهواء، وتعدل زاوية الهبوط.

الكاميرا تلتقط حركة فوهة النفاث المحوري، ثم تنزل بسقوط ليّن تستجيب له العجلات بمرونة،جهاز ماص للصدمات.

رادار الحاملة الرئيسية في أعلى البرج يواصل الدوران حول نفسه ماسحا الأفق. وما وراء الأفق، تحيط به مجموعة أخرى من الرادارات الأصغر حجما «يا الهي أكلُّ هذا من أجل الصغيرة مريم التي لا تحلم بأكثر من دمية من القطن!!».

مريم لا تعرف الجهات الأربع بعد. تعرف الشرق وتخطئ في الباقي، وعين الرادارات الاستشعارية تمسح الجهات الأربع لما وراء الخيال. «هل يمكن إصابته بالعين»؟ تتدلى على صدر مريم خرزة زرقاء تحرسها من الإصابة بالعين. وبدأ النعاس يتسلل مبتسما، يسدل ستائر الجفون درجة وراء درجة بليونة، بنعومة، ماص الصدمات منهوك القوى ثقيل يشدني النعاس إلى أسفل هبوط عمودي، الستائر تتمايل والأجنحة تتمايل، تتفتح ثم تنغلق مع عادم الهارير، تتفتح ثم تنغلق نصف نائم، تغيب الصورة ثم تعود تغيبوتعود وتتناءى، يغيب الصوت، ثم يعود يغيب ويشدني إلى الأسفل شيء بقوة ناعمة والرياح جنوبية شرقية إلى معتدلة السرعة ودرجة الحرارة راره راره.

ومريم ترحل في بحر متلاطم هائج شرق شمال شمال حرب جنوب شرق وقفز إلى وعيي فجأة. آخ. صحوت نسيت الغاز مشتعلا بعد فنجان القهوة.تحاملت على نفسي وقمت إلى المطبخ، وَهمْ، كان الغاز مغلقا «دعه في مكانه»، ثبت أنه في مأمن وأكثر أماناً من خزائن البنك الدولي. الأشياء الصغيرة لا تلفت الانتباه، وعاد النعاس الثقيل يشّد ستائر الجفون بعد أن عدت للاستلقاء أمام الشاشة.

استرخاء لذيذ ومريح يتسلل من خلاله النوم بنعومة ينتظم التنفس بعمق، بعمق ثقيل بعمق أكثر كمن يتأرجح في الهواء، هارير أمان مطلق نوم نائم منام وجاءت عائدة بغضبها الطفولي تهددني: ثوب وردي يصل إلى الركبتين بزنار معقود كوردة بيضاء وراء الظهر مع ياقة بيضاء وشعر قصير أسود بزعنفة ذيلية مربوطة إلى الخلف بشبرة تشبه قنزعة القبرة «شايف يا سيد، هذا هم سبقونا إلى البحر على شان حضرتك ترضى.. كسلان..» من هم الذين سبقونا؟ دار عيذاب الكلبة ودار زفت مريم. فلسطين الأكثر حكمة وتجربة تجرني من يدي إلى السيارة وتسلمني المفاتيح. يللا سبقونا،خذ المفاتيح.. (ش) بلا نجوم هذه المرة يجلس على صخرة عند الشاطئ ويدلي قدميه في الماء وإلى جانبه آله تشبه الاصطرلاب، بجانبه دب قطني ومجموعة من الطيور تسبح أمامه سوداء وحمراء وبيضاء منتفخة البطون. أحاول الاقتراب فتعيقني قوة داخلية تشلّ ساقيّ عن الحركة، والدمية تلعب بالماء والرجل لا يعيرني التفاتا بالمطلق مما يضاعف من عجزي عن

الحركة، وهذه الدمى لا تتوقف عن التراقص وإطلاق الضحكات من الرجل حاسر الرأس يلتقط شيئاً يشبه سمكة.

الغلموت تضرب بجناحيها والخرشنة بأجسادها الهزيلة تدرج وتدرج تحت قدميه، وأسراب من الطيور ترحل في مجموعات تسمع لأجنحتها وشيش وهسيس ش ش ش. عنقي يؤلمني، صحوت. انتهى إرسال التلفزيون. فقمت إليه ثلاثة أرباع نائم وأغلقته وانقلبت على جانبي الأيسر فوق الكنبة، وسرعان ما عاد حفيف أجنحة النوارس ليّناً هذه المرة تأتي به نسمات خفيفة من النافذة التي دخل منها أورفيوس، إله الكرى، يمشي خفيف الخطى على رؤوس أصابعه، فراحت مراكز الحس تتلاشى تدريجيا عندما ألقى عليَّ عباءته وعلق فوق رأسي حلقة من الأجراس الحنانة فاستلّت برنينها النائي بقايا ما في أوصالي من التعب، ثم أسدل ستائر عينيّ بإحكام وطار.

كان البحر هادئا ولكنني لم ألبث أن غرقت بكامل ثقلي، في نوم عميق...

في البداية، كنت في الواقع أقاوم النوم بكل ما في وسعي من خدر وتراخ. شيء ما يشبه الخوف يدعوني للمحافظة على صحوي ويقظتي.

فكرة طائشة ما، قد لا تستدعي الالتفات، لأننا لسنا ملزمين في النهاية بتبرير هواجسنا أمام أنفسنا عندما نكون وحيدين في جزيرة معزولة، وعدم معرفة النائم الحالم بأنه نائم، لا تقدم ولا تؤخر في موازين القوى العسكرية الماثلة أمامه على أية حال. وهكذا وجدت نفسي أغفو وأنا على شبه ثقة تامة بأنني ما زلت يقظاً وبدرجة تكفي لكي أدرك بأنني نائم.

وهكذا استمر الشريط في رأسي شغالا أثناء الغفو مع أنَّ النوم شيء غير ذي مردود عملي مادي في الواقع. وفي هذه الحالة يقع اللوم على حقيقة لا بد من قولها تفاءلوا بالخير، أثناء نومكم وصحوكم وكلما سنحت الفرصة، تجدوه مع الاحتفاظ الكامل بطبيعة الحال بخط الرجعة دون الإغراق في التفاؤل، طالما أنَّ الصندوق ما يزال في مكانه الأمين العام للأمم المتحدة، والأمر هنا متعلق بالقاعدة بقدر ما يتعلق بالاستثناء، إذ بعد كل الذي جرى والذي صار أصبح الخير في خبر كان وأخواتها، وانتهى به الأمر إلى طي النسيان، هذا إذا ما وضعنا في الاعتبار مستقبل كل هؤلاء الذين تخربت بيوتهم وصار مستقبلهم كما يقال على كف عفريت من هؤلاء المتلهفين على تقاذف كرة مستقبل المنطقة، وهو الشيء المؤكد بعد أن خرج الأمر عن نطاق السيطرة وصارت القدمان مشلولتين تماما عاجزتين عن الاستجابة لأوامر الحركة اللاإرادية من مراكز الـ...أعني القضية التي يدقون لها طبول الحرب، وصارت حديث القاصي والداني في العالم، حيث نصب البعض أنفسهم قضاة وراحوا يستدعون الشهود ولجان التحقيق والمحلفين، وكان القاضي يجلس فوق المنصة مدلّى القدمين يغطي رأسه طنطور بشرابات حريرية مسترسلة على جانبي رأسه، وقد أكسبته لحيته المدببة مسحة من اللؤم تشع من عينين تبدوان، ويا للعجب، دافئتين. وراح يدق بمطرقته معلنا افتتاح الجلسة.

محكمة.

-استدعوا الشاهد الأول.

قال القاضي بما يشبه البغام،فصاح آذن المحكمة منادياً:

-الشاهد الأوّل الديّوس عبد العزّى مجهول اسم الأب. والمكّنى بأي الفواحش.

يحضر الشاهد يرتدي مريول تلميذة وقد برز نهداه يتقصّع بخلاعة.

القاضي: اسمك ومهنتك؟

-عبد العزّى ابن أحدهم خبير محترف وشاهد زور متجول لا يُقض مضجعي.....

-كفى. قال القاضي: أتقسم على قول الحق؟

-أقسم بمستقرقرارقاع أمي أن أقول الحقَّ، كلَّ الحقّ، ولا شيء غير الحقّ.

-ماذا تعرف عن المتهم ذي البزة الرمادية المولع بالمسخرة ذاك؟

-نعم يا سيدي أعرف. فنحن اليوم فوق التراب ولا يدري أحد أين سنكون غدا. والدنيا، كما يقولون، لا تغني عن الآخرة، وقالوا في شعر الحكمة: دمّث لجنبك قبل النوم مضطجعا.....

فقاطعه القاضي:

-وهل أنت ماعز لتفعل ذلك يا ابن الكلبة؟

-لا يا سيدي ولكنهم قالوا ذلك قبلنا وكما تعرف سيادتكم أنَّ من عمل صالحا، كما يقولون، فلنفسه ومن أساء أنت تعرف الباقي.نعم يا سيدي أنا أعرف المتهم الماثل أمامكم (يشير بأصبعه نحو ممثل الادعاء العام) سكّير لا يشق له غبار. وذلك بحسب اعتقادي راجع إلى أنَّ المشيئة الربانية لغرض ما، أرادته هكذا. فنحن يا سيدي كما تعلم لا نختار مساراتنا ولا آباءَنا، ولو كان الأمر كذلك لاخترت أبا رغال والداً لي، نعم يا سيدي هو سكّير خمير خنذيذ حنذيذ سيئ الرائحة وسيئ السمعة.

هيئة الادعاء تهبّ واقفة تهتف.

-ظهر الحق ظهر الحق. الله أكبر أغرقوه بحامض الكبريتيك يا سيدي، فذلك قليل عليه أغرقوه، ذوّبوه.

القاضي: يغطس المتهم في برميل من حامض الكبريتيك المركز الساخن بناء على التماس الادعاء بعد تقديم سائر الأدلة، والاستماع لأقوال باقي الشهود المحترمين. مع ملاحظة أن يتم الإغراق حتى تفاحة آدم لمنتصف عنق المتهم لكي تتاح له إمكانية التنفس...

الشاهد الثاني سيدة في منتصف العمر تبرز فجأة من بين الجموع وتهتف صائحة:

-أنا أيضا أعرفه يا سيدي القاضي. فقد كان بشعره السبط يغوي النساء الكيّسات الطيبات. والمسكينات، كما تعلم يا حضرة القاضي سهلات الاستدراج والوقوع في حبائل أمثاله من الغواة الغاوين الفاسدين. والشاهد على الثعلب ذنبه كما يقولون في الأمثال. كنت أدرك ذلك من نظراته المغوية التي تلهي الأمّ عن رضيعها، فإذا لم تطيحوا برأسه على المقصلة فإنَّ أمي لن ترتاح بقبرها لأنها اعترفت لي أثناء موتها بأن المتهم كان ينصحها باستخدام الـ....

وهنا قاطعتها الأصوات التي ضجت بها القاعة تتصايح: «ماذا استخدام ماذا؟» وحدث ضجيج وصخب واستنكار وضراط وضحك وسعال وبغام وهتافات: خوزقوه يا سيادة القاضي اجعلوه يقعد على الخازوق.

القاضي: سكوت سكوت. ثم يلتفت صوب كاتب المحكمة وهو يضرب بمطرقته سكوت من فضلكم. يقول للكاتب: سجل يا بني. سجل يقعد المتهم على خازوق قانوني من الصلب المُجَلفن بالنيكل أو

الخارصين. فإذا لم يتيسر الخازوق الشرعي، فعلى زجاجة كوكا كولا أو بيبسي كولا. ما تيسر منهما على أن يتم التنفيذ بعد الاستماع لباقي الشهود.

عند ذلك دخل شاهد بملابس الجنتلمان على إحدى عينيه مونوكل وفي يمناه عصا من العاج الخالص.تنحنح وقد صمتت القاعة تماما وقال:

-هل تسمح لي سيادة القاضي بالإدلاء بصوتي؟

-تفضل سيادتك فالمنظر يغني المحضر. تفضل. كرسي للشاهد.! ماذا تشرب سيادتك سادة أم سكر زيادة. ضم الشاهد فخديه على بعض بخجل ووضع كفيه متطابقين بينهما بحياء الأطفال اللذين أفسدهم الدلال احنى رأسه مائلا برقبته بدلال، وراح يبسبس على استحياء بخفر العذارى.

-أنا يا تيتا ما بشرب أثناء تأدية الواجب.

-عليّ الطلاق لأنت شارب.

-أوصتني ماما ألا أشرب غير حساء السعانف الذهرية لسمك الكرش.

فصاح القاضي بهيئة المحلفين:

-أوصوا على طلبية مستعجلة من حساء الزعنفة الظهرية للقرش.

وهنا دخل شاهد آخر يشبه الأول بعصا وبدون مونوكل فرفس الشاهد ودفعه خارجاً وجلس مكانه قائلاً:

-أنا أنوب عن الشاهد السابق يا سيدي.

-تفضل يا حضرة الشاهد.

-أنا أعرف المتهم حق المعرفة، كنا زملاء في الروضة وفي دراسة علم اللاهوت، وكان يقول «أتساءل ما إذا كنتم تعانون من المزاج الكئيب الذي نعانيه نحن».

القاضي ينظر للشاهد من فوق نظارتيه بعينين متشككتين:

-وبماذا كنت تجيبه يا حضرة الشاهد ولك كل التقدير؟

-كنت أقول إنَّ كآبتنا ناتجة عن أنَّ كل مشاكلنا محلولة.

القاضي يعود للسؤال بنفس الحركات:

-ولماذا كنت تسمع لأمثال هذا الفاسق؟

-سيّان عندي إذا ما كان محدّثي عاقلاً أم مجنونا طالما أنّني سأظل على ما أنا عليه.

-أناني. يهمس القاضي لنفسه، ثم يرتفع صوته: وماذا كان يقول لك عن الاكتئاب عندنا؟

-كان يقول: عندنا لا تطلع الشمس إلا وقد وجدنا من يستحق الترقية لعثوره على مشكلة في الحل الذي كنا قد أنجزناه في اليوم السابق.

-هل هذا ما كان يقوله حقاً يا لاهوتي! استمر إذا أحببت. فأنا كلي آذان صاغية لكل ما تجود به قريحتك.

-أتمنى يا سيدي أن أراه متدلياً من هذا السقف بأنشوطة رباعية حول عنقه، فالمفسدون في الأرض هم وحدهم من يفكرون على هذا النحو...

-لا تقتل نفسك كمدا يا سيدي. فالقاضي لا يسمح بالاستمرار على تلك الحال طويلا. سيكون طلبك قيد التنفيذ يا سيدي الشاهد.

فرّد الشاهد مذبل العينين حياءً وخفرا «شكرا يا سيادة القاضي. ثم حمل عصاه وغادر.

شاهد يدخل متبخترا:

أين هي العدالة يا صاحب العدالة؟ وهنا تدخل وراءه مجموعة من ذوي اللحى يلفون حقيّهم بالوزرات ويعتمرون طاقيات من الخيوط مشغولة باليد ويمتشقون السيوف والسكاكين والمُدى ويصيحون بصوت واحد مُلحَّن

تفضلي.. تفضلي.. تفضلي.. تفضلي

فدخلت امرأة ذات بهاء. وركاء. تجر وراءَها فضل حرير مباذلها

القاضي: اسمك ومهنتك:

أنا قبيحة أم الخليفة.

-ولماذا اسمك قبيحة يا سيدتي.

-حتى لا يطمع بي غلمان القصر.

-ما هي قضيتك يا سيدتي قبيحة.

فرفعت يدها بالدعاء وراحت تدعو:

-اللهم اخزِ هذا المتهم صالحاً بين وصيف.

جوقة ذوي اللحى يرددون:

-أمين.

-كما هتك ستري.

-آمين.

-وقتل ولدي.

-أمين

-وبدد شملي

-آمين

-وأخذ مالي.

-آمين

-وركب الفاحشة مني.

-آمين

القاضي يسأل المتهم:

لماذا فعلت بالمدام كل هذا الذي تقول؟

المتهم يقف في القفص ويقول:

-كنا نطلب أرزاقنا من ابنها فقيل لنا إنّه ليس في بيت المال مال، وطلب من أمّه هذه أن تعطيه شيئاً مما تكنزه فأنكرت وقالت: «ما عندي شيء»

فأخذنا الفؤوس ننقر حيطان بيتها نطلب الموضع الذي تستتر فيه مالها خلف غطاء الفرن، فوقع فأس على مكان استدلينا بصوته على ما فيه فهدمناه فإذا نحن وراء باب.

فتحناه ودخلنا فوجدنا المال على رفوف زهاء مئة ألف دينار، ووجدنا ثلاثة أسفاط في أحدها مقدار مكوّك من الزمرد الذي لم يُرَ مثله قط، وفي الثاني مكوّك من حب كبار اللؤلؤ، وفي الثالث مقدار كيلجة من الياقوت الأحمر، قُوّمت فكانت قيمتها ألفي ألف دينار.

فتعجبنا مما رأيناه وقلنا هذه الفاعلة تترك رأس ابنها للسيف ولديها كل هذا؟

القاضي يسأل:

-هل صحيح ما يقوله المتهم؟

فترشق شالها على كتفها بغضب وتغادر دون أنْ تجيب وفي أعقابها حاشيتها من ذوي اللحى.

شاهد آخر يدخل يرتدي حلة من الجوخ الأحمر المقصّب وفي قدميه نعل بأصبع ويرفع عقيرته صائحا:

-نعم يا سيدي كان ينغص علينا عيشنا ويحرمنا من لعب الورق تسليتنا الوحيدة. يقول إنّه حرام. ابن قحبة يتقاسم مع السلطان كل ما أنعم الله به عليه. حسود ومبغض ووافر الحظ. حظه في السحاب وعقله في التراب. وهو من مواليد برج الثور، تتوحم عليه الثيّبات خاصة و... فقاطعه القاضي:

-وماذا عن الأبكار؟

الحق يقال يا سيدي. ليس في سيرته الذاتيّة ما يشير إلى أنَّه يرفع الكلفة عن واحدة من حريم القصر، ويمكنني في هذا المقام أن أشهد وأنا مطمئن البال، سعيد الضمير، إلى أنَّ المتهم الذي يشبه سمكة الحش لم يكن يستثنِ أحداً.

-هل تعني سمكة الحفش يا ولدي؟

-لا يا سيدي بل الحش أعني الحفش القزويني.

رفع القاضي حاجبيه متسائلا:

القزويني المؤرخ؟؟

-بل البحر يا سيدي.

يدخل الجنرال بياقة عليها أربعة نجوم ويؤدي القسم.

-شيوعي يا سيدي يحترف تلفيق الإشاعات بحقّ الغافلات المحصنات من الحكومات الرشيدة الساهرة على توفير أمن الوطن ومن المأكل والمشرب والسجن والقبر اللائق بما يتماشى مع متطلبات التنمية وحقوق الإنسان المنصوص عليها، وأقسم يا سيدي أقول هذا وأنا أتمزق من الحسرة أنه يصف تقاليدنا التي نحرص عليها كأرواحنا بأنها «تزني عندما تشبع وتزني عندما تجوع»، وأنا من موقعي هذا أطالب بشنقه؛ لأن وطناً لا يجازي أمثاله بالشنق من رقبته، هو كالجلاد دون كرباج، أو كحذاء الجندي دون رباط...

-يشنق المتهم برباط حذاء من نوع أديداس.

يدخل شاهد يترنح وقد تعتعه السكر

-هل يسمح لي سيدي القاضي بالإدلاء بصوتي؟

-تفضل يا ولدي فأنت في رهاب العدالة.

-هذا المتهم الماثل أمام عدالتكم أعرفه جيداً. متقلب المزاج وصاحب خدع لا يستقر له قرار. تجده مرة كالترياق ومرّة مثل مرق الذباب. وأنا أعتبره مسؤولاً عن التلاعب بأسعار النفط وإفلاسات الدول وسقوط حلف وارسو وأعتبره مسؤولاً عن ثغرة الدفرسوار وكامب ديفيد بكل ملحقاتها ونتائجها، يعمل كالسوس على شق وحدة الصف العربي.

هيئة الادعاء تصطف كالكورس وتبدأ بالإنشاد:

اشنقوه على السارية... اشنقوه

لا تأسفوا عليه

وهناك علّقوه

حيث لا يمكن الوصول إليه

اشنقوه من خصيتيه

تدخل شاهدة بدينة تشدّ عباءتها على مفرق شعرها وتلوح بيدها:

-لا تظلموه يا سيدي القاضي. انظروا إلى وجهه، إلى حركاته،انظروا إلى أذنيه وإلى صحيفة سوابقه الناصعة. وكما يقولون في الأمثال فإنّ «المسافة بين الخرافة ووثائق ويكيلكس ليست بالاتساع الذي نتصوره. وأنا أشهد بحادثة محدّدة شاهدتها بأم عيني ويصعب عليّ إدارة ظهري لها. فقد جاءني هذا المسكين في المنام على هيئة فيل أبيض تفح منه رائحة الكافور ويمد خرطومه نحوي... فتعوذت من الشيطان الريجيم فتحول الفيل إلى صورة المتهم-بسم الله-وأخذ يراودني عن نفسي. وللحق أقول أنه كان ساعتها قليل الحياء... و... و...

صيحات استهجان واستنكار تضج مالئة القاعة تتداخل فيها الأصوات من شهيق ونهيق وعواء وثغاء:

هل نال منك... هل نال منك... هل نا... الخ

الشاهدة ترد بحياء وانكسار:

-لا.

القاضي يضرب بالمطرقة بعنف صائحا: سكوت.

نحكم بتعويض الشاهدة على كل ما لحق بها من إحباطات وأضرار مادية ومعنوية.

تدخل شاهدة كهلة تتوكأ على عصا محدودبة الظهر وتوقيء كالدجاجة.

-كان دائم الإزعاج للجميع. يسترق السمع على ما يدور في حفلة سيدنا السلطان تيتانوس في ليلة الزعفران.

أذكر جيدا. كنت أقوم بدور الخادمة بعد ذهاب عافيتي والاستغناء عني. ليلتها بصقت إحدى الخادمات في وجه السيد وقالت له: أنت رمّة.. أنت جيفة.. فسمعنا ضحكاً وراء الباب. فتحنا الباب فإذا هو كامن يتلصص على تعهرات ولي نعمتنا. كانت ليالٍ لا تغيب عن الذاكرة. تتنهد العجوز بحسرة لذكرى أيام زمان، كان دائم التشمم للخادمات... الأيام الحلوة لا تدوم.....

-من الذي كان دائم التشمم؟

-مولانا التيتانوس له الرحمة ولكم من بعده طول البقاء. الفاتحة على روحه.

يبسط الجميع أكفهم وتُقرأ الفاتحة على روحه الدنسة.

شاهد جديد.

-كان دائم التزوير للسحب على أرقام اليانصيب.

-كيف؟

كان يضع الرقم الفائز في كرة مبرّدة دون سائر الكرات.

ويطلب من الطفلة البريئة أن تسحب الكرة الباردة أمام عيون الجميع وكان يفوز دائما.

جعل عشيقته تفوز مرّة. وعندما رفضت أن تقاسمه، طلقها يا سيدي، طلقها ثلاثاً.

-ومن يقيم أوَدها الآن؟

-أظنه عرص جديد صار محل ثقتها.

شيخ خفيف السمع ينبري صائحا:

-من هو ابن القحبة الذي يتحدث من مركز ثقلها؟

الادعاء يوضح:

-يقول محل ثقتها.. ثقتها وليس مركز ثقلها.

-آه فهمت مركز ثقتها.

القاضي لهيئة المحلفين:

يا سادتي الحضور، الإناث منكم والذكور، لا حاجة بنا لكل هؤلاء الشهود ليؤكدوا لنا ما تعرفه جميع أمهاتكم في قبورهن بأن أبناء الزنى يعرفون بسيماهم وأنّ هذا الماثل أمامكم ابن زنى عريق...

ممثلو الادعاء يصيحون بالقاضي:

أنت تشير إلى سيدنا الوالي يا سيادة القاضي.

محلف 1-من كانت هذه سيئاتهه فليُخْصَ. ماذا إذاً؟

محلف 2-كلاب البحر الرمادية أجدر بالشفقة منه.

محلف 3-من يسعى بظلفه إلى حتفه لا يستحق الرأفة..

رئيس هيئة الادعاء يمسح شيئاً وهميا عن أكمامه ويتحسس نعومة طيلسانه، يتقدم ويقول:

-ليسمح لي سيدي القاضي بأن أعضه عضة مؤلمة. ولن أقول أين، حتى لا أخدش حياء الحضور.

القاضي: لا يمكنني التغاضي عن الحفاظات التي تحول دون ذلك قانوناً. أعني التحفظات التي تمنع ذلك. ولهذا فإنّ عدالة المحكمة ترفض طلب الادعاء.

شاهدة: انزعوا عنه الحفاظات ليصبح طلب الادعاء ممكناً.

القاضي: سدي بوزك.

تتداخل الأصوات ماسوني ماكر... ليبرالي عميل... مجوسي منافق أناني يكره كرة القدم، شيوعي مارق،لعين خائن، ديمقراطي عفن. تتدخل مطرقة القاضي لإسكات الجميع.

فيظهر شاهد يقول:

-سمعته مرّة يقول بأن قلبه في صدره مثل ثعلب محبوس في قفص.

القاضي يقفز من فوق المنصة صائحا:

-هل قال ذلك حقا؟؟؟

-نعم يا سيدي وأعلن ذلك في الصحيفة.

-القاضي نأمر بالرجوع إلى العدد المذكور من الصحيفة للتأكد من صحة الواقعة.

المتهم يرفع يده ويتكلم لأول مرة:

-هل يسمح لي سيدي القاضي بجرعة من الخمر أبلّ بها ريقي؟

تفضل يا ولدي الدار دارك والشراب شرابك.

يقف المتهم ويبدأ الدفاع:

-رعاك الله يا سيدي وخلاك ورفع عنك الكرب وعافاك. وأبقاك وهؤلاء الشرفاء الحضور ذخرا لهذا الوطن الآمن وللأمتين العربية والإسلامية ولذوي الاحتياجات الخاصة ومحدودي الدخل.... ولسائر الدول النامية ودول عدم الانحياز ودول الكومونولث وحلف الناتو وحلف وارسو المنحل

وحلف الفضول وسائر الأحلاف والتجمعات الدولية والإقليمية كدول مجلس التعاون والاتحاد المغاربي ودول الآسيان ودول النافتا ومجموعة الدول المصدرة للنفط أوبك والمعتقلين السياسيين في زنازينهم والموقوفين على ذمة التحقيق بجرمة القدح وللفلاحين المنهكين الكادحين في قراهم وللعاملين في مصانعهم وللبدو في مضاربهم ولجميع فئات وفصائل الثدييات والطيور والزواحف والبرمائيات والأسماك والحشرات والعناكب والعقارب وعديدة الأرجل كأم أربعة وأربعين آمين.

كاتب المحكمة:

-صح لسانك.

القاضي: ترفع الجلسة ريثما نشرب نخب المتهم.

وفيما راح الجمهور يتبادل الأنخاب انصرف المحلفون الموقرون الذين يحرم عليهم قانونا، وبنص صريح لا لبس فيه، تعاطي الخندريس أثناء التداول، انصرفوا لبحث القضية مسترشدين بتعليمات القاضي المتعلقة بضرورة مراعاة الدواعي الأمنية.

محلف 1-كيف حال أبيك؟

محلف 6 – ما زال ميتا.

محلف 1-وأمك؟

محلف 6-بلا عقل تقريبا غافلتنا فجأة وخرجت إلى الشارع وطلبت من سائق التكسي أن يوصلها إلى قلب المدينة، إلى السوق، ولما وصلوا سألت السائق أين الحجر الأسود. تبين أنها تريد المدينة المنورة، فعاد السائق بها إلى حيث وجدها وسلمها للشرطة للبحث عن أصحابها.

محلف 11-ما أسرع ما يفقدن عقولهن.

محلف 8-ويفعلن الأعاجيب في شبابهن.

محلف 4-وأبوك ما زال على عادته.

محلف 11-تطورت حالته وصار ينتف حاجبيه عند الكوافير. كل يوم بعد صلاة العصر نوصله إلى هناك.

محلف 2-أما زال يرفض الرضاعة قبل النوم؟

محلف 8-استأجرنا له مرضعة.

محلف 1-كان ذلك على سبيل المزاج فقط.

محلف 4-لا بل إنّه وسخ وابن قحبة وأنت تقصد ذلك.

محلف 13-وكيف كانت سهرتكم بالأمس؟

محلف 22 – رذيلة.

محلف 18-هذا هو ما أقوله لك ليس هناك طريقة ناجحة غيرها.

محلف 21-الناس لا يتذكرون إلا الأعمال السيئة.

محلف 2-الجيدون صاروا تحت التراب.
محلف 1-نعم رسا علي المزاد. ديك بين الدجاج.
محلف 14-كل خراك يا ابن القحبة.
محلف 8-كلمة الحق يجب أن تقال.
محلف 9-ذات نكهة خاصة. نعم. ذات نكهة لم أعرفها من قبل.
محلف 3-لست أدري خرج منها كالشعرة من العجين.
محلف3-مرة أخرى: رائحتك مقززة يا أخي.
محلف 1-والجلوط أمه.!
محلف 18-ما تزال تزرع بذور الملذات.
محلف 15-العيب كل العيب في الأجهزة الأمنية.
محلف 5-وأنام على السطح دائما.
محلف 8-وكيف كانت الوليمة؟
محلف 2-ضربوه بالنعال حتى أفاق.
محلف 13 – مضجرة.
محلف 15-هذا يتوقف على درجة دناءتك.
محلف 7 – يقهقه.
محلف 13-ويعتبرون النجاسة عيباً.
محلف 5-لا يمكن لأحد الوصول إليه... أقسم بالطلاق ثلاثاً.
محلف 1-وهو فوق ذلك ابن قحبة مرموق لا يخرج منه بشيء.
محلف 8-كانت ظروفها مواتية.
محلف 9-دائما مستعدة..
محلف 7-يستحقون ما يحدث وأكثر.
محلف 9 – لا فرق بين جمعة وخميس.
محلف 4-بغيّ تشد لها الرحال.
محلف 22-تتقنه طبعا..
محلف 10-هي هكذا، أقول لك. تبدأ ليلتك جندياً وتخرج منها برتبة جنرال.
محلف 5-ليتني كنت هنالك. لكن ألم المعدة لم يمهله طويلاً.
محلف 2 – مات؟؟

محلف 7-لست معنيّاً بشيء من هذا.
محلف 1-لماذا لا يضع نعاله في فمه ويخرس إذاً؟
رئيس المحلفين:
لندع القانون يأخذ مجراه إذاً...
محكمة...
هتف الحاجب فوقف الجميع صموتاً. أشار لهم القاضي بالجلوس.
القاضي لهيئة المحلفين مترنحاً:
-هل توصلتم إلى قرار؟
-نعم... مذنب.
القاضي.
حكمت المحكمة حضورياً بجلد المتهم على إليته أربع جلدات هيّنات.
رُفعت القعدة.

- 13-

أفقت في الصباح شبه متيبس، بعد تلك الأحلام الفظيعة، على ضجيج وراء النافذة لم أعره اهتماما للحظات. وكدت أنسى، للحظة، ما أنا عليه فشتمت في سرّي دار (أبو علي) على ضجيجهم الدائم. متخيلاً أنّي ما زلت أعيش أيامي الغابرة. وما كان لهذا الشعور أن يستمر لغير ثوانٍ أفقت بعدها على الواقع فخرجت أستطلع الأمر.

كانت الشاحنة قد وصلت وبدأوا بتسفيط أغراضهم. وكان الصغار غادين رائحين يحملون ما يقدرون عليه، صامتين كحاملي النعوش. صعدت إلى صندوق الشاحنة وبدأت أساعد في التحميل. الثلاجة هنا والتلفزيون هناك منخرطين في تفصيلات تنسينا الواقع. حركات إجرائية طابعها استبعاد الجانب المأساوي

وأخيراً صعد الأولاد فوق الأثاث مع بعض كلمات وداع فاترة، لم تستطع أنْ تخترق كرة الصداع الرصاصية التي تملأ رأسي.

وما إن ابتعدت الشاحنة، بين صداعي وتلويح الأولاد، حتى غمرني هذا الشيء الذي لا اسم له من نشيج الالتياع «يا إلهي كم صرت وحيدا»! مهجور وحزين.

دخلت البيت. فأخذت حماما أعاد لرأسي بعض الصفاء. وبحثت عما يمكن أكله فوجدت الأرز في علبة معدنية. حاولت أن أتذكر خطوات الطبخ الروتينية كما كانت تؤديها زوجتي، فلم أتذكر شيئا، وضعت قدر أوقية من الأرز مع قليل من الملح والبهار وفوق كل ذلك فنجاناً من الزيت، ثم غمرت الخليط بالماء ووضعته على النار. وبدأت بإعداد القهوة. كان طعمها أقل جودة مما عرفته بالأمس. وإن هي إلا بعض ساعة حتى كان الأرز كتلة سميكة متماسكة كالعصيدة ولا بأس بالمذاق.

تناولت وجبتي في المطبخ من الطنجرة إلى الفم مباشرة. وهكذا أغلقت صفحة الجوع وفتحت صفحة أخرى. ما يجب أن يكون؟ وكيف ستسير الأمور؟ وبأي ترتيب؟ وقادتني سلسلة الحركات العشوائية التي لا أعنيها إلى اكتشاف كيس من اللحم المجمد في الثلاجة. كمية لا بأس بها عمرها شهور، وتكفيني لثلاثة أيّام. جميل. فدوري في العبور قد لا يحين قبل أربعة أو خمسة أيام.

أزحت الطباخ قليلا. وفتحت الغطاء المعدني. كان الصندوق في مكانه أخرجته ورحت أستعرض المحتويات مما يزيد عن الكيلوغرامين من الذهب النفيس. لست في عجلة من أمري على أيّة حال. سيكون الصندوق في مأمن في مكانه، بقاؤه حيث كان سيظل أفضل الخيارات ريثما يحين دوري في ركوب العبارة. عندها فقط أستخرجه وأتدبر الأمر. لأنني سأكون في أواخر الراحلين. أعدته إلى مكانه وأحكمت إغلاق الغطاء، وأزحت الطباخ فعاد كل شي مثلما كان.

خرجت أتفقد دار رحّال.

كان الباب موارباً. دفعته ودخلت. كانت صدمة. وسمعت صاحبي بنغمة خفيفة من السخرية يقول: «عشت حياتك كلها تعاني من الغَفْلة وستموت بها. ويتوجب علي القول بأنك في حاجة إلى

المواساة فيما جئت تبحث عنه. ما تطلبه لم يعد موجوداً. ووجدت نفسي ألتزم السكوت أمام عملية السطو هذه.

كانت الأشياء كلها مقلوبة والكتب تفرش الأرض. فتشتها كلها. فررتها من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين. نفضتها. وتحسست الأغلفة. أزحت خشب الرفوف أبحث وراءَها. ربما طريقته في إخفائها أوحت للص بأهميتها. ضاعت البرديّات التي لا تقدر بثمن. لا أعرف إلى أين سيصل بها اللص؟ كما لا أعرف من أين جاء بها صاحبي؟ أما الجمجمة فقد كانت هناك ملقاة بإهمال في الزاوية رأيتها تضحك للمفارقة

واصلت توبيخ نفسي على ما لا يد لي فيه. كان ضميري يقظا تماما رغم أنني في ساعة الضحى، وهي ساعة تعودت أن أجدها محبطة وعلى درجة فريدة من الرتابة تجعلها لا تصلح للتأمل ولا حتى للابتهال. تجعلني دائم التطير. وخير للمأزوم أنْ يكون في عز الظهيرة من أن يكون في ساعة الضحى أو ساعة العصر التي أعتبرها بدورها من أتفه المواقيت. يلزم للواحد الكثير من الصبر لكي يتجنب تراكم الضجر فيها. ناهيك عما يجيء به الضحى عادة من فراغ العقل. ولست أبالي إذا لم توافقني الرأي، بأنّ أسوأ الساعات هي تلك التي نقضيها بعقل فارغ حيث يستوي فقدُ الأشياء مع العثور عليها. وحيث يدفعك السأم إلى أقصى مداه. فتتخيّل أنّك تملك سعداناً ترابيَّ اللون تربطه إلى سارية فيفلت من رباطه ويفّر هارباً منك. فماذا أنت فاعل عندها؟ هل تركض لاهثاً وراء سعدانٍ هارب؟ لا ضرورة لمزيد من الإيضاح بأنك لن تكون نادما عليه إذا اختفى. ولكننا في المحصلة النهائية لا بدَّ أنْ نعترف بأن كونك صاحب سعدان ضائع خير من أن تكون بدون سعدان نهائيا، آخذين بعين الاعتبار أنَّ وجودك في حدود الساعة الحادية عشرة حيث «يا إلهي!! صف الشاحنات لا ينتهي».

وجدت الطابور ما يزال عظيما رغم عبور وجبتين أو ثلاثٍ منذ أمس.

انتحيت ركنا معزولا وأوقفت السيارة. وبينما ساقي اليسرى تخرج وتلامس الأرض، أصابتني نوبة داهمة من التفكير في مصير أوراق البردى، طيرها من رأسي المدعو (ط) البدين كثور، سقطت أسنانه عدا اثنتين تبرزان عندما يجرفه الحماس في الحديث عن بطولات رجال البحر القدامى. وهو غالبا صافي الذهن إلا عندما يبدأ بتهديدات أولاده بطلاق أمهم المقعدة ثلاثاً. فالمسألة عنده أكثر يسرا من شراء سمكتين من السوق. حدثني بعضهم أنه بالغ ذات مرة بتعداد بطولات جده البحرية بطريقة استفزت أحد مماليك السلطان الذي كان حاضرا (المملوك وليس السلطان). فما كان منه إلا أن خلع نعله وراح يلطم ذلك المتفاخر أمام الأسياد الذين يجب أن يحتكروا كل شي حتى الشجاعة والنذالة وسائر المشاعر المعروفة، ويمتلكوا السماوات والأرض وما بينهما.

وبالتأكيد ليس لهذا السبب وحده، ظلّ الرجل قصير القامة بطريقة لافتة، رغم أنني لم أكن قادرا على تصور سبب معقول يفسر طول قامات أبنائه في تلك الساعة؛ لأنه حتى الناس الذين نتذكرهم في الظهيرة يمكن أن يكونوا طوال القامة مثلما نتذكرهم ساعة العصر. فكثيرة هي الأشياء الجديرة بإعادة النظر كالمغامرات التي قام بها الدون كيشوت والتي تشكلت على ضوئها دوافعه الحقيقية لاجتراح المعجزات. فالإيمان المسبق بالشيء كاف لتفسير كل ما يلحق به من طيش أو من عبقرية. وضياع البرديّات يمكن أن يُسلك في مثل هذا السياق. و«هَهْ» يمكن أيضا فهم المغزى بالنظر إلى ذلك المسكين على ضوء كونه مسكينا بفكه السفلى الناتئ وهو مشمور الثوب من الأمام

مثل من يهمُّ برفع قفير من السمك، ويلف حول وسطه حبلا مجدولا معقودا عند أسفل السرّة لا تراه العين إلا مسرعاً قد تركز كل همه في ساقيه..صياد غاب اسمه عن بالي يواظب على الخروج يوميا إلى الشاطئ لمشاهدة صيادي الصنارة العائدين بنصف دزينة من الأسماك. عندما يحالفهم الحظ تتدلى الأسماك على صدورهم وظهورهم من حزام يعلق على الكتف وينتهي بخطافات عديدة تتدلى منها الأسماك. وهناك يأخذ الرجل بمعاينة عيون الأسماك اللامعة وارتعاشات ذيولها. وعندها، وعندها فقط كان ينصحني بشراء واحدة أو اثنتين لأنها صيدت تواً.

يقول هذا ويبثني ابتسامته التي أقابله بمثلها أو بأحسن منها. ليست له أيّة عيوب يمكن مؤاخذته عليها، مع افتراض حسن النية، سوى أنّه قليل الاختلاط بالناس، وأنني نسيت اسمه. مرّ وحياني بحرارة قاءلاً: «مرحبا يا أستاذ».

التالي في الدور هو راشد وهذا هو كل اسمه وهو أكثر من كاف لشخص في مثل حالته لا يحتاج أحد لمعرفة بقية اسمه؛ لأنَّه راشد وكفى. وهو أيضا صاحب وجه يشي بالفقر. فوق عنق تبرز منه تفاحة آدم كالنتوء. ولكن نبرة صوته العميق تغري بالظن بوجود قدر لا بأس به من الصمود في وجه الزمن لديه. غير أنَّ حقيقة نواياه أقل تواضعاً وسطحية مما يوحي به صوته العميق. وابنه الأوسط المصاب بالصرع قلّما يتسبّب بأيما قدر من الإيذاء لأحد...

الثاني مرسيدس بعادم أمامي ضخم تبرز فوهته فوق كابينة القيادة على يمين السائق. والشكل غريب بهذه المروحة الأمامية المستديرة تبرز في صدر المحرك بلونها الفضي «للتبريد لا بدّ». كابنية بحجم غرفة صغيرة بلون سيانيدي مع شراريب من القطيفة الحمراء تتدلى فوق حافة الزجاج الأمامي فوق رأس السائق المستغرق في النوم. وفوق كل ذلك ثمة عربة أطفال صفراء بعجلتين أماميتين صغيرتين وخلفيتين كبيرتين مطوّية حول مفاصل قضبانها المعدنية كالصندوق (سوف تتدحرج) بردّ الفعل مع أول حركة للشاحنة إذا كان تقديري صحيحاً. موضوعة فوق أكداس الأثاث بطريقة، يرى حتى الأعمى، بأنها كانت متسرعة وبلا دراية. «لو كنت مكانهم لجعلتها مقلوبة: عجلاتها إلى الأعلى وقضبانها إلى الأسفل. فذلك أضمن ألا تتدحرج. مصيبة إذا وقعت على رأس أحدهم ربنا يستر» و«هَه!!» ها هو زوج الأخت الكبرى غير الشقيقة لابن نعجة. معلم أولاد ينتهي علمه عند سورة "النبأ" التي يسميها سورة"عم". متقاعد قديم بلحية عريضة محناة وجبهة شديدة الضيق فوق كتفين عريضين يصلحان للثور. وهو تاجر حالياً ولا يثق باستخدام الميزان الرقمي باعتباره بدعة، ويصرّ على استخدام الميزان ذي الكفتين ويخسر فيه قليلاً. وهو على علاقة وثيقة بمفتشي الجمارك. يملك حسّ الثعبان، ويتحلّى بطباع كلاب الحراسة بشكل يَعزّ نظيره. يكره علم الآثار ويعتبره انتهاكا لحرمة الموتى.. رمقني بنظرة حقد مركزة صافية ثم بصق عن يساره وولاني قفاه...

ثمة سلة من البلاستيك الشبكي الأبيض مربوطة إلى العارضة مليئة بالتفاح الأخضر «من أين جاؤوا به؟حتى في زمن الانهيار لا يعجزهم شيء». وثمة طفل يحجل على ساق واحدة داخل مربعات مرسومة بالطباشير على الأرض، وثلاثة آخرون يرمقون سلة التفاح وينتظرون دورهم لالتقاط قطعة الرخام الرقيقة والقفز بين المربعات. نهرتهم: «لا تلعبوا في الشمس». رقيقة مثل نبات اللاجاوانتي: يرتجف ويذبل لمجرد وقوع ظل يد الإنسان عليه قبل أنْ تلمسه. رفض والدها الخاطب الشاب الذي تقدم لها لأنه كان يحمل اسم عمر.

شط بي الخيال بعيدا فرأيت سفيرا يخرج لؤلؤة من كأس الشمبانيا وينحني للمضيف الإمبراطور الذي اعتاد أن يتحف ضيوفه بما يضعه في كؤوسهم من جواهر فيأخذونها شاكرين ينحنون بالجلال اللائق. لم ينجُ من قدره هو الآخر. جاءته العاصفة فلم يجد من يؤويه. عندما تستنفد أمريكا أغراضها منهم تلفظهم كالنواة. لم يجد من يلجأ إليه. فأثار كوامن أحزان أبي زبيبة صاحب «البيبه»، فقال «لا تبالي أنا أتكفل باستضافتك حتى يوافيك الأجل». توقع الجميع منه أن يترسم خطا معلمه الذي كان يعتبره بمثابة الأب الروحي. دفنه بدموع سخيّة في الظهيرة. وما إن جنّ الليل حتى خرج تحت جنح الظلام وتبرز على قبره. «هل تريدين كاساً أخرى يا سيدتي»؟ «دعك من هذا فلست بحاجة إلى مزيد من الإثارة».

في حدود الساعة الثانية بدأت عربات الجيش تتقاطر قادمة من الأطراف القصية للجزيرة. «لا يمكن الدفاع عنها. تحتاج إلى جيش كامل. والمعادلة المنظورة تشير إلى طرف يتقدم حثيثاً نحو القرن التاسع عشر، وآخر يستعد للحرب الكونية الثالثة بكل ما وصلته من جنون تكنولوجي وجيوش إلكترونية وليزريّة لا تحتاج من شجاعة المحارب أكثر مما يتطلبه الضغط على الأزرار. ومرّ بخاطري وجه صديقي وهو يقول: «يهزموننا أولاً ثم يعلنون الحرب علينا».

راحت عربات الجيش تصطف في طابور موازٍ، فاختلط حابل المدنيين بنابل الجند: سيارات نقل ومدرعات ومضادات رباعية للطيران تناسب الحرب العالمية الأولى، ومدافع مقطورة، أسلحة وذخائر وخزانات وقود صارت معها الجلبة لا توصف. ثم وصلت عبّارتان عسكريتان واصطفتا على الجانب الآخر من المرسى. وجاء عريف شاب يعدو لاهثاً يطلب الإذن بإنزال بعض الجرحى. وكان عدد منهم قد وصل بالفعل على محفات خضراء وضعوها بشكل صف إلى جانب شاحناتهم. كان الألم يعتصر وجوه الجنود الجرحى بصمت. ورأيت أحدهم يضع سيجارة في فم أحد الجرحى الذي كان يصف كيف أصيب. وكان سائقو الشاحنات المدنية يواصلون النوم في ظلال سياراتهم المحمّلة، وقد تعرى بعضهم إلا مما يستر العورة، فيما انحشر آخرون في الأركان الظليلة يتأملون بصبر أيوب فيما آلت إليه الأوضاع. بعضهم يوقد نارا صغيرة لإعداد الشاي أو لعمل وجبة صغيرة، ويتداولون الإشاعات الكبيرة عن موعد المعركة الفاصلة، ثم وصلت قافلة عسكرية أخرى فضاق المكان وعلا الضجيج فاستشاط أحد الجنود غضبا وأفرغ صلية من الرصاص في العجلة الأمامية لعربة مدفع فانكفأت على مقدمتها، وحدثت فوضى تخللها تشابك بالأيدي وتبادل للسباب بين الجنود أنهاها أحد الضباط بإطلاق الرصاص من مسدسه بين أرجل المتشاجرين. فهدأت الأمور قليلاً، وانفصل رجال السرية الأولى عن الثانية عندما وصل قائد الوحدة وأصدر أوامره للقادمين الجدد بلزوم آلياتهم. ثم أعطى الإذن للمشاة بالعبور فتدفقوا إلى عبّاراتهم يحملون الجرحى فيما كانت عبّارة المدنيين تطلق نفيرها إيذانا بإغلاق الباب. وبدأت محركات سيارات الجيش بالهدير. وعبرت أولى المدرعات، وراحت تتهادى بهبوط بطيء تلاه جئير يصم الآذان، عندما وثبت صاعدة من أسفل المنزلَق المائل الجانبين كأنّه الوادي. ثم عبرت مدرّعة أخرى فناقلة جند، تلاها مضاد رباعي فشاحنتان أخريان. وفقد سائق الثانية منهما سيطرته على الفرامل فانزلقت ووثبت كالأرنب وراحت تهتزّ بين منزلقي الصعود والهبوط كأنها لولب السرير، وانشطرت نصفين. وجاء بعض الضباط لاعنين يتصببون عرقا سرعان ما لحقت بهم آلية في مؤخرتها برج رافعة للسحب بخطافات حديدية فأوصلوا الخطافات بالشاحنة المعطوبة وراحت الحبال الحديدية تسحبها رويداً رويداً إلى أن تم إخراجها من حلق العبّارة.

وسرى الأمل بين الناس بوجود هاتين العبارتين العسكريتين، مما قد يضاعف عدد العابرين ويختصر زمن الانتظار.

وتذكرت كيس اللحم.

كانت الشمس على وشك أن تغطس في البحر عندما عدت إلى الحارة الصامتة. كنت قد اعتدت على خلو المكان ولكن لدى فتح الباب أحسست بشي يدعوني إلى الصراخ. صور الأولاد على الجدران بدأت تلاحقني وشيء ما فيها يتململ ويستغيث. ألعابهم المبعثرة، دفاترهم، أقلامهم، رسوماتهم، أحذيتهم الصغيرة بجانب الأسرة، بعضها مقلوب يذكرك برضيع ينام على بطنه. ملابسهم المعلقة أو الملقاة على حواف الأسرّة بإهمال. أشياء مثل غيوم باردة ترفرف روحها وتتجول فارضة نفسها مهما حاولت تجاهلها. لا شيء بدون ذاكرة حتى الحجارة والسحب. الذاكرة حاجة عضوية كالجوع والعطش. كتسوس الأسنان.

ساعة يد من النوع الرخيص الذي سرعان ما يضيّعه الأولاد ما تزال موضوعة على حافة الكومودينو، رفعتها بأصابعي فظهر مكانها نظيفا مرسوما بدقة وسط طبقة من الغبار الخفيف. بدا مكانها مثل ساعة مطبوعة على السطح الأملس. وكانت قد توقفت عند الرابعة والنصف تماما، زمن مبتور عند الرابعة والنصف.

أعدتها، بمنتهى الحرص إلى مكانها وسط طبقة الغبار محاذراً أنْ تستقر في مكانها المرسوم بدقة.

كانت الأشياء تنتحب بصمت. تنخرط كلها في جيشان إنشادي مثل جنازة حزينة. كانت عينا الدب القطني تحدقان بي. أكوالا. حيوان استوائي رقيق يوشك على الانقراض، تعودت صاحبته على احتضانه عندما تنام. أخذته أو سرقته منها مريم وأعادته بالأمس في فورة تفجّر عاطفي دفعتني إلى مداعبة طرف أذنه بإصبعي حتى أمنع نفسي من البكاء. رفعته وضممته إلى صدري ثم أعدته إلى مكانه مثل من يدفن أيامه الماضية. حقول الذاكرة تمتد أمامي بكل ما فيها من جبال وجروف ووديان وكهوف ومراع وأطياف وغضب وطيور وهزائم. وأثناء تجوالي وقفت أمام المكتبة. عناوين بالعشرات طالما أحببتها وقضيت معها الليالي.

داهمني الشعور بالجوع، فتذكرت كيس اللحم. وضعت اللحم على النار مسخدماً نفس وصفة الأرز ودخلت للاستحمام.

وتحت تأثير تدفّق الماء أخذت بترتيب الأمور على النحو التالي:

غدا أزور قبر تيسير ثم أعود فأنتقي الجيد من الثياب أضعه في السيارة. ما هو ضروري فقط. أمّا صندوق الذهب فسوف أخفيه تحت المقعد الخلفي.. ها؟ ولكنهم قد يفتشون تحت المقاعد.

ذلك أكثر الأماكن أمناً، لست أدري، قد يصادفني من يسأل من أين لك هذا؟

سأتدبر المسألة بهذه الطريقة في خزان الوقود.

نعم سأجعلها تنزلق قطعة قطعة.

وكان الليل قد استحكم تماما عندما خرجت من الحمام وعدت إلى المكتبة. سحبت الجزء الرابع من تاريخ الطبري، وأخرجت من وراء المجلّدات زجاجتَي ويسكي، وعدت إلى الصالة.

ومع الكأس الثالثة بدأ العالم، على عادته الرديئة دائماً، يتمايل من حولي. وراحت الذكريات تتقاطر فيما وقف التاريخ بكامل بهائه عارياً يتراقص أمامي: فجاء الواقدي والقزويني والمسعودي، وجاء الاصطخري وابن حوقل وابن كثير وبديع الزمان وابن عربي، وكان هناك ماركس وإنجلز وبرخت وماركوز وساراما غو وفوكنر وخوسيه، وسمعتهم يطلقون اسم برنيني على رجل بقفطان خمري من الدمقس، كان بعضهم يلتفّ حوله في زاوية الصالة. ثم حضر التيتانوس مع ثلّة من الأمراء والعاهرات والمماليك، وجاءت الراقصات والقيان، وضجّت الصالة. فملت برأسي نحو الطبري الجالس بجانبي، وقلت له حدثني. «عن أيّ شيء أُحدّثك يا ابن أخي»؟ «عن صاحب هذه الجمجمة التي تراها أمامك». كانت فوق سطح الطاولة ليس حولها شيء. تأملها مليّاً وقال «أهذا كلّ ما بقي من الفاجر»؟

-نعم حدّثني عنه. عن صاحب الزنج.

تناول كأسه وجرع جرعة كبيرة اتبعها بحسوة تمضمض بها ثمّ تجشّأ وقال:

«حدّثوني أنّه شَخَصَ من سامراء إلى البحرين مدعياً أنّه عليّ بن محمد بن الفضل المنتهي نسبه إلى عليّ بن أبي طالب، فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها وأبته جماعة أخرى. وكان بسببه عصبية قتل فيها جماعة، فانتقل إلى الأحساء، ونزل في حيّ من تميم. وكان أهل البحرين قد أحلّوه من أنفسهم مكان الخليفة حتّى جُبي له الخراج. ولمّا انتقل إلى البادية، صحبه جماعة منهم. رجل كيال يقال له يحيى بن محمد البحراني، ويحيى بن ثعلب وهو تاجر من هجر. وبعض موالي بني حنظلة منهم أسود يقال له سليمان بن جامع، وهو قائد جيشه. وصار يتنقّل في البادية من حيّ إلى حيّ. وذُكر عنه أنّه كان يقول: «أوتيت آيات من آيات إقامتي ظاهرة للناس.كنت ألقيت نفسي على فراشي أفكر في الموضع الذي أقصده، فأظلني ما يشبه السحابة بَرَقَت ورَ َعدت واتصل صوت الرعد بمسمعي يخاطبني: اقصد البصرة.وهذا ما كان.

ولما صار إلى البصرة لقيه غلمان رجل منه الشورجيين، يعرف بالعطار، وكانوا خمسين غلاما فتبعوه. ثمّ صار إلى الموضع الذي فيه النسائي، فلحق به خمسمائة غلام بينهم المعروف بأبي حديد، وأمر بصاحبهم فأخذوه مكتوفاً. ثم مضى إلى موضع السيرافي فأخذ منه خمسين غلاما فيهم زريق وأبو الخنجر. ثم صار إلى موضع أبي عطاء فأخذ طريفاً وصبيحاً الأعسر وراشدا المغربي والقرمطي وأخذ معهم ثلاثين غلاماً. ثمَّ أتى موضع إسماعيل غلام سهل الطحّان فلحق به عدد كبير. ولم يزل هذا ديدنه حتى اجتمع إليه خلق كثير من الغلمان الفَعَلة والسود وكاسحي السباخ من (ذوي الأعمال الوضيعة) فجمعهم وقام فيهم خطيباً، فمنّاهم ووعدهم بأن يقودهم ويرأسهم. وحلف لهم بأغلظ الأيمان ألا يخذلهم أمام أسيادهم. ثم دعا مواليهم من الأعيان وأصحاب القطائع وقال لهم: قد أردت أن أضرب أعناقكم لما كنتم تأتون هؤلاء الغلمان الذين استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرّم الله عليكم مما لا يطيقون... فكلّمني أصحابي فيكم فرأيت أن أطلقكم، فقالوا:

«إنّ هؤلاء الغلمان أبّاق. وهم سوف يهربون منك. فلا يبقون عليك ولا علينا. فخذ منا ما شئت من المال وأطلقهم لنا.

فأمر غلمانه هؤلاء. فأحضروا شَطَباً.ثم بطح كل قومٍ مولاهم وضرب كل واحد منهم خمسمائة شطبة.

ثم إنَّ الفاسق أحلفهم بطلاق نسائهم ألا يعلموا أحداً بموضعه، وأطلقهم. فمضوا نحو البصرة وأخذوا ينذرون الشورجيين ليحرزوا غلمانهم وعبدانهم ومواليهم، وكان فيهم خمسة عشر ألف غلام.

- حكايتك مليحة يا أبا محمد... اشرب بصحتك وصحة صاحب الزنج.

- ليس اسمي أبا محمد. بل أبو عثمان.

-أعذرني يا أبا عثمان فأنا... أرى أنّك صَحِلْتْ. خذ لك كأساً أخرى.

-نِعم ما تفعل يا ولدي.

-تفضل. اشرب مثلي هكذا.. جرعة واحدة لكي تنسى. تشمم أبو محمد بأنفه وقال:

-أشتم رائحة شياط.كأنه مرق اللحم.

فهببت من فوري لا ألوي على شيء أنظر فيما صار إليه أمر الطبيخ، كان الماء قد تبدّد وقد أصاب الإحراق أدنى قطع اللحم مما يلامس قاع القدر. فبادرت إلى إطفاء النار وغرفت في طاس كبيرة من الفخار جيء بها من بلاد الصين. وجعلت القِرى أمام ضيفي. فأخذ يمعس اللحم بأصابعه ويلقمه. وما بين لقمه وجرعة راح أبو محمد الطبري يواصل حديثه الطلي. قال:

«ثم نزل الكافر في المسجد على نهر ميمون وأقام هناك يؤلب على الخليفة. ولم يزل هذا دأبه يجتمع إليه السودان إلى يوم الفطر. فقام يصلي بالناس. خطب خطبة ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال: وأنّ الله قد استنقذهم به مما هم فيه من الضنك وسوء الأحوال.

ولما فرغ من صلاته أمر الذين فهموا قوله أن يفهّموه لمن لا فهم له من الأعاجم لتطيب نفوسهم. ثمّ جاءه قوم من البادية وأهل القرى فعرضوا عليه أنفسهم وبذلوا له ما لديهم. فجزاهم خيراً.

-أتسمع يا أبا عثمان؟ ما هذا؟

-كأنه طارق بالباب.

-أستميحك العذر. سأظهر إلى الباب عساه يكون ذو حاجة. وخرجت أستطلع الأمر. فما كان بالباب من أحد. فصرت إلى العرصة أتلفت يمينا وشمالا فلم أر أحداً. ولكنني لمحت الغمّاز الخلفي لسيارة كانت تغيب وراء المنعطف.

قرع الباب أمر لا شك فيه. فمن يكون الطارق يا ترى؟ أيكون أحد الموتى قد خرج من قبره يتربص، فآنس ضوءنا فجاء يطلب القِرى؟ أم هو تأثير الشراب مع الطبري أبي محمد؟ بل أبو عثمان.. ملعونة هذه الويسكي تنسي الواحد اسمه. دخلت.

-عفوا يا أبا محمد إنّه أحد الموتى الذين حدثتني عنهم لا بد أصابه الأرق فجاء يدلي بشهادته ويسمر معنا.

دعني أقول لك شيئاً يا آبا محمد.

-قلت لك لست بأبي محمد. رد غاضبا يتطاير الشر من عينيه.

-أنت أبو عثمان أدري. إن هي إلا أسماء... دعني أقول لك شيئاً عن الموتى هؤلاء... هؤلاء حمقى مرتين: مرة لأنهم ماتوا. ومرة لأنهم تأخروا كثيرا قبل أن يموتوا. أنت تعرف ما أعني بالطبع. ونحن في حالتنا هذه يا أبا عثمان، يجب أن نتوخى الحذر من تكرار الغلط أثناء الفصل بين من هم موتى في قبورهم ومن هم في سبيلهم إلى الموت. المتسامحون مع الموقف الرسمي. والحمقى مع المعارضة.

وفي رأيي أن أي إزعاج لهم في قبورهم سوف يصرفهم عما هم فيه من يقظة الضمير. هل تعلم يا صديقي أنني أعاني من شيء مشابه؟ أعني يقظة الضمير. وهي مسألة لا علاج لها كالتهاب البروستاتا. خذ مثلا أصحاب علي بن محمد بن الفضل أو أياً كان اسمه، بعضهم من ذوي العقل الراجح بلا شك، وأفضل طريقة للاتصال بهم لفحص دعاويهم تكون في كتابة الرسائل لهم. أنت تعرف. عنوانهم مضمون ولا يتغير: الدار الآخرة دوت كوم. الرسالة أفضل ما يمكنك تقديمه لميّت. رسالة ذات حروف رشيقة بخط ديواني واضح ومشكول مع طابع واردات في أعلى الزاوية اليسرى من الظروف الذي قدمه لي رحّال مع وصيته.

-ومن يكون رحّال هذا؟ ما سمعناه به. هل هو من رجالات المعتز.

-يا ليته كان. لتغير التاريخ كله.

-فمن يكون بريك.

-دعك منه فحديثه يطول.

أقول يا أبا عثمان إنَّ احتمالات، لا يمكن تصورها، من كتابة رسالة لرجل فارق الحياة. بعض الفضوليين ممّن لا يزالون أحياء قد يسالون: وماذا عن وسائل الاتصال الأخرى كالهاتف الأرضي والموبايل والفاكس والإنترنت. هؤلاء يجب تذكيرهم بأنَّ هذه الوسائل غير مضمونة، ناهيك عن تكاليفها الباهظة التي لا يطيقها وضعهم الاقتصادي أمثال الغلمان الزنج الذين جرت إبادتهم تماما. أما الرسائل فهي شيء أثيري، روحاني، فيها لمسة اليد الإنسانية.. إنني أهذي. اشرب يا صديقي اشرب ودعني أقول لك إنَّ إحساس هؤلاء الغلمان بالفخار لا يدانيه أي إحساس مما نعرفه نحن.

-لولا أنني واثق من نفسي بأنني بكامل الصحو والوعي لقلت أن هذه الأفكار تشبه أفكار السكارى. قال أبو عثمان هذه ثم أخذ الملحفة فمسح بها ما علق بأصابعه وشاربيه من الإدام.

وكنا قد فرغنا من الطعام، ولم يبقَ في الصفحة إلا يابس العظام.

-أسقني بأبي أنت. قال أبو عثمان، فوالله إن هذا لمن أجود ما حوت الدنان، نحمد الله على ما أصبنا من طعام شهي وشراب سخيّ. فوالله إنّها لليلة مميزة في الزمان مثل ليلة من ليالي الزعفران. صحبتها مليحة، ومنادمتها صريحة. شراب كأنه الترياق ولحم طيب المذاق.. و...

-رويدك يا صاحبي.. نحن في غنى عن السجع والمبالغة، فقد عرفناها في كتب المطالعة. أريدك بعد أن شبعت، وأنت الذي شريت في التواريخ وبعت، أن تذكر لي شيئا عن مواطن الرجال الذين كانوا يسوسون الناس، فينصاعون لهم من سائر الأجناس وكيف كان شانهم إلى العصبية في هذه القضية.

فكر الشيخ قليلا مثل من يستجمع ذاكرته وقال:

-أحدثك بما كان من أمر عزل المعتز في تلك الأيام.

-أنت كنت شاهداً على الأحداث

-كنت في شرخ الشباب في الثلاثين من عمري.

-تفضل فأنا في غاية التلهّف لكي أعرف توّاق إلى الاستماع، لكي أعرف لماذا ثار أولئك الرعاع.

-لثلاثٍ بقين من رجب خلع المعتز. ولليلتين خلتا من شعبان أظهر موته.

-كيف؟ هل بعجوه بالسيف؟

-دخل صالح بن وصيف على المعتز وقال له: يا أمير المؤمنين ليس للأتراك عطاء. ولا في بيت المال مال. وقد ذهب ابن إسرائيل هذا (وأشار إليه بين الحضور) وأصحابه الفجرة بأموال الدنيا.

-هل كانوا جميعهم في حضرة الخليفة؟

-جميعهم كانوا حاضرين.

-تفضل.

-فقال أحمد: يا عاصي يا ابن العاصي... أتتهمني؟

ثم ما زالا يتراجعان الكلام حتى سقط (أحمد) مغشيا عليه، فرُشَّ وجهه بالماء وأخذ صالح بن وصيف ابن إسرائيل وابن مخلد وعيسى فقيّدهم بالحديد في حضرة الخليفة. فقال المعتز لصالح: هب لي أحمد هذا فإنّه كاتبي وقد رباني... هبْه لي. فلم يلتفت صالح لرجاء الخليفة ثم ضرب ابن إسرائيل حتى كسرت أسنانه وبطح ابن مخلد فضرب مئة سوط وكان عيسى بن إبراهيم محتجماً فلم يزل يُصفح حتى جرت الدماء من محاجمه. ولم يُتركوا حتى أخذت رقاعهم يتعهدون بموجبها بمالٍ جليل قسط عليهم. فصار الأتراك إلى المعتز يطلبون أرزاقهم وقالوا له:

-أعطنا أرزاقنا حتى نقتل لك صالحاً بن وصيف.

فأرسل المعتز إلى أمّه (قبيحة) يسألها مما عندها، وهو كثير، ليعطي الجند الثائرين عليه. فأرسلت له «ما عندي شيء» فلما رأى الأتراك أنَّ المعتز وأمّه قد امتنعا ولم يسمحا لهم بشيء صارت كلمتهم واحدة ومعهم الفراغنة والمغاربة وبعض أهالي بغداد واجتمعوا على خلع المعتز.

ولثلاث بقين من رجب دخلوا عليه بالسلاح وصاحوا: «اخرج إلينا». فبعث إليهم «إني قد أخذت الدواء (شربة خروع) وقد أجفلتني اثنتي عشرة مرة. ولا أقدر على الكلام من الضعف. فدخل إليه جماعة جروه برجليه إلى باب الحجرة وأحسبهم قد تناولوه بالضرب بالدبابيس، فخرج وقميصه مخرّق وآثار الدم على منكبيه. فأقاموه في الشمس في وقت شديد الحر.

قال الراوي فجعلت أنظر إليه يرفع قدميه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي أقاموه فيه، ورأيت بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده. وجعلوا يقولون اخلعها اخلعها (يعنون الخلافة) فخلعها مكرها وأحلّ المسلمين مما في رقابهم من البيعة والعهود، وكتب بذلك كتابا على نفسه شهد عليه الحسن بن محمد ومحمد بن يحيى وأحمد بن جناب ويحيى الاصبهائي وعبد الله بن محمد العامري وأحمد بن الفضل وحماد بن إسحاق وعبد الله بن محمد وأخوه إبراهيم بن محمد وذلك يوم الاثنين.

ولما خلع دُفع به إلى من يعذبه فمنع عنه الطعام والشراب ثلاثة أيام طلب حسوة من ماء البئر فمنعوه. ثم جصّصوا سردابا بالجص الثخين ثم أدخلوه فيه وأطبقوا عليه الباب فأصبح ميتاً..

-ميتة أفضل من ميتة ذلك الذي وطئوا خصيتيه حتى مات، قلت معلقاً.

-مه! أتعرف ذلك؟ أتعرف المهتدي؟

-حدثني عنه المسعودي زميلك.. وأحب أن أسمعها منك.

-كان أمره عجبا. فقد طارده الغلمان في جنبات القصر، فمضى يركضن منهزما والسيف في يده مشهور وهو ينادي: يا معشر الناس انصروا خليفتكم فلم يلتفت إليه أحد. حتى صار إلى دار عبد الله بن محمد فدخلها هاربا ووضع سلاحه ولبس البياض لكي يعلو داراً وينزل أخرى، فأدركوه وهو يصعد وبادروه فرُمي بسهم وبُعج بالسيف، ثم حملوه على بغل وصاروا به إلى دار ابن خاقان، فجعلوا يصفعونه ويبصقون في وجهه. وسألوه عن ثمن ما باع من المتاع والخرثي، فأقر لهم بستمائة ألف. فأخذوا عليه رقعة بستمائة ألف دينار ودفعوه إلى رجل فوطئ على خصيتيه حتى مات.

-وبايعوا الذي يليه. قلت، فلم يلتفت إليّ؛ لأنه كان قد فض الزجاجة الثانية وراح يشرب من فم الزجاجة. ودفعتني روح الأريحية إلى الترحيب به فقلت:

-حيا الله ابن بلدي ابن طبريا. أنا أيضا من المعلقة قريب من طبريا.

-قلت لك ألف مرة أنا لست من طبريا. أنا (هأ) من طبرستان.

-كلنا واحد أبناء آدم وحواء يا أبو محمد أليس كذلك؟

-ولا هذه أيضا. فلست بأبي محمد.

-حسناً حسناً لست بأبي محمد، لست من طبريا. أنت أبو عبد الله من طبرستان. ولكن خبرني! إذا كانت هذه هي أحوال خاصة الخاصة في العاصمة بغداد وفي قصر الخلافة، فكيف يكون حال الناس الفقراء في الأطراف البعيدة؟ ما لا خلاف عليه بيننا أنَّ الكيل يفيض حين يطفح... انظر...

وضعت كأسي أمامه وأخذت أصب فيه حتى فاض... انظر ها هو بفيض عندما يطفح.

«طفح الكيل بالزنج وعبدان القطائع ففاضوا مثلما ترى في هذه الكأس.

كان يحدق بعينين حمراوين بوجه غبي مثل كرة ركلها أحدهم فدخلت الهدف فأضفت.

-فلماذا يا رعاك الله تصف صاحب هذه الجمجمة التي تراها بأنه كافر مرة وزنديق أخرى ومارق ثالثة، ورابعة بالخارج على الملة، وخامسة بالفاسق وسادسة وسابعة. قل لي بربك لماذا؟

-لأنه كذلك. خرج عن الجماعة.

-قل لي يا أبا عبد الله كيف كنت تتدبر أمر معاشك؟

-بالأعطيات من السلطان والقادة والوزراء. شأني شأن ساء الفقهاء والعلماء والمؤدبين والأئمة والشعراء.

فرحت أدمدم لنفسي «قد أحسن صاحب الزنج ببطحهم وشطبهم. فذلك أضعف الإيمان».-ماذا تقول يا ابن أخي؟

-لا شيء. أمهلني قليلا ريثما أنتحر وأعود.

قمت أترنح إلى الحمام. الضغط في المثانة لا يحتمل التسويف... «لم يكن هؤلاء الزنج رواداً. سبقهم غيلان الدمشقي وأبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر والمقداد به الأسود ممن نفاهم معاوية إلى عثمان في المدينة.

عمار فتق الأمويون بطنه في بيت عثمان.

وأبو ذر مات منفياً لم يجد من يدفنه عندما مات. وعبد الله بن مسعود كسروا ظهره.... كثيرون.. غيلان قطعوا يديه فظلَّ يتكلّم. قطعوا رجليه فلم يسكت عن الفضائح. فقطعوا لسانه. معبد الجهني،الجعد بن درهم،الجهم به صفوان، قائمة لا تنتهي..

لم يبقَ لي منها سوى العينين.

في إحداهما وعد،وفي الأخرى حمامة.

ما زلت تحلم بالتحشّدِ والنشيدِ تكدّس الوطن المسخم في المخازن ثم..ترجل الزعامة!

إنّ الحوات تحيط بالقتلى، والشعر يُولد في فم الشعراء مقتولاً.. ويُطرح في القمامة.

غيلان مرّ على الشبابيك الصفيح يسيّج الأحلام يصطاد العتابا.

علقت به شيطانة لثغاء تحجل في زواريب المخيم. قصبية الساقين،حافيةٌ، وتوزعها الوسامة!

غيلان عمّدها، وضفّر شعرها المغبّر، أعطاها حصاناً من خشب.

وكساه سرجا من عتاباه الخبيئة.. ثمَّ أسلمها زمامه!

قتلوها فترنحت صبرا.

غيلان يا غيلان يا شعرا تقطّر في فمي مرا له طعم الندامة.

طوبي لمن كانت هواجسَه الكرامةُ في زمانٍ داعرٍ

مقت الكرامة.

سنحت الفرصة ذات مرّة بظهور هؤلاء الزنج ولن تتكرّر. طافت الفكرة بذهن علي بن محمد بن مش عارف مين منذ ألف عام قبل أن يلتقطها كارل ماركس ويحولها إلى فلسفة ذات أركان، لحيته تكسو... (تفرش؟ لا. تكسو أكثر صحة) لحيته تكسو صدره وتغطيه. المريد لينين كان يقوم مرهقا تماما في آخر الليل. يهبُّ من نومه مذعورا. ما العمل؟ ذاك دقّ ناقوس الخطر، وهذا وضع النظرية موضع التطبيق. خسر الإنسان مرتين: مره لعدم تحقق الفكرة، ومرّة لمن ضحوا في سبيلها. ثمة من يأخذ زمام المبادرة حتى لو قطعوا لسانه كما فعلوا مع غيلان. لسنوات تنفست الشعوب الصعداء، وبدأت ملامح الإنسان تتضح في مصر وسوريا والعراق والجزائر والهند وكمبوديا وفيتنام ولاوس وكوريا والهندوراس ونيكاراغوا وتشيلي وكولومبيا وبوليفيا وجيفارا كوجه المسيح، بسطار، خوذة، بندقية ثم الأمر بإطلاق النار، وسقط القديس عناقيد الغضب؟ العقب

الحديدية؟ جون شتاينبك، هوارد فاست؟ مملكة النسيان شاسعة. لومومبا مات بنفس الطريقة. مرتزق بدريهمات أنهى الأسطورة. ماتت طفلته بالحمّى. فغامر بالتسلل بين جيوش المرتزقة ليدفنها. ما أعجب مفارقات الحياة. وقع في أيديهم فقتله مرتزق وهو مقيّد اليدين و... وسمبا!! تغلغلت الصحبة في غابات الكونغو... هذا هو الرعب الحقيقي يا صديقي.

تماسك ستفلت منك. عليك اللعنة. لا تترنح هكذا... شربت زجاجة كاملة. حاذر! ستصطدم بالجدار. ليبل يخلخل بنيان الذاكرة. هذه أول محاولة سقوط تفشل في تنفيذها. حظاً أوفر في المرات القادمة. من الذي وضع هذا الجدار هنا؟ لم يراع الحيطة لمثل هذه الظروف، لا تصطدم بالجدار أقول لك. زجاجة كاملة يا جشع. حاذر رأسك. ما تزال بحاجة إليه. حاجتنا إلى رؤوسنا لا يوازيها... حان قطافها. أينعت وحان قطافها. ابن الزانية يعتبر رؤوس الناس كعرانيس الذرة. حضارة شاخت منذ أمد بعيد وما تزال تتصابى. باقي زجاجة أخرى سوف تشرب حتى لا تقوى على الوقوف. نقطة وراء نقطة تسيل عبر الحالب إلى المثانة حتى تمتلئ. ضغط مؤلم ثم تدفق أخرق بربربربرش ش ش. مريح. ارتخاء. هارون الرشيد هذا لغز. قال له الحكيم: إذا حصرت وامتنع عليك البول فماذا تعطي لمن يشفيك؟ رد هارون بيك أعطيه نصف ملكي! نصف الإمبراطورية في عز أيامها. يبادله ببولة. كأنها بيت أبيه. آه يا صاحب الزنج بربربر ش ش. هل تستطيع اجتراع كلمة واحدة تصف هذا الصوت بدقة؟ مثل كلمة دحرج مثلا دح. حجر يتدحرج بين الهشير دح ثم سقوط وارتجاج رج... دحرج. مثلها في الاشتقاق مثل الجذر نف تضيف صوتاً آخر فيولد معنى جديد: نفثَ نفحَ نفخَ نفذَ نفرَ نفز نفسَ نفعَ نفضَ نفط نفشَ نففَ نفقَ نفلَ نفى كلها تنبع من المركز وتتجه إلى الخارج. هي كذلك في تلافيف الكلية الماء واليوريا والغازات الذائبة والأملاح نحو حوض الكلية بول بر بر بر. الزواحف ارتاحت من كل هذا. جهاز بول معوي تناسلي واحد. لا. برازها جاف تماما. تفاهة الكائن وعبقرية الصنع. داروين. ليس صحيحا تماما كما يبدو. هذا يحتاج إلى ذكاء مطلق. جماعة أرسطو جسّدوا أرباهم. يا رب الأرباب من قصدك ما خاب. عليك الرحمة شيء يقلب الرأس. حاذر ستصطدم بحافة الباب. هل لا بد من وجود هذه الحواف للأبواب؟ كفاك ترنحاً يا بندول غاليلو. وهذه الجدران تدور من حولك «لا توجد ويسكي رديئة هناك شاربون أفضل من غيرهم» صح لسانك يا سيد فوكنر وليم. عندنا يقولون في السياسة «ليست هناك إجابة سيئة بل هناك سؤال رديء» تخيل جواباً يفرض شروطه على السؤال. طبعا لأنّ سوسو سوف تعتزل... ماذا أكون بحسب نظرية فوكنر؟ الجسم والويسكي من طبيعتين مختلفتين طين وأثير. التجانس الكمي والنوعي ضروريان.

دجاجتان + دجاجتان = 4 دجاجات. جسم + وسكي = ترنّح! عسيرة على الفهم؛ لأنَّ نقل أحد أطراف المعادلة إلى الجانب الآخر يصبح شيئا مرعباً. جسم-ترنّح = ويسكي. عندها تعلن اسكتلندة إفلاسها، وتضم صوتها إلى إيرلندا الشمالية.

ما أكثر هذا الليل وما أطوله. أبو محمد! طبري! أين أنت؟

أغلق على نفسه الغلاف وعاد إلى النوم بين السطور.

خلا المسرح وأسدل الستار، وانصرف الجمهور، ولم يبقَ إلا الجمجمة والصمت.

جمجمة أكبر ما فيها تجويف العينين والابتسامة.

أفقت في ضحى اليوم التالي نشيطاً على غير ما هو متوقّع! وبعد الإفطار والقهوة، بدأت بانتقاء الأفضل من الملابس ونقلها إلى السيّارة.

وجدت الكثير من الصعوبة في المفاضلة بين هذا وذاك. واستغرقت الحيرة والتردّد في عمليّة العزل والاختيار الكثير من الوقت.

لم أكن أعرف في أيّ يوم من أيّام الأسبوع أنا. ولكن الأمور كانت تجري بسأمها المعتاد:

الأربعاء يسبق الخميس، والثلاثاء يعقب يوم الأحد، وليلة الأمس لم تعد موجودة إلا في الذاكرة، والساعة الثالثة تبدو ملائمة تماماً لإسقاط الحلي في خزان الوقود، رغم أنّها مملّة وترفض الاعتراف بأنّها كذلك.

وانتهى الأمر بأن حشوت الجزء الخلفي من السيارة كله بالملابس. وعندما أحضرت الصندوق، وفتحت غطاء الخزّان، أحسست بما يشبه النظرات الفضولية تتجسّس من حولي كأنها عيون سجينِ قلعةٍ قوطية تراقبني من الطاق في أعلى البرج.

واستغرقت الكثير من الوقت للتحقّق من أنَّ أوهامي لم تكن إلا أوهاماً.

أنجزت كلّ ما يدعو إلى الاعتداد بالنفس. بدرجة من الإتقان قد يحسدني عليها الكثيرون. ولم يبق إلا أنْ أتوجّه من الغد – إذا بقينا من أهل الحياة – إلى حيث دوري في الطابور.

أمّا الآن، فلا بدّ من الذهاب إلى المقبرة، رغم أنّ الوقوف هناك لن يكون ممتعاً، لكلمة وداع أخيرة وقراءة الفاتحة. فقد غابت الشمس.

* * *

في بقعة يتقابل فيها الليل مع الصحراء، حيث الفراغ لا ينتظر غير الفراغ، وحيث لا نأمة لكائن غير دبيب الصمت، وقفت خاشعاً بين قبرين صغيرين:

قبر الصغير تيسير الذي مات قبل أن يعيش، وقبر الصبيّ محمد الذي قتله الرعب.

كان يتحرّك بينهم بهدوء، جاراً قدميه مثل ميت، وهم يأخذونه لكي يتمدّد في الحفرة، ويتعرّف على رهبة الموت، ويشعر بعذاب القبر... ويتعظ.

وعلى وقع خطى ارتجاف الطفولة، خرجت الأفعى من الحفرة، وانسابت، ثمّ غاصت في شقّ الأرض.

«هذه حصتك الأولى من العذاب إذا لم تكن مؤمناً على طريقتنا». قالها وجهٌ مظلمٌ على سبيل الفكاهة! فكاهة كالرعب المبثوث.

جاء مع شيوخه طائعاً، مغسول الدماغ تماماً، ليميط اللثام عن "العبرة من الموت" كما قالوا له. وعندما مدّدوه، ظلّت عيناه شاخصتين في فراغ ما بين النجوم، عينان كمصباحين ذابلين. أراد أن يقول «أرى الموت يقترب.. وأنا خائف»، ولكن لسانه خانه فابتسم برعبٍ لا يوصف... ومات.

بدا مثل صوفي خلع الخرقة وهام على وجهه. على وجهه تسامح قدّيس. كانت عيناه تتضرّعان. تستجديان وجوههم الجامدة، المقنّعة، المحايدة، فلا تريان غير أشباح.

تومض عيناه للحظة لمرأى الأشياء، وهي تتحلّل أمام فحيح الخوف الزاحف. خوف فاض، وطغى، وغمر الوجود.

استسلام مهيض لعقول سوداء.

لم يكن من قبيل الصدفة أن يتذكّر وصيّة أمّه بألا ينسى دائماً أن يُحكم تزرير ياقة القميص اتقاء للبرد، ويتذكّر فريق كرة القدم الذي وصل إلى الدور نصف النهائي.

يفكر بفقره وهو يتأمّل وجه الشيخ المكفهرّ أبداً... تلقّفوا فقره. كان يشتكي الحاجة بعينين ضارعتين صامتتين.فقر من النوع الذي يمكن الإمساك به متلبساً في الحذاء ذي الجلد المثقوب، ولم يكن يتكلّم إلا عند الضرورة القصوى.

كانت الحفرة جاهزة سلفاً، أعدّوها أثناء النهار بين صلاتي الظهر والعصر، ولكن لا بدّ من لمسات أخيرة في هذا الليل.

راحوا يعملون بتناسق مرعب، حركات صمّاء، لامبالية. لو فكّر بها أحد قليلاً لما رأى غير إجراءات عادية لامبالية ولا مجال للشكّ في جنونها. شيء متحرّر تماماً من أعمال العقل. وفي غيبة القاعدة العقلانية تخرج من داخلنا الغيلان ونرى الأهوال.

عرفت أهله قبل سنوات وعرفته.

ملاك يرتدي قميصاً رخيصاً. ترى اللطف المقتصد في حركة يديه عندما يتكلّم. رأيت كيف يكون الأدب الأرستقراطي عندما ينحدر من أبوين معوزين.

وعندما يكون رفاقه ودودين، فإنّهم يعترفون سرّاً فيما بينهم بأنّه الأفضل.

يهزّون رؤوسهم وهم يقومون بوضع اللمسات الأخيرة لتجربة القبر. يتناول أحدهم المسحاة من يد أخيه، أو تصطدم يد أحدهم بيد الآخر عرضاً فتسمع عبارة من نوع «سامحني يا أخي»، يقولها ببراءة مثل براءة صنارة الصيد وقد اشتبكت بكفّك عفواً.

ألا إنّها إرَمُ الظالمة. وجوهٌ بآثامها فاحمة.

أيُّ شيءٍ يجعل النّاسَ على ما هم عليه يا ربّي؟

الآلاف يموتون في أنحاء العالم هذه اللحظة: حوادث مرور، وعمليات ثأر، وتطهير عرقي، وعلى أسرّة المستشفيات، وفي تصفية الحسابات بين العصابات، وعلى أيدي متعهّدي القتل الخبراء، نظيف ومضمون، ماركة الماء الأسود على العنوان الإلكتروني دبليو دبليو قتلنظيف دوت كم، متسلّقو جبال، غرقى، إصابات بنيران صديقة.

أما تيسير فله موته الخاص. موت لا يخشى مقترفه معه أيّ لوم.

منزوع من أيّة وسيلة للدفاع، استسلم للموت مثلما يستسلم الرضيع للنعاس. موت لا اسم له، يشعّ من حوله القهر مثلما يشيع الحرّ المتوهج حرارته من حوله. موت من أجل التسلية وتزجية الوقت، ومسعورون يقطرون رحيق الكراهية المرّ في الحلوق المجرّحة. وضمائر خاوية خامدة كهذه المساحات الفارغة بين القبور وماذا يمكننا بعدُ أن نقول. طار في الهواء مثلما تطير الحمامة. أكورديون معلّق في الرقبة يعزف لطابور المدرسة الصباحي. وصغار يكتمون الضحكات، وهم

يختبئون وراء المغاسل. ومدرّس الحصّة الأولى يتفقّد الغياب «أين تيسير»؟ لم يبقَ شيء البتّة! قطعتان صغيرتان من الطباشير الملوّنة وكتاب مدرسي يتهجّى الحروف. وبضعة أقلام ملوّنة، ولم تعد الخرساء قادرة على البكاء. فتحت فمها على صيحة رعب، تأخّرت كثيراً قبل أن تدوّي ساحبة وراءَها الكلام الذي ظلّ محبوساً منذ أيّام صبرا وشاتيلا. عادت إلى النطق. ولكنها الآن تحوّلت إلى مجرّد شفتين تتحرّكان دون صوت.

لم تعد بحاجة إلى إيقاظه في الصباح ولا تدري لمن تتوجّه بالكلام الذي عاد إليها فجأة.كما أنَّ المدرسة لم تعد بحاجة إليه.

ظلّت يده قابضة على كعب دفتر الرسم، واضطررنا لفتح أصابعه المتيبّسة، وكان قد رسم طاووساً بذيل أزرق تحته خطّ أحمر، يمثّل الأرض، كالحدّ الفاصل بين الموت والحياة. الانتقال المفاجئ من الطائر إلى الأرض، من الحلم إلى التراجيديا والأسئلة المستعصية.

كان له قلب ينبض، وعينان تتساءلان، وأصابع تمسك بقلم التلوين، وكان يحلم ويحدّثني بما يراه في المنام.

جاءوا يطمئنون صديقي بكلام ملغّم مريب. فنظر إليهم بغضب صريح صراحة البكاء ولم يفُهْ بحرف.

مثلما كان يحدث دائماً، تعلّق بوالده عندما خرج لشراء كيلو بندورة، ورأت الأمّ أنّها سترتاح لساعة من شيطناته. فعاد بعد قليل محمولاً على الساعدين. حسِبته نائماً. شحب لونها، عنف الصدمة، ظلّ فمها مفتوحاً على صرخة تأخرت كثيراً قبل أن تدوّي... تيسيييير!

رأت ذبالات زرقاء تمرّ أمام عينيها، أشباح هشّة، خرساء، وأرض تميد بها. فصاحت. وخرج الأب من ذهول ودخل في ذهول.

ومرّ في خاطري ملصق على جدار للدرّة يختفي وراءَه الوطن. ألمٌ حارق كالنار في فم الجرح، وهو يحاول جاهداً ألا يموت. والأب يحاول أن يحميه من الرصاص بذراعيه. والقَتَلَةُ قادرون على لجم مشاعرهم كالبلاط المغسول. ذراع الوالد تهوّم بجزع تهشّ الموت بعيداً، وأصابعه كالأشعة تحاول ملامسة يد القاتل.

كان كلّ شيء موجوداً أمامي بين القبرين الصغيرين: الوجع والأنين والنجوم الخامدة في السماء والحزن والزمن السرمدي في السماء المظلمة والمشاعر الحادّة كشظايا الزجاج المتكسّر والكراهية التي لا ينضب معينها.

هناك، قرأت الفاتحة وبكيت.

* * *

عدت إلى السيارة مفرغ الحسّ تماماً. وما إن تحرّكت بضعة أمتار حتّى بدأت "تطبّ وتدبّ" صعوداً وهبوطاً، وأحسست بالمقود ثقيلاً بين يدي. أوقفتها لأتبيّن الأمر، فكانت العجلة الأمامية فارغة من الهواء!

فانتازيا الواقع، وجهامة الميتافيزيقيا، تفاعلا في مركّب واحد.

مسمار ضرب الإطار، ضربَ مسمارٌ الإطار. الإطار ضربهُ مسمار. "فانتاميقاواقع" بلسانٍ عربيّ مبين. كان الليل قد أمسى ليلاً حقيقياً، كدأبه دائماً، في ساعة الإلهام، فأخذت بتفريغ الصندوق الخلفي من الملابس المنتقاة، والمسفطة بعناية، وإلقائها على الأرض بلا عناية. وأخرجت العدّة والإطار الاحتياطي، وبدأت العمل. اعترضتني صمّولة من "أوسخ" ما عرفت في حياتي من ناس. أكثر سوءًا من جميع المسامير التي عرفها الإنسان.

غبيّة، عنيدة، لا تساوم ولا تتفهّم، ولا تقبل بأيّ حوار.

جرّبت مع كلّ شيء، عضديَّ وساعديّ وقدميّ وثقل جسمي كلّه. رجوتها، قرأت عليها "قل أعوذ"، توسّلت إليها، فلم تتزحزح عن موقفها.

وبعد يأس ثلاث ساعات متصلة من الاستنزاف غيّرت رأيها فجأة ولانت.

وعندما أخرجتها حدث لي ما حدث مع كلاب بافلوف. وضعتها بين شفتيّ وقبّلتها.

ركّبت الإطار الاحتياطي، وكان الليل قد انتصف، ثمّ ألقيت الملابس فوق العجلة التالفة وأغلقت الصندوق، وعدت إلى البيت.

لم أكن حزيناً ولا سعيداً ولا غاضباً ولا راضياً، ولا قلقاً ولا مطمئناً. أحسّ فقط بمشاعر مسمار دخل في عجلة. وهي حالة لا يجدي معها إلا الزجاجة المتبقية من ليلة أمس.

شرائط قديمة ومسجّل قديم. استدعيت فريد الأطرش وبدأنا السهرة معاً.

وبين آهاته وطيشي، استخفّني الطرب. فأتينا على الزجاجة كلّها. كانت سهرة مجيدة، انتهت مع تباشير الصبح الأولى. فألقيت بنفسي على السرير بكامل ملابسي، ونمت. وكان ذلك آخر عهدي بالأمس.

أيقظني امتلاء المثانة، الحصر والاحتباس انتزعاني من نوم ثقيل.

قضيت حاجتي فيما كانت الشمس على يميني فيما كان النعاس ما يزال يشدّني بقوّة فعدت إلى النوم شبه نائم، مطمئناً إلى أنّ الأشياء في العالم ما تزال كلّها في مكانها الذي تركتها فيه.

وعندما أفقت ثانية كانت الشمس ما تزال على يميني، فلم التفت للمسألة طالما أنّ الشمس ما تزال في مكانها.

وفيما كنت أستحمّ، تذكّرت.

هنيئاً لقد نمت يومين كاملين.

كنت خائر القوى، شديد الجوع، ففتحت علبة تونا وأكلتها مع بقايا أرز من أوّل أوّل أمس.

ودّعت البيت بأقلّ قدر من الإحساس بالأسف، وخرجت. وعندما شغّلت السيارة رأيت أنّ مؤشر الوقود قد تناقص إلى درجة كبيرة، حسناً سأتدبّر الأمر من احدهم. لا حاجة بي إلى السرعة. وتوجّهت إلى الميناء.

كان رتلّ الشاحنات التي تنتظر دورها قبل ثلاثة أيام يصل إلى الصيدلية. وجدت الصيدلية مغلقة في مكانها، ولا وجود لآخر الرتلّ. وصلت إلى خزّانات الوقود القديمة، فكان الشارع ما يزال

خالياً. لا بدّ أنَّ عدد المنتظرين قد تناقص إلى حدّ كبير. أسرعت نحو مدخل الميناء لأفاجأ بأنّ الناس قد غادروا جميعاً.

كانت الجزيرة خالية تماماً. رحل الجميع أثناء نومي.

كيف؟؟

لا بدّ أنّهم استخدموا عبّارات الجيش أيضاً...

والآن يا روبنسون؟ ما العمل؟

أوقفت السيّارة على جناح المرسى تحت يافطة ممنوع الوقوف، وترجلت أجيل النظر يميناً ويساراً. ليس ثمة أثر لحياة. غادروا وتُركت وحيداً. لن يضير الميناء شيء لو فاتتني العبّارة. فهذا دأبه دائماً. كنت غالباً ما أتأخر حتّى اللحظة الأخيرة، ولن يضيره شيء لو تأخرت هذه المرّة أيضاً.

والموانئ على وجه العموم قلّما تلتفت للظروف الخاصّة للمسافرين الذين تفوتهم السفن.

وقفت على حافّة المرسى تراودني فكرة سخيفة: ماذا لو ألقيت بنفسي في الماء؟

كانت مقدّمة حذائي تبرز فوق حافّة الإسمنت. صورتي المنعكسة في الماء تحتي مباشرة تبدو مقلوبة، تبدأ بمقدّمة الحذاء البارزة، وتنتهي بالرأس.

أين الصورة وأين الأصل؟ لم أكن حتّى اللحظة قد أحسست بالسكّين وأدركت حجم الكارثة.

رأيت صورتي تحت الحذاء مباشرة تتحسّس أعضاءها. هذا الشيء المستدير كالبطيخة ما يزال موصولاً بالعنق، وفي نفس المكان الذي تعوّدت أن أجده فيه. وهذا ساعدي، وذلك حذائي في وضعه الشاذّ يهمّ بالطيران فوق الماء. وهذا هو المرسى، يليه حوض الميناء. ووراءَهما البحر. وتلك هي مباني الإدارة. وها هي الأشباح غادية رائحة وأشجار المدخل صافنة كعادتها تنتظر عودة الريح من رحلتها.

وحتّى البحر تخلّص من أمواجه. جَمَعها وركنها جانباً، ريثما تسنح له فرصة الرحيل. ولولا بقية من زرقة فاتحةٍ اعتدت أن أعرفه بها، لأنكرته. أليس غريباً على بحر متقلّب المزاج أن يحتفظ بزرقته كلّ هذه المدّة؟

كان يتمدّد بملال كبركة آسنة، ودفعتني حياديته المقيتة حيال مشكلتي أن أبصق عليه. بصقت، ولكنه لم يعبأ. وظلّ صامتاً.

وسمعت قريني الذي يأتي في أسخف الأوقات عادة، يهمس لي بشماتة قائلاً:

«مشكلتك الآن من نوع جديد، وهي أنّه لم يعد هناك أحد يمكنه أن يتسبّب لك بأيّة مشكلة».

وبوضوح تام سمعت قهقهة تملأ الميناء. وداخلني بعدها شيء من الخوف. فدخلت قاعة المغادرين. فمن ذا الذي يمكنه أن يدّعي معرفة متى يمكن أن تحدث المعجزات؟ ألا يمكن أن يوجد مَن لم يصدّق ما يحدث في الدنيا. يجلس هادئاً خالي البال ينظف أظافره وينتظر عبّارة لن تأتي أبداً؟ كلّ شيء جائز أمام المعجزات. كانت المقاعد متناثرة ومقلوبة. تتناثر حولها العلب الفارغة وأعقاب السجائر، ولا شيء آخر.

مررت بشباك التذاكر عسى أن يكون الموظّف ما يزال هناك ينتظرني كي أحجز واحدة. كانت النافذة مفتوحة ولم يكن هناك.

وخيّل لي أنّني وجدته وقلت له أنا الأستاذ جروح و.... فردّ عليّ:

-والضراط.

ما يزال على قلّة أدبه.

دلفت إلى الكافيتريا بعد أن غاب وجهه فوجدت الأدراج مقلوبة والثلاجة نصف مفتوحة وفارغة، ووجدت علبه مياه غازية ما تزال على حافة الكاونتر، رججتها فكان في قاعها القليل.

عند باب الحمامات صفعتني رائحة أمونيا قديمة حادّة. سأتبوّل في الساحة الخارجية على مرأى من الجميع، فليس هناك من سيعتبر ذلك مشكلة.

خرجت من المبنى معتقداً بأنّني سأجد موقف السيّارات غاصّاً كعادته.. لم يكن هناك غير سيّارتي. عندها بدا لي المكان فسيحاً بأكثر ممّا يلزم. ورأيت سيارتي بحجم علبة الكبريت في هذا الفضاء الرحب.

وفيما كنت أغلق الباب بهدوء خشية إزعاج الآخرين، لفتت انتباهي سماعة الهاتف العمومي تتدلّى خارج الصندوق كأنّ أحدهم تعمّد أن يتركها هكذا. تمنيّت لو أنّها كانت تتأرجح.

بعض الأمنيات شديدة الغرابة. كانت السمّاعة مدلاة كجثّة مشنوق.

تقدّمت ورفعتها إلى أذني.. «هالو...»

لم يكن هناك حرارة، أعدتها إلى قاعدتها بأناة واحتراس. يجب العناية بالممتلكات العامّة! وداخلني إحساس بأنّني لو عاودت رفعها إلى أذني مرّة أخرى، فسوف أسمع صوتاً يأتيني من الطرف الآخر... هالو؟ نعم إنّني هنا.

لم أحاول التجربة على أيّة حال ممّا أفقدني فرصة اختبار صدق حدسي.

وعندما ابتعدت باتجاه موقف السيارات هالني طول ظلّي الذي تمدّد فغطّى الشارع والرصيف وتسلّق السور...

يا إلهي..إنَّ إنساناً له كلّ هذا الظلّ الطويل لا بدّ أن يكون قريباً من المغيب. ولكنّني لم أكن على ثقة أيّنا كان يقترب من الآخر: أنا أم الغروب. فعندما يدور السنجاب حول شجرة الكستناء يمكن لكليهما أن يدّعي أنّه يدور حول الآخر.

لا معنى لهذا خارج نطاق مفهوم البراغماتية.

مساء الميناء الفارغ يختلف كلياً عن أيّ مساء آخر. ممّا يضعني على بداية صلبة للانطلاق نحو العبث. هكذا كنت دائماً: عندما تتاح لي فرصة الاختيار كنت أختار الأسوأ دائماً. سوء حظّ وراثي ربّما. وراثة الحظّ مثل وراثة العرق، قدرٌ لا فرار منه. وليس له علاج، وحصّتي من الحظّ لا تكفي حتّى لإدراك آخر العبّارات قبل أن تغادر.

كانت الجزيرة الخالية قد بدأت تتخذ إجراءاتها لاستقبال الغروب: الصمت المطبق، والأشياء الصافنة، والبيوت الخرساء، والشوارع المهجورة، والسماء الزرقاء، والبحر المتأمّل مثل فيلسوف.

عجوز توقّف عن الكلام قروناً، والأشياء الأخرى التي تكتم أنفاسها وترفض الإفصاح، والأرواح الغامضة المهوّمة تعوم في أثير رماد المساء. وذكرياتي التي تحوم حول الجزيرة وقد أخذت تتلاشى تدريجياً.. تذوب وتتلاشى وتذوب حتّى أمسيت بلا ذاكرة.

عندها أحسست بهذا الخوف الخفيف المرفرف في صمت المكان. خوف يتعزّز دبيبه بهذا الامتداد الساكن للبحر.

لا أثر لأيّ كائن حيّ... شعرت بالهلع.

كلّ ما حولي صار ميتاً: الرصيف، والبحر، والبيوت، والشوارع، والغروب، والأشباح الهائمة بأجنحة الخفافيش، فشعرت بأنّ ذاكرتي قد تجاوزها الزمن وصارت ورائي. لم تعد ذات جدوى.

وهنا بالضبط، سقط الحظّ أمامي فجأة مثلما تسقط وراءك طابوقة من الطابق السادس، وراءك تماماً، وعلى بعد خطوة واحدة، عندما لمحت على غير انتظار قارباً بخارياً بدا وكأنّه يطير فوق الماء.

ألجمتني المفاجأة، ولم أعد قادراً على شيء سوى التحديق المتلهّف بقارب الإنقاذ الذي جاء به القدر هذا.

كان مرأى انطلاقه بثبات نحو الميناء يغمرني بالإحساس الدافق لمن انتشلوه توّاً من غياهب الجبّ.

وما أن وصل حتّى قفز منه المسلحون يشهرون أسلحتهم في وجهي:

-ماذا تفعل هنا؟

-فاتتني العبّارة الأخيرة، كنت نائماً و...

-اصعدْ اصعد اصعد، لا وقت لدينا.

واندفعت مجموعة منهم تثبت الألغام وتربط الأسلاك إلى القوائم بسرعة. أناس متمرّسون بأعمال النسف. «ولكن معي أغراض و...» قلت دون أن يلتفت إليّ أحد. لم يكن في استعجالهم ما ينمّ عن أنّهم مستعدّون للاستماع.

-اصعد اصعد بسرعة. لا وقت لدينا سننسف المرسى. كانوا مستعجلين لما هو أهمّ من الاعتبارات التي أنوي تفصيلها «يا إخوان معي أغراض و...». فأزّت رصاصة من مسدّس أحدهم بجانب أذني قبل أن أتمّ كلامي الموجّه للا أحد. كانت مقنعة أكثر من أيّة اعتراضات يمكنني تقديمها.

-اصعد واشكر ربّك أن عثرنا عليك قبل أن يحرقوا الجزيرة.

ودفعني بعنف، فوقعت فوق سطح الطرّاد فيما كلماتي تتلاشى في الهواء مثل فقاعات الصابون. وسرعان ما انتهوا ووثبوا إلى القارب الذي انطلق كالقذيفة.

وقفت في المؤخرة أتأمّل الشاطئ الذي راح يبتعد رويداً رويداً فشاهدت سيارتي تلوّح لي بالوداع، وشاهدت الناس غادين رائحين حول المرسى. لم يحبّ أحد هذا المكان مثلما أحببته. ولم يكرهه أحد بقدر ما كرهته.

حلمت بتحويله إلى جنّة فأبى إلا أن يظلّ جحيما. جميعهم مرّوا به ونسوه.

ربّما كانوا مثلي ما زالوا يتوهّمون أنّ المكان يضجّ بالحياة... ربّما..

ولكن الشيء المؤكّد أنّهم رحلوا جميعاً وأنّني رأيت أيديهم تلوّح لي بالوداع حتّى غابت الجزيرة عن ناظري.

* * *

ضاع الصندوق، وضاعت "الخميرة"،وضاعت "ليلة الزعفران"، وضاعت الجمجمة.. ضاع كلّ شيء.

شغلني التفكير بكتابة خميرة صاحبي عن البحث عنه، فضاع هو الآخر.

لم أؤرّخ ولم أجغرف.

وها أنا أعلن أعلن عن ضياع فيات أرجنتا لون بيج محشوّة بالملابس المستعملة وبالكثير من الذهب في خزّان الوقود.

فعلى من يجدها أن يسلّمها لأقرب مركز أمني وله نصف محتوياتها حلالاً زلالاً...عدا الجمجمة.

* * *

كنت أستلقي في مؤخرة الطرّاد مستغرقاً في الضحك. ضحك طويل طويل مثل رواية تقصّ حكاية شجرة يابسة.

فسأل أحدهم صاحبه:

-ماذا به؟!

-لا أدري.. لعلّه جُنَّ.

*** انتهت ***

تنـويــه:

ضيّقوا علينا العالم حتّى غدت احتمالات المصادفة واردة بشدّة.
فأيّ تقاطع أو تطابق لشخوص وأماكن وأحداث هذه الرواية
مع أشخاص وأحداث وأماكن قد تكون موجودة،
هي ليست من مسؤولية المؤلّف.لأن الرواية من نسج الخيال.
فإذا حدث شيء من هذا فسببه ضيق العالم، والصدفة المحضة.
والمسؤولية تقع على عاتق من ضيّقوه علينا...

دعونا نسأل المكذّبين: كيف صدّقتم انّ طائرة من نوع بوينج ٧٥٧ تبلغ المسافة بين طرفي جناحيها ٣٨ متراً وتزن مئة وخمسة عشر طنا، وهي بارتفاع مبنى من أربعة طوابق تستطيع أن تضرب الطابق الأوّل فقط من مبنى البنتاغون، ولا تحدث إلا ثغرة لا تكاد تتسع لشاحنة، ودون أن يُعثر على قطعة معدنية واحدة من هذه الطائرة العملاقة؟ بل كيف تقبلتم صورة إلقاء القبض على صدّام حسين في منتصف كانون الأوّل، وفي حفرة لا تكاد تتسع لحذائه، في حين انّ النخلة المحمّلة بالبلح الغضّ في مؤخرة الصورة تصرخ بأنّ هذا البلح لا يكون إلا في شهر حزيران!؟ البلح في هذه المرحلة من النضج لا يكون إلا في حزيران، بينما التقرير المعلن للعالم يقول إنّ الصورة التقطت في منتصف كانون الأول بفارق ستّة أشهر؟!

كيف صدّق العالم هذا المستحيل؟

دعونا إذن نتفق منذ البداية بأنّ ما يعتقد البعض بأنه مبالغة هو اقلّ بكثير ممّا يمكن قوله للاقتراب من الحقيقة.

فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان – الأردن – تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan - dar_fadaat@yahoo.com

9789957303501